# التجسس

## وصاحب الخبر في العصر العباسي

تأليف

د. نسرين محمود علي

الدار العربية للموسوعات

# التَّجَسُّسُ

## وَصَاحِبُ الخَبَرِ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ




تأليف

د. نسرين محمود علي

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

# الإهداء

إلى زوجي

وولديَّ مازن ورامو

أهدي

هذا الكتاب

# المقدمة

# ومنهج البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة ومنهج البحث

حين استقر الرأي على دراسة الموضوع (**التجسس وصاحب الخبر في العصر العباسي**) وجدت نفسي أمام جملة من القضايا التي أخذت تستوقفني لأقف عليها، لا كمجرد ناقل أو ناسخ كما اعتاد البعض في حقل الدراسات التأريخية، إنما لأنْحُوَ منحًى باحث يتقصَّى الوقائع والأحداث ويتحرَّى ما جاء في سياق المصادر وابتغاء وجه الدقة في التوصل إلى المنابع الأصيلة للأحداث، لذا بتّ أمام أمرين: إما النقل الآلي لكل مصدر أو رواية، والوقوف منها موقف المتفرج، أو الوقوف موقف التدقيق والتمحيص وصولاً إلى اليقين، وكان رائدي في هذا المسار مناقشة الآراء والأخبار والروايات التي وردت في سياق البحث، ولهذا لم تكن مهمتي كباحث سهلة وميسرة في الطريق الذي سلكته.

أما الأسباب التي حفزتني لاختيار هذا الموضوع والسير به إلى نهاية المطاف، فهي دراسة التَّجسس وصاحب الخبر في العصر العباسي، لأن أكثر الدراسات التي قام بها بعض الباحثين تركزت على البريد في الإسلام بشكل عام دون الربط بينه وبين صاحب الخبر والتَّجسس، فكان من المهم توضيح الوظيفة التي يقوم بها صاحب البريد والخبر خصوصاً في العصر العباسي، بغية كشف نفسيته وفوائده الجمة.

كان البريد معروفاً قبل الإسلام وفي عهد الرسول ﷺ، وأول من استحدثه كنظام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. ولما كان العصر العباسي هو أكثر العصور العربية الإسلامية ازدهاراً وحضارة، نظراً لما اتّسم به من طرائق وتنظيم ودقة تدوين وسعة تأليف وعمق رؤية وصلة اتصال بالشعوب الأخرى.

**ففي العصر العباسي**، اهتمَّ الخلفاء العباسيون اهتماماً كبيراً بنظام البريد، وأفردوا له ديواناً خاصًّا به في حاضرة الخلافة، ووظفوه في شتَّى مناحي الحياة الخاصة والعامَّة.

أما صاحب البريد، فيأتي بالمرتبة الوظيفية الثانية بعد الخليفة، فهو يتولى استلام الأخبار من أصحاب الأخبار في الأقاليم وتجميعها بعد فرزها، ثم تقديمها للخليفة، ولا يستطيع أحد التدخل في شؤونه أو الاطلاع على رسائله.

وكان صاحب الخبر مختصًّا بجمع الأخبار كافَّةً في مركز الخلافة ويقدمها للخليفة مباشرة.

والعيون هم الأشخاص الذين يعيّنهم الخليفة أو صاحبُ الخبر أو البريد، فالعيون عناصر عسكرية تؤدي خدمات لا غنى للقيادة عنها.

إن هذا البحث يوضح بجلاء، عظمة أمتنا في سالف عصورها، ومبلغ ما وصلت إليه من تنظيم واهتمام بالبريد وأصحاب الأخبار، ورغبة في إظهار قوتها، وحجمها، وشدة بأسها، وجلال دورها، في حماية الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

من هنا لا بد من الاعتراف بأنني واجهت صعوبات كثيرة، منها تشتت النصوص التأريخية في العديد من المصادر والمراجع، فكنت التقط الرواية التأريخية الخاصّة بموضوعي من بطون الكتب بعد جهد شاق.

علماً بأن ظروف سكني الخاصة دفعتني إلى البحث عن تلك المصادر بشق الأنفس، لأني أتنقل بين محافظات أربيل والموصل وبغداد، وقد أخذ مني كل ذلك الكثير من الجهد والوقت.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في إنجاز هذا البحث، ولو بعض التوفيق من أجل أن تكتسب هذه الدراسة أهمية بين الدراسات التأريخية التي أخذت تحتل مكانتها اللائقة في المكتبة العربية الإسلامية، ولست ممن يدعي الكمال لكلّ جوانب البحث، ولي في ذلك عذر، وحسبي أن أردم الثغرات التي تكشف مساره مستقبلاً إن شاء الله، **وشفيعي في ذلك قول العماد الأصفهاني**: «إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلّا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

**شمل الموضوع دراسة أربعة فصول**، بحث في **الفصل الأول**: صاحب البريد تعريفه لغة واصطلاحاً، فضلاً عن معالمه وتطوره التأريخي، وسماته وواجباته. ثم يتطرّق البحث إلى أنواع البريد البري والبحري والجوي.

أما **الفصل الثاني** فقد بحثت فيه استخدامات البريد في المجالات الخاصة بالخليفة والخلافة معاً. فضلاً عن توظيف البريد في المجالات العسكرية التي تتحكم بسير المعارك ورسم نتائجها.

وأما **الفصل الثالث**، فقد عرضت بتعريف صاحب الخبر وواجهاته وأنواعه. ثم تأتي بعده أقسام صاحب الخبر، ابتداء من الوزير والوالي وصاحب الشرطة. ثم يتطرق البحث إلى دراسة أنواع أصحاب الأخبار ومهامهم بدءاً بالوزراء والقضاة والعسكر والفقهاء والشعراء، ثم رفع التقارير عنهم إلى الخليفة.

وأخيراً قدم **الفصل الرابع** دراسة موضوع العيون والتَّجسس على

العامَّة، ثم دراسة وسائل أخرى، كالدسّ والتنكر والمراصد والمسالح، واستنطاق الوفود والتجار القادمين من الأقاليم بشأن ما يجري في أرجاء الخلافة الإسلامية. وكذلك تكليف الغلمان والجواري والنساء في سلك المراقبة والترصد لتصيُّد الأخبار التي تهمُّ أمن الخلافة العباسية وسلامتها من المخاطر.

# تحليل المصادر

أجد من الواجب لإكمال هذه الدراسة أن أعرض بالنقد والتحليل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت، والتي قدمت مادة جيدة لاستكمال هذه الدراسة تاركةً ذكر أسماء المصادر والمراجع الأخرى ومؤلفيها في قائمة المصادر في آخر البحث.

يعد المؤرّخ أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور (ت: ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، وكتابه (تأريخ بغداد) أحد المصادر الأساسية، إذ أعانني هذا الكتاب على التعريف بصاحب البريد والخبر ودورهما في مراقبة ومتابعة أخبار الوزراء والأمراء وأصحاب الجسور والنساء، إلّا أنه من ناحية أخرى اهتم بنشر أصحاب الأخبار على أرباع بغداد لمتابعة العامَّة وإيصالها إلى الخليفة بغية اتخاذ ما يلزم بشأنهم.

وانتفعت من أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف باليعقوبي (ت: ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) في كتابه (تأريخ اليعقوبي) الذي احتوى معلومات خاصة عن العلويين ومتابعتهم ومطاردتهم من قبل الخلفاء العباسيين لا سيما محمد وأخيه إبراهيم، ومن سار سيرتهم كأحمد بن عيسى وأحمد بن يحيى بن زيد.

ويقف كتاب (تأريخ الرسل والملوك) للطبري (ت: ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)،

بلا جدال في مقدمة المصادر التأريخية التي اعتمدناها، فإن رواياته اتسمت بالدقة أحياناً، ويتحدث عن صاحب البريد والخبر وعلاقتهما بالخليفة ورفع تقاريو إخبارية عن الوزراء والولاة والمراصد والخانات إلى حاضرة الخلافة العباسية في بغداد، بغية الاطلاع عليها، هذا فضلاً عن متابعته لأسعار المواد والسلع يوميًا وإرسالها إلى العاصمة.

وهو يتناول أخبار المعارضين للسلطة والزنادقة والبرامكة، ثم يستمر في الإشارة إلى دور العيون والتَّجسس على مناوئي الدولة، واستخدام طريقة التنكر في استقصاء أخبار الرعية. إن ما قدمه الطبري، كان المادة الأولى والمصدر الأفضل لتتبع أحداث فترة هذه الدراسة.

أما المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت: ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) فكان ظهيراً لإظهار البحث بالصورة التي ظهر بها، لتطرقه إلى معلومات تتمثل في إيراد روايات عديدة عن متابعة صاحبي البريد والخبر أخبار كبار موظفي الدولة ابتداءً بأصغر مسؤول فيها. هذا فضلاً عن ذكر حركات المعارضة للسلطة والزنادقة.

ومن المؤرخين وكتبهم المنتفع بها في إعداد البحث، جاء كتاب الجهشياري، وهو أبو عبيد الله بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ/ ٩٢٣م) وإذ أغنى كتابه (الوزراء والكتاب) الرسالة بالعديد من الروايات التي تحدثت عن دور أصحاب الأخبار من خلال مراقبة الخاصة بتكليف من الخليفة شمل أبناء الخليفة أيضاً، وليس لأحد من الولاة والعمال على صاحب البريد حكم ولا سلطة وله ديوان خاص في حاضرة الدولة. ثم يتطرّق المؤرخ إلى أخبار صاحب الشرطة والرقاع التي توزع في أرباع بغداد، وإيصالها إلى صاحب الخبر للاطلاع عليها قبل رفعها إلى الخليفة، فضلاً عن استخدام البغال والإبل في البريد. وحين ينتقل إلى الرشيد، فإنه يولي اهتماماً خاصًا بعقوبة

البرامكة وأسبابها، فضلاً عن استنطاق الوفود والتجار القادمين إلى حاضرة الخلافة، بغية معرفة أخبار الراعي والرعية.

أما أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الكاتب (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) فإن كتابه (الأغاني) هو من أشهر الكتب التي عالجت نواحي شتَّى منها أخبار المعارضة العلوية والزنادقة والشعراء وأصحاب الجسر والعسكر، من خلال التقارير التي يرفعها أصحاب البريد والخبر والعيون عن تحركاتهم ونشاطاتهم المعادية للخلافة العباسية.

وانتفعت بكتابه الآخر وهو (مقاتل الطالبيين) الذي احتوى معلومات كثيرة عن العلويين، وموقف الخلفاء العباسيين منهم، وإيراده الأحداث التي ألمّت بالعلويين بشيء من التفصيل.

واستفدت من ابن القاسم عبد الله بن الخراساني الملقّب بابن خرداذبة (ت: ٢٨٠هـ/ ٨٩٧م) فقد ركز على صفات صاحب البريد وواجباته ثم تعيينه من قبل الخلفاء.

ويعقوب بن إبراهيم الملقب أبا يوسف (ت: ١٩٢هـ/ ٨٠٧م) وكتابه (الخراج) تحدث عن سمات صاحب البريد، والشكاوى التي ترفع في بعض الأحيان ضده، هذا فضلاً عن متابعة أخبار الزراعة والزرّاع ومرتبات الجند، التي كان يرفعها بشكل تقارير دورية إلى مقام الخليفة بغية الاطلاع عليها.

وما زالت حلقات سلسلة المؤرخين تتتابع وينضمّ إليها القاضي التَّنوخي أبو علي المحسن بن علي بن محمد (ت: ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، إذ يؤكد في كتابه (الفرج بعد الشدة) حيث كان الخلفاء يكلفون أصحاب البريد والأخبار بمراقبة الوزراء ومن على شاكلتهم من كبار موظفي الدولة برفع تقارير إخبارية عن نواياهم، ويشمل دورهم أيضاً متابعة الرقاع التي توزع في أرباع بغداد من قبل المعارضة، جاهداً في جمعها، ومن ثم إيصالها إلى مقام الخليفة.

وفي كتابه الآخر (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، يكاد يدرج نفس المعلومات المتوافرة في كتب المؤرخين.

فضلاً عمّا سبق من المؤرخين ومؤلفاتهم، استفدت من مسكويه أبي علي أحمد بن محمد مسكويه الخازن (ت: ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) عبر كتابه (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) فقد ركز على قضايا معينة ذات صلة بالمعارضة كالقرامطة، وتحدث عن البريد الجوي لا سيما الحمام الزاجل في نقله الرسائل وربطها بأجنحته إلى الأماكن المعدّة لذلك، أضف إلى ذلك أنه كان يقوم بمتابعة أخبار الوزراء والقضاة وأصحاب العسكر من خلال التَّجسس عليهم.

أما قدامة بن جعفر وهو أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت: ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) وكتابه (الخراج وصنعة الكتابة)، فقد اهتم بسمات صاحب البريد ومعالمه، ومعرفة أحوال الخراج والضياع من خلال صاحب الخبر.

وهناك مؤلف مجهول، غير أن مجهوليته لم تمنع من الانتفاع بكتابه (العيون والحدائق في أخبار الحقائق) إذ أورد فيه كثيراً من أخبار أصحاب البريد والخبر التي تكررت في المؤلفات السابقة، فضلاً عن متابعة شؤون المسالح والمراصد.

وتستمر حلقة أخرى في سلسلة المؤرخين الذين اعتمد البحث عليهم، تتمثل بابن الجوزي وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وكتابه (المنتظم) الذي يمتاز بانفراده بمعلومات وافية عن جوانب لم يشبعها غيره من المؤرخين لا سيما الروايات التي تتحدث عن الطير والظواهر الطبيعية، وإبراز دور السعاة في إيصال الأخبار من الأقاليم إلى مركز الخلافة في فترة البويهيين.

وهناك مؤرخ آخر كان ظهيراً للبحث بالصورة التي ظهر بها، وهو عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، وكتابه (الكامل في التأريخ)،

فالكتاب يكاد يدرج المعلومات نفسها المتوافرة في كتب المؤرخين، هذا فضلاً عن متابعة أخبار الرعية والعسكر من خلال وضع العيون والثقات والجواسيس في الأمصار وحاضرة الخلافة العباسية، عن طريق إيصال البريد أخبار هؤلاء وما يدور هناك من الأعمال والأمور التي تمسّ أمن الخلافة.

أما القلقشندي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، فإن أهمية رواياته أفادتني في حقل البريد وأنواعه، ولم تقتصر أهمية هذا الكتاب على هذه الناحية بل زودنا بمعلومات قيّمة عن الأبراج والبرّاجين.

وتجنباً للإطالة وعدم اتساع المقام لذكر أسماء المؤرخين والباحثين ومصادرهم، لكثرتها آثرت الاستغناء عن الإسهاب والإفاضة، وقصرت الأمر على الإشارة إليهم بصورة مقتضبة مكتفيةً بذكر أسمائهم ومؤلفاتهم التي استقى البحث المعلومات المتعلقة به بقدر أو بآخر: الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) وكتابه (تأريخ بغداد)، وابن خلكان (ت: ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م) وكتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، وابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م) وكتابه (تأريخ ابن خلدون)، وابن أعثم الكوفي (ت: ٣١٤ هـ/ ٩٢٧م) وكتابه (الفتوح)، وابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م) وكتاباه (الإمامة والسياسة) و(عيون الأخبار)، والجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨م) وكتاباه (الحيوان) و(التاج في أخلاق الملوك) وياقوت الحموي (ت: ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) وكتاباه (معجم البلدان) و(معجم الأدباء)، وابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م) وكتابه (البداية والنهاية في التأريخ)، والحنبلي (ت: ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨م) وكتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، وعبد الرحمن بن سنبط قنيتو الإربلي (ت: ٧١٧هـ/ ١٣١٧م) وكتابه (خلاصة الذهب المسبوك).

ولقد بذلت ما في وسعي من جهد للإفادة من المعاجم والقواميس،

لتوضيح بعض المفردات التي تستوجب الشرح وإزالة الغموض لمعالم البريد، أو اسم مهنة مندرسة أو وسيلة مستعملة في المراقبة والترصد.

أما بخصوص المراجع الحديثة، فقد أمدتني بعضها بمعلومات كثيرة وساعدتني في تعزيز ما ورد في هذه الرسالة التي تفاوتت في أهميتها، ومن هذه المراجع، محمد حسين الأعرجي (جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية)، وكتاب نعمان بن ثابت (الجندية في الإسلام) ونظير سعداوي وكتابه (نظام البريد في الدولة الإسلامية)، وأبو زيد شلبي وكتابه (تأريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي)، وعلي حسين المسري وكتابه (تجارة العراق في العصر العباسي).

ومما لا مناص منه والالتفات إليه وعدم إغفال دوره، هو الرجوع إلى بعض المراجع المعربة التي لعبت هي الأخرى دورها الملحوظ في إخراج هذه الرسالة، بالشكل الذي نراه اليوم. فضلاً عن الاعتماد على بعض المراجع الأجنبية، لا سيما الإنكليزية التي رأيت من الصواب الانتفاع بها طمعاً في إغناء الرسالة.

كما لم أهمل المقالات المنشورة في بعض المجلات العلمية ومادتها عموماً تكرار لما أوردته المصادر والمراجع التي سبقت الإشارة إليها. وقد تمّت الاستعانة بها لتوضيح بعض الجوانب المماثلة في البحث، ومن الله التوفيق.

# قائمة
# بالمسافات المستعملة آنذاك[*]

١- الفرسخ = ٣ أميال.

٢- الميل = ٤ آلاف ذراع.

٣- الذراع = ٣ أشبار.

٤- البريد = ٤ فراسخ.

٥- المرحلة = ٦ فراسخ وثلثا فرسخ.

(*) انظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص٢٢. شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٣. ياقوت، البلدان، جا، ص٢٥-٣٩.

# دليل بالرموز المستخدمة في الكتاب

١- ت : توفي.

٢- ج : الجزء.

٣- مج : المجلد.

٤- ق : القسم.

٥- ص : الصفحة.

٦- ط : الطبعة.

٧- هـ : الهجري.

٨- م : الميلادي.

٩- د.ت : بدون تاريخ.

١٠- د.م : بدون مكان.

١١- م.ن : المصدر نفسه.

١٢- Ibid : المرجع نفسه.

١٣- .Op. cit : المرجع السابق نفسه.

# الفصل الأول

## البريد أنواعه وواجباته

أولاً : معنى البريد وتطوّره التأريخي

أ - البريد لغةً واصطلاحاً

ب - معالم البريد

جـ - التطور التأريخي للبريد

ثانياً : صاحب البريد سماته وواجباته

أ - سماته الأساسية

ب - واجباته

ثالثاً : أنواع البريد

أ - البريد البرّي

ب - البريد الجوّي (الحمام الزاجل)

جـ - البريد البحري وإشعال النار




# الفصل الأول

# البريد أنواعه وواجباته

## أولاً: معنى البريد وتطوره التأريخي:

### أ- البريد لغةً واصطلاحاً:

تعني كلمة البريد لغةً: مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، واحتج بذلك الجوهري بالبيت التالي[(١)]:

فدتك غرابَ البوم أمّي وخالتي    وناقتيَ النَّاجي إليكَ بريدُها!

يريد بذلك سيرها في البريد.

وقد أجمعت المصادر على أن المسافة بين محطة بريد وأخرى أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال أي اثني عشر ميلاً كما مرَّ[(٢)].

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، (الكويت: ١٩٨٣م) ص٢٧. ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: ١٩٥٦م) ج٣، ص٨٢. القلقشندي، صبحي الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: ١٩٦٣م) ج١٤، ص٤٤١.

(٢) ابن طباطبا، الفخري، ص٨٨. أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي (القاهرة: ١٩٦٤م) ص١٣٨. أحمد شلبي، موسوعة التأريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة: ١٩٧٨م) ج١، ص٤١٩. بطرس البستاني، محيط المحيط، (بيروت: ١٩٧٧م) ص٤.

واختلف المؤرخون في أصل كلمة البريد، فقال بعضهم: إنها من أصل عربي من الفعل (برد) إذا ثبت، لأنه يأتي بما تستقر عليه من الأخبار[١]. وذهب بعضهم إلى أنها فارسية معربة، وأصلها بالفارسية (برده ده م)، وبمعناها مقصوص الذنب[٢]. وذلك لأن ملوك الفرس كان من عادتهم أنهم إذا استعملوا بغلاً في البريد قصّوا ذنبه[٣]، للدلالة على كونه من بغال البريد، فيتعرّف الناس على هويته وماهية عمله[٤]. وأنشد الجوهري لامرئ القيس:

**على كلِّ مقصوصِ الذُّنابَى معاود بريد السُّرَى بالليل من خيل بربرا[٥]**

ويبدو أن العرب اهتموا بالبريد منذ فترة مبكرة والدليل على ذلك ما أشار إليه امرؤ القيس في البيت أعلاه.

ويرى آخرون أن الكلمة مقتبسة من اللاتينية ولفظها Verdus، ومعناها خيل البريد أو حصان البريد أو ناقل البريد أي ساعيه، ثم تحور معناها بعد تطور استعمالها، فأطلقت الكلمة على النظام البريدي بعد أن كانت تطلق على البريد ذاته على ما بينهما من تمايز للمتفحصين[٦].

---

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٢.

(٢) الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، (بيروت: ١٩٦١م) ص٣٨. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة، ١٩٥٧م) ج٢، ص٤١٠.

(٣) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٢. آدم متز، المرجع السابق، ج٢ ص٤١٠. نعمان ثابت، الجندية في الدولة العباسية (بغداد: ١٩٨٧م) ص٤٠. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية (بغداد: ١٩٨٤م) ص٣٧.

(٤) القلقشندي، المصدر السابق، ج١٤، ص٤١٢.

Laposte Oux dans L'empire des, Chevaux Savaget Leipzig, 1964, Mamelouks, Paris, 1941, p.100.

عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٣٩.

(٥) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٢. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧.

(٦) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر (القاهرة: ١٩٦٨م) ص ص =

ويشير ابن طباطبا إلى نظام البريد، ويوضح أن العرب كانت تجعل خيل مضمرات على أهبَّة الاستعداد في أماكن متعددة، بقصد نقل الأخبار المستعجلة إلى غاياتها بالسرعة المستطاعة حال وصولها، وكثيراً ما يستعان بأفراس أخرى إذا أنهك الفرس التعب من جرّاء السير السريع، وهكذا كانت تستمر حالة التبديل والاستبدال كلما شعرت وسائط النقل هذه بالإنهاك والتَّعب، إلى أن تبلغ الغاية وراءها في نقل العاجل من الأخبار إلى المعنين بها[(١)]، وكان القائمون على شؤون البريد يضعون الإرساليات البريدية المتمثلة في الأموال والأخبار الخاصة بالمستجدات من الأحوال في أماكن أمينة حفاظاً على سلامتها وكتم سرها[(٢)].

إن أصل كلمة البريد عربي بناءً على الإشارات التي وردت في مصادر التأريخ والأدب العربي. وعلى سبيل المثال نورد رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي الضالع في أسرار اللُّغة والعليم بدقائق أسرارها والخبير بكناياتها. إذ يقول: إنها مشتقة من برد بمعنى ثبت وأبردته: أرسلته. وقولهم اليوم بارد سمومه أي ثابت[(٣)].

أما تنظيم البريد فقد أفرد له المسلمون ديواناً خاصًّا في الحاضرة يسمى ديوان البريد، حيث ترد إليه الكتب والرسائل من مختلف الأمصار

---

= ٩٢١، ٩٣٩. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (الإسكندرية: ١٩٨٢م) ص٢١١. هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، (بيروت: ١٩٦٤م)، ص٦٥. هارتمان، دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة: ١٩٦٩م) مج ٧، ص١٧٩. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧.

(١) ابن طباطبا، الفخري، ص٨٨.

(٢) غودا فرا، النظم الإسلامية، ترجمة د. فيصل السامر، د. صالح الشماع، (بيروت: ١٩٦١م)، ص١٩.

Nikita Elipessed: Lorient Musulman and Moyen Age, 1977, p.150.

(٣) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، صححه مصطفى السَّقا، (القاهرة: ١٩٥٠م) جـ١، ص٤٩. القلقشندي، صبح، جـ١٤، ص٤١٢.

والنواحي، ثم تُعرض بعد فرزها على الخليفة للبت فيها وإصدار التوجيهات بصدد ما ينبغي فعله إزاءها[١].

وكان لصاحب البريد أيضاً مقرّه في قصبات الإقليم[٢]، وكان لكل مدينة صاحب خبر وبريد ينهون أخبارهم إلى صاحب البريد بناحيتهم[٣].

ولم تقتصر وظيفة البريد على نقل الأخبار والمستجدات من الأحوال الرسمية، بل شملت القيام بأعمال الشرطة السرِّية، إذ عُرف رجاله بالعيون كما عرف رئيسهم بصاحب الخبر[٤]. هذا فضلاً عن القيام بنقل الأخبار المتصلة بشؤون العمال والفرق الصغيرة المعادية لكيان الدولة عن الجند[٥]، وكذلك ممارسة النشاطات الاستخبارية عند اقتضاء الضرورة[٦]. كما كان يشرف على نقل أمتعة البلاط وعماله بغيةالتعرّف على محتوياتها[٧] والتثبت من خلوها مما يمس أمن الدولة والأمصار[٨].

---

(١) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق، د. محمد حسين الزبيدي (بغداد؛ ١٩٦٠م) ص١٨٤. البحتري، ديوان البحتري، تحقيق، حسن كامل الصيرفي (القاهرة: ١٩٦٣م) جـ١، ص٥٢١.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة، أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر (القاهرة: ١٩٦٥م) ص٤٤.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض (بيروت: د.ت) ص٣٦١.

(٤) العباسي، آثار الأول في تاريخ الدول، (القاهرة: ١٢٩٥هـ) ص٨٢. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (بيروت: ١٨٥٣م) جـ٤، ص٨٨.

(٥) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٧٩-١٨٠.

(٦) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٧٩-١٨٠. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧.

Boissannads, Le Lravildan, L'Europe Chrétienne au Moyen Age, Paris, 1921, p.66.

(٧) عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح (القاهرة: ١٩٦٥م) ص١٧٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧. هارتمان، السابق، مج ٧، ص١٧٩.

(٨) القلقشندي، صبح، جـ١٤، ص٣٦٦، ٣٩٨. المقريزي، المواعظ، جـ١، ص٣٦٦- =

لقد اعتمد العاملون في مضمار البريد لنقل مواد البريد المادية والمعنوية على وسائل متعددة كالدَّواب وبخاصة الخيل والجمال والبغال وفقاً لمقتضيات الأحوال وطبيعة الأرض، كما استعان البريد بالحمام الزاجل في حالة تعذُّر إرسال الأخبار، لوجود طوارئ وموانع تحول دون تحقيق البغية برًّا وهذا ما يشبه البريد الجوي في عصرنا الحاضر، وقد عرف هذا النوع من الحمام بجناح المسلمين(١)، في نقل الرسائل خاصة عند البويهيين والفاطميين والقرامطة(٢).

لقد حقق البريد تطوراً مطَّرداً رويداً رويداً حتى وصل إلى مستوى جيد في العصر الأموي واستقر بناءه بعد أن وضع الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الأسس الخاصة لنظام البريد وجعله تابعاً لنظام التراسل(٣). ثم إن الخليفة عبد الملك بن مروان مضى به نحو التطور المتدرج بعد أن أحكم تلك الأسس ووضع له قواعد جديدة(٤)، ويشير البعض إلى أن ذلك النظام منقول عن البيزنطيين الذين كانوا يطلقون عليه اسم الطريق العام(٥).

---

= ٣٦٧. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة: ١٣١٢هـ)، ص١٨٤. حسين علي الداقوقي، نظام البريد في الحضارة العربية، مجلة المورد العدد (١) المجلد (١٨)، ١٩٨٩م، ص٨٧. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام (القاهرة: ١٩٦٧م) ج٢، ص١٦٩.

(١) الأصفهاني، الفتح، ص١٧٧. هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٧٩-١٨٠. كامل مصطفى، رجال المخابرات في التراث العربي، آفاق عربية (بغداد: ١٩٨٢م) العدد (٧)، ص٦٧.

(٢) محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (الكويت: ١٩٩٠م) ص٧١.

(٣) السيوطي، الوسائل إلى مسامرة الأوائل، تحقيق الدكتور أسعد طلس (بغداد ١٩٥٠م)، ص٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص ص ٣٦٨، ٣٩٨. المقريزي، الخطط، ج١٦، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٥) حسين علي الداقوقي، نظام، ص٨٨. مولوي حسين، الإدارة العربية، ترجمة د. =

وقديماً لم يكن البريد مؤسسة عامَّة تقدِّم خدماتها إلى المواطنين جميعاً، وإنما كانت حكراً على الدولة وكأنها سلاح من أسلحتها المختلفة التي تستعين بها على البقاء والنمو والدفاع والهجوم وما إلى ذلك من وسائل المحافظة على بقاء الدولة وديمومة وجودها[١].

أما جهاز البريد أيام العباسيين استقر بناءه وأفرد له ديوان خاص من بين الدواوين التي كانت تخضع للإدارة المركزية في بغداد، وتتجسد طبيعة عمله في نقل الأخبار بين الولايات والمركز والأمور المتعلقة بالموظفين في تلك الأمصار والولايات ومتابعة ما يجري فيها[٢]، وكان على رأس هذا الجهاز مسؤول يسمى (صاحب البريد) وظيفته تَلَقِّي الأخبار وتلخيصها وإيداع تلك التلخيصات في مخزن حفظ الوثائق المعروف بالأرشيف في يومنا هذا[٣].

إن أهم غرض يهدف إليه عمل البريد هو إيصال أوامر الخلفاء إلى ولاتهم في الأمصار وبالعكس، ثم توسعت مهمات البريد فجعلوا صاحبه عيناً للخلفاء، فهو فضلاً عن نقله الأخبار كان بمثابة رقيب على الولاة والعمال يترصد أخطاءهم ويحصي حركاتهم ويسجّل نشاطاتهم ملخصاً كل ما وقع تحت أنظاره ليرفع به تقريراً إلى الخليفة يتفحص ما ورد فيه، ويتخذ الإجراء المناسب بصدده، وفضلاً عن ما سبق كان صاحب البريد يتجسس على الأعداء للتعرف على ما يبيتونه من النوايا السيئة التي تستهدف النيل من الخلافة، فيتأهب عندها الخليفة لدرء الأخطار، ويُستنتج من ذلك، أن أحد

- إبراهيم العدوي (القاهرة: د.ت) ص٣٣٢. حسين إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠.

(١) حسين إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٣٨. عبد المنعم محمد حسين، دولة السلاجقة (القاهرة: ١٩٧٥م)، ص١٤٨.

Von Kremer: Culturges Chichte des Orients Unterden Chalifen, 2 Bande Wienna, 1875-1877, p.333.

(٢) محمود إسماعيل، تاريخ، ص٧٢.

(٣) حسين علي، البريد، ص٨٨. حسن إبراهيم، السابق، ج٢، ص٢٧٠.

أغراض البريد في تلك الآونة كان شبيهاً بدائرة المخابرات العامَّة في عصرنا الحاضر[١].

ومما يستحق التنبيه إليه والاستقرار عليه، هو أن صاحب البريد، لم يكن بوسعه الانفراد والنهوض بكل تلك المهام البريدية، بل كان يؤازره موظفون آخرون أنيطت بهم إدارة بعض شؤون البريد بحسب صلاحيات كل فرد لما يسند إليه، وهم يعملون تحت إشراف صاحب البريد، مستجيبين لتوجيهاته عاملين بإرشاداته ساعين إلى سد السلطة المركزية[٢] بالمعلومات عن العمال والولاة في مختلف الولايات والنشاطات المعادية إن وجدت في بقعة من أرجاء الخلافة[٣]، وبذلك يَعدّون بمثابة عيون على هؤلاء وأولئك الأمر الذي كان يحفِّز العمال والولاة على توخي الدقة في التحرك والتصرف طلباً للنجاة من الوقوع في الشرك المنصوب حولهم من قبل الخليفة[٤].

ولا يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك فقط، بل تعداه إلى تلبية رغبة الخليفة في شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره إلى جهة معينة. مما يتطلب منه معرفة الطرق والسكك بحيث يجب أن يكون لديه إلمام ومعرفة تامة به[٥].

كان صاحب البريد أشد تخوفاً من الخليفة أو الأمير، ولذلك يجب

---

(١) حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠. أبو زيد شلبي، ص١٣٨. عبد المنعم محمد حسين، تاريخ، ص١٤٨.

Von Kremer: Ibid, p.333.

(٢) فيليب حتّي وآخرون، تاريخ العرب، (بيروت: ١٩٧٤م)، ص٣٩٢.

(٣) كامل مصطفى، رجل المخابرات، العدد (٧)، ص٦٢. مولود حسيني، الإدارة، ص٣٣٢.

(٤) عريب، صلة تاريخ الطبري، دي غويه (ليدن، بريل: ١٨٩٧م) ص٦٢. مولود حسيني، السابق، ص٣٣٢. أحمد أمين، ظهر الإسلام (القاهرة: ١٩٦٢م) ج٢، ص٢٥٥.

(٥) قدامة، الخراج، ص١٨٥.

عليه أن يكتب عن كل ما يمس أمن الدولة أو الإمارة بسوء أو يعرِّضها للخطر، وعليه أن يعي مسؤولياته بأمانة وإخلاص ولا يكتم عن السلطة ما تحتاجه من الأخبار لئلا يتعرض صاحب البريد لخطر العقوبة(١).

### ب- معالم البريد:

أما معالم البريد فتتمثل في كون صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية متولياً أمر البريد ومنفذاً أموره في الإيراد والإصدار، وكان للبريد ألواح مصوغة من الفضة وأمر التعرف بها منوط بكاتب السر بالأبواب السلطانية، وتعتبر تلك الألواح شارة البريد الخاصة في العصر العباسي(٢)، وهي عبارة عن قطعة من الفضة بقدر كف اليد تعلّق على أكتاف العمال، مكتوب على إحدى صفحتيها البسملة واسم الخليفة، وعلى الأخرى آية من التنزيل الحكيم وهي ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٣).

وكان إذعان أرباب المراكز لصاحب البريد يترتب على مشاهدة هذه الشارة، فهي بمثابة الهوية التي تثبت الانتساب إلى ذلك الديوان فتسلم إليه اللوازم البريدية ومتعلقاتها فينطلق بها إلى حيث ينبغي الانطلاق إليه والعودة منه(٤)، والشارة ما زالت معلقة على كتفه لإثبات هويته وتحديد وظيفته وبعد

---

(١) ابن طيفور، تاريخ بغداد (بغداد: ١٩٤٩م) ص٦٤. مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم (ليدن: ١٨٧١م) جـ٦، ص٤٥٣.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج، ص١٨٤. البحتري، ديوان، جـ١، ص٥٢١. محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي، ص١٧٣. محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق (القاهرة: ١٩٦٥م) ص١٠٢.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية: ٤٥. القلقشندي، صبح، جـ١٤، ص٤١٠. جمال الدين، الموسوعة الفلسطينية (دمشق: د.ت) جـ١، ص٣٨٩.

(٤) ابن الأزرق، بدائع السلوك في طبائع الملك، تحقيق، الدكتور سامي النشّار، (بغداد: ١٩٧٧م) جـ٢، ص٥٢. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٣٨، ١٤٠.

الانتهاء من أداء المهمة البريدية يتم تسليم الشارة إلى ديوان الإنشاء[١]. وزيادة في التنبه عليه إبراز هوية العمل البريدي، إذ كانوا يعلقون الجلاجل في أعناق الدواب بقصد إعلام الناس بوصول البريد أو مروره[٢].

ومن معالم البريد الأخرى وجود مراكز ومحطات بريدية تفصل بينها مسافات معينة تحدد بفرسخين أي ستة كيلومترات في الوقت الحاضر، وأحياناً بأربعة فراسخ وهي مزودة بالمأكل والمشرب وبعدد مناسب من الخيول والبغال والإبل المخصصة لخدمة البريد، مع كميات وافية من علف الدواب[٣].

فضلاً عن وجود أبراج بريدية خاصة مهمتها نقل البريد الجوي عن طريق الطيور، ويصح أن يطلق على هذا النوع من النشاط البريدي (البريد الطائر) وكانت تلك الأبراج منفصلة عن بعضها، بمسافة محددة وفيها موظفون مختصون بالنشاطات البريدية ويسمون البرَّاجين نسبة إلى عملهم[٤].

فضلاً عن ما سبق فهناك وظيفة تتمثل في إرشاد صاحب البريد والموظفين والمرتبين إلى السكك وهذا العمل يقوم به أشخاص موظفون يسمون الفراونقين[٥].

---

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٧.

(٢) ابن الداية، المكافأة، (القاهرة: ١٩٤١م)، ص٤٧. نعمان ثابت، الجندية، ص٤٢.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، (القاهرة: ١٩٣٨م) ص ص ٤٢، ١٢٦. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن: ١٩٠٦م) ص٦٦. جهادية القره غولي، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص١٢٤.

(٤) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١١. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك ص١٧٠.

(٥) الفرنق، كلمة معربة عن برونك الفارسية معناها منذر أو دليل. انظر: نعمان ثابت، الجندية، ص٤٥.

لقد بلغ اهتمام العباسيين بالبريد حدًّا كبيراً ويلوح هذا الاهتمام للنظر في دقة التخطيط ورصد الأموال وتوفير الوسائل له ضماناً لسرعة وصول الأخبار من الأمصار إليها، فقد بلغ عدد السكك البريدية في عهدهم نحواً من (٩٣٠) سكة وبلغت نفقات الدواب وأثمانها وأرزاق الموظفين (١٥٩١٠٠) دينار في السنة الواحدة[١].

كما كان البريد مقسَّماً إلى ثمانية خطوط كبرى أي عمومية، وذلك بين العاصمة والولايات التابعة لها (حلب، الشام، الحجاز، اليمن، مصر، العراق، أرمينية، حدود فارس) ومع هذا الاتساع، فقد كانت الأمور سائرة بكل دقة في مواعيد السفر والوصول، وكان لكل خط مشرف (فرنق) يلاحظ سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وهؤلاء المشرفون بمثابة مفتشين يتولون تيسير شؤون البريد[٢]، وهم مسؤولون عن رفع تقارير يضمنونها كل صغيرة وكبيرة حول هذه الخطوط إلى الإدارة العامَّة في بغداد[٣]، ثم يقوم الرئيس العام بتلخيص مضامين تلك التقارير بغية تقديمها إلى الخليفة لينظر في أحوال البريد وعماله ويصدر الأوامر بتعيين الرؤساء، وتحديد رواتبهم، وكانت للبريد لوائح عمومية تحتوي على قوانين البريد وسير العمل وجغرافية الطرق وبيان الأسفار[٤].

ومما أشارت إليه المصادر أنه كان للديوان المركزي في بغداد فروع في أنحاء الدولة، خصصت له المبالغ الطائلة لتهيئة وسائل النقل السريعة كالنوق

---

(١) نعمان ثابت، العسكرية في عهد العباسيين (بغداد: ١٩٨٧م) ص٤٠. حسن إبراهيم، تاريخ، جـ١، ص٨٥. جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلامي، مراجعة حسين مؤنس (القاهرة: ١٩٢٤م) جـ١، ص٢٢.

(٢) فخري الزبيدي، هارون الرشيد، (بغداد: ١٩٨٨م)، ص٦٢.

(٣) نعمان ثابت، الجندية، ص٤٥. حسن إبراهيم، تاريخ، جـ١، ص٤٠.

(٤) نعمان ثابت، العسكرية، ص٢٧٠.

Vonkeremer: Ibid, p.333.

الخفيفة السير والبغال النشيطة والحمام الزاجل مع إصلاح الطرق وبناء المحطات وإقامة الجسور[1].

وكانت مواعيد سفر عمال البريد يعلنها المؤذنون على أبواب المساجد والأسواق والمحلات العامَّة[2]، وكانوا يسجلون وصول البريد في دفاتر تسمى الإسكدار[3].

ويذكر الطبري: «إن طرق العراق كانت مقسمة إلى محطات سكك وفيها بدالات من الدواب والراكبين ويقدر طول ما بين المحطتين بفرسخين أو أربعة فراسخ»[4].

وقد استخدمت الخرائط في البريد، إذ كان صاحب البريد مسؤول عن ديوان (الخرائط)[5] أحياناً، لذلك سمي صاحب البريد والخرائط[6].

كما استخدمت الأختام في البريد، فكانت الرزم البريدية ترتب على أشكال أسطوانية وتختم بالشمع وترزم. وإن شمع العمل المستخدم في إسبانيا لختم الرسائل يقابل في الشرق نوع من الشمع الأحمر المماثل لما يستخدم حاليًّا في صناعة الأختام، وكان يستورد عن طريق سيراف، حيث كانت

---

(١) عبد الجبار الجومرد، داهية العرب أبو جعفر المنصور، (بيروت: ١٩٧٦)، ص ص٣٢٢-٣٢٣.

(٢) نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، (القاهرة: ١٩٥٣م) ص ص٦٩، ٧٠، ٨١.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، (القاهرة: ١٣٤٢هـ)، ص٦٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (القاهرة: ١٩٦٦م)، جـ٨، ص٨١.

(٥) الخرائط: عبارة عن وعاء من أدم أو ديباج أو خزف أو ليف هندي أو خيش أو نحوها، يشرج على ما فيه ويوضع في داخل هذه الخرائط كتب الولاة والعمال أو الدراهم التي ترد إلى العاصمة أو غيرها. انظر: الصابي، رسوم دار الخلافة (بغداد: ١٩٦٤م)، ص١٨.

(٦) الصابي، تحفة الأمراء، (القاهرة: ١٩٥٨م)، ص١٥٩.

لقد تأصل الاهتمام بالبريد في نفوس الخلفاء العباسيين، فأفردوا له رعاية خاصة بغية اجتياز الحوادث المتراصة باطمئنان وسلام، ولم يقتصر عمل البريد على الأغراض المدنية ضمن إطار أرجاء الخلافة، بل انسحبت نشاطاته على مضمار الحروب[١] والشاهد على ذلك ما فعله الخليفة المهدي، عندما قام ابنه هارون الرشيد بغزو الروم، إذ أنشأ خطًّا بريديًّا خاصًّا بينه وبين معسكر أبيه، يوافيه بكل ما يستجد من الأحداث والأنباء المتصلة بها، ليكون على بينة من الأمر عن كثب، وحين قفل نجله راجعاً ألغى ذلك الخط لانتفاء الحاجة إليه[٢].

ومما تقدم يصبح بالإمكان إدراك كون البريد مطلوباً ومهمًّا في الحقلين المدني والعسكري على السواء.

وبعدما تحوّل المهدي إلى قصره المسمى (عيسى آباذ)[٣] سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م)، أمر بإنشاء خط بريد تتجه شعبه إلى مكة والمدينة وإلى اليمن، لاصطياد الأخبار ومعرفة الأحداث ذات الاتصال بالتأثير على الخليفة والخلافة سلباً وإيجاباً[٤]، والعودة بها إلى الحاضرة ليقوم بفرزها صاحب البريد الذي كان بمثابة صمام الأمان لحياة الخليفة ومصير الخلافة عن طريق غربلة هذه الأنباء وتقديم تقارير دقيقة تحمل إلى الخليفة ما ينبغي الاطلاع عليه ومن المعروف تأريخيًّا أن الخليفة المهدي هو أول من أقام الخط البريدي للربط بين العراق والحجاز تيسيراً للاطّلاع السريع على الأمور[٥].

---

= أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤١.

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٤.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٥٢.

(٣) عيسا آباد، محلة كبيرة كانت بشرق بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: د.ت) ج٤، ص١٧٢.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٦٨. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص ص ٦١-٦٢.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٦٨. ابن كثير، البداية والنهاية في التأريخ، (القاهرة: =

وجدير بالذكر الإشارة إلى حادثة تكاد تكون فريدة النمط في نوعها، وهي ركوب الهادي من جرجان إلى بغداد قاطعاً المسافة خلال عشرين يوماً آتياً بالبريد إلى عاصمة الخلافة، وهذا الحدث غير مسبوق إليه إذ لم يمارس على امتداد تأريخ الخلافة، ولا من قبل ولا من بعد وذلك عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م)[١]، ولا غرابة فيما إذا انطلق الفكر محلّلاً هذه الفعلة اليتيمة، إذ قد يكون وراء الأكمة ما ورائها من أمر عجيب يتطلب القيام به على هذا المستوى المرموق كي لا ترعب أصحاب الشأن المخاوف التي قد تكون ضاربةً بأطنابها في أغوار النفوس وترغمهم على خوض معترك الصراع مع أطواد العزم الشامخ إن بقي الحبل على الغارب، وترك السبيل أمامها فيستبد شعار الذعر بالقلوب. ومما يحمل على الاعتقاد المستفيد من التحليل هو أن الخليفة الهادي أراد بفعله، قطع دابر تفاقم حجم المسألة قبل استفحال أمرها. فأقدم على ما أقدم عليه، حرصاً على صيانة الحكم مما يتربص به من عاتيات الأمور في المقبل من الأيام[٢].

ولما آلت مقاليد الخلافة إلى الرشيد، وغدت طوع بنانه ذكره (يحيى ابن خالد البرمكي) بما أقدم عليه أبوه في تطوير الأنظمة البريدية. وتشعب فروعها قائلاً «لو أن أمير المؤمنين أمر بإجراء على ما كان عليه صار صلاحاً لملكه، فاستحسن الرأي فأمر بترتيبه على نهج السالفين ومنهم الأمويون، جاعلاً البغال في المراكز البريدية بصورة تستجيب للضرورات بلا عجز. ولم يكن بمقدور أحد الاقتراب مما ينقله البريد بين أرجاء الخلافة إلا الخليفة وصاحب البريد ابتغاء السرية التامة وحجب الأخبار عن التداول من قبل من

---

= ١٩٣٢م) ج٩، ص٤٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٧٥م) ص٢٧٣.

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٨٩. اليافعي، مرآة الجنان، تحقيق، عبد الله الجبوري، (بيروت: ١٩٨٤م)، ج١، ص٣٧٢.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٨٩.

لا يمت إليه بالصلة[١]. ويذكر أنه ورد على الرشيد كتاب صاحب البريد بخراسان[٢]. وكان يحيى بن خالد البرمكي ماثل بين يديه، جاء فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد والإدمان على الملذات، ونأى بجانبه عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الخليفة دفعه إلى يحيى، وقال له: اقرأ هذا الكتاب ثم وجّه إليه كتاباً رادعاً يحمله على الإقصاء عما هو فيه، وما كان من يحيى إلّا أن مد يده إلى دواة الخليفة الرشيد، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد ما مؤداه «حفظك الله يا بني ومتعني بطول بقائك، لقد انتهى أمر ما أنت عليه إلى أمير المؤمنين من التشاغل بالصيد ومداومة غرف الملذات والركض وراء مصادر الملذات مهملاً النظر في تعريف شؤون الرعية حسب مقتضيات الوظيفة، والواجب يحتِّم عليك الإقلاع عما أنت إليه ونبذ هذه الممارسات التي لا تليق بك فعد إلى ما يزينك وكف يديك عما يشينك وكتب في أسفل الكتاب أبياتاً من الشعر تحثه على الرجوع إلى سبيل الصواب المضفي إلى الرشد تاركاً خلفه المثالب التي تنتقص من قيم الرجال وشيمهم[٣]. والخليفة الرشيد ينظر إلى ما يكتب ولما فرغ يحيى بن خالد، قال له: أبلغت يا أبتي وهذا نداء كان الرشيد يخص به يحيى لعلو مقامه عنده، وما إن ورد الكتاب إلى الفضل حتى اعتكف في المسجد طوال نهاره يقلب النظر فيما بدر ونادماً ما صدر منه، موطداً العزم على عدم الالتفات إلى سابق أيامه لا من قريب ولا من بعيد[٤].

---

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٤. هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٨٠.

(٢) خراسان، بلاد واسعة أول حدودها يلي العراق وآخر حدودها ما يلي طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠. اليافعي، مرآة الجنان، تحقيق، عبد الله الجبوري، (بيروت: ١٩٨٤م)، ج١، ص٤٣٧.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ج٣، ص٣٧٧.

(٤) الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حيدر أباد، (الدكن: ١٩٣١م) مج ١، ج١، ص٣٣١-٣٣٢. أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، (القاهرة: ١٩٢٨م)، ج١، ص١٤٠.

وتشير هذه الحادثة إلى أن المواقف كانت لها أصدائها في النفوس طابعة إياها بمسحة الاستجابة الفورية للأحداث، والدليل على ذلك هو إقدام يحيى السريع على تناول دواة الرشيد، والكتابة على ظهر كتاب صاحب البريد ولو لم يكن الأمر كذلك لنهض يحيى من مقامه وذهب لجلب الدواة والقرطاس من مكان آخر، دون أن يجرأ على ما أقدم عليه في حضرة الخليفة الرشيد، لكن الأمر كان جسيماً إلى الحد الذي أذهل يحيى وحمله على أن يأتي بما أتى به استجابةً لجلال الموقف بناء على الإيحاءات النفسية التي أوحت له بذلك.

ومما لا يرتاب فيه مرتاب، هو أن للبريد دوراً فعالاً لا يمكن التغافل عنه، وهذا عين ما أدركه الخليفة الأمين، لذلك لجأ إلى توظيف دور البريد في خلع أخيه المأمون عن طريق الاطّلاع بما يتصل به من أسرار وأخبار.

ومما يروى أنه أبلغه صاحب البريد قتل ابن ماهان قائد جيشه وما لحقت به من هزيمة مرة ناجمة عن عدم مصداقية الموقف لكون أنصاره موسومين بختم الموت على أيدي الخصم، وهو منهمك باصطياد السمك، قال لصاحب البريد: «ويلك! دعني، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصطدت شيئاً بعد...»[1] ولم أظفر بطائل مما أنا بصدده، وأطلق هذه العبارات والندم يعصر قلبه ويحصر نفسه في أضيق دائرة وتتأجج نيران الندامة في باطنه على خلع أخيه، وطمع الأمراء فيه مع كونه قد فرق عليهم أموالاً طائلة دون جدوى، وقد أسرف في الإنفاق إلى حد أوشكت الخزانة معه على الإفلاس[2].

وهذا يشير إلى أن المال إن كان قادراً على خلق المعجزات في مقامات

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٣٩٥. اليافعي، مرآة الجنان، ج١، ص٤٥٢.

(٢) ابن الساعي، مختصر أخبار الخلفاء، (القاهرة: ١٣٠٩هـ)، ص٣٦. الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق، صلاح الدين المنجد، (الكويت: ١٩٦٠م)، ج١، ص٣١٧.

معينة فإنه أقل شأناً من أن يستحوذ على الإرادة وسلبها، إن لم يكن مشفوعاً ومؤيداً بتطوير الأذهان ونوعية العقول وتغذيتها بما ينسجم مع إسناد دور المال لخلق الموقف المراد، في كل الأحوال والنتيجة الصائبة المترتبة على هذا الرأي ماثلة للعيان يمكن الإحساس بها دون كبير عناء فلو كان الإنفاق قادراً على توطيد الاتصال والوصل في كل حين وآن لبرز دوره في تحلي أنصار بن ماهان بدرجة أعلى من رباطة الجأش والثبات على الموقف وعدم التخلي عن القائد عند الضرورات أمر نابع عن عظيم القيم ونبيل الشيم فأين كان أولئك من ذلك[١].

ولما تولى الخليفة المأمون زمام السلطة، لم يكن أقل اهتماماً بالبريد من سابقيه، وتروي المصادر التأريخية أن أبا سعيد العلاف حين اتصل الخليفة المأمون لشأن من الشؤون وجده بصحبة أخيه المعتصم وهما جالسان على نهر البدندون، واضعين رجليهما في الماء[٢] فلما أبصرتهما على هذا الحال هممت المشاركة معهما ففعلت ما كانا يفعلان بعد تلقي أمر منهما يضفي إلى ذلك وطفقت أتلو عليهم شيئاً مما تيسَّر من التنزيل الحكيم، وما إن فرغت من التلاوة المباركة، حتى بادر قائلاً هل ذقت يا سعيد أعذب من هذا الماء الزلال وأبرد منه قط وأردف متابعاً قوله أتحب أكل رطب أزاذ، وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث، وإذا بخيول البريد مقبلة وعلى ظهورها حقائب مملوءة بالألطاف، ولما رأى الخليفة تلك الخيول سأل من فوره قائلاً: هل هم حاملون رطب أزاذ العراق، فأجاب بنعم، ثم حملوا إليه سلتين وشرعوا يأكلون منهما وينهلون من ذلك المنهل العذب[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٩٥. ابن الساعي، مختصر، ص٣٦. الذهبي، العبر، جـ١، ص٣١٧.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٦٤٥. مؤلف مجهول، كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (ليدن: ١٨٧١م)، جـ٣، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٦٤٥. غرس النعمة الصابي، الهفوات، تحقيق، الدكتور =

ويستنتج مما سبق أن الخليفة كان على اتصال وثيق بالبريد في كل حين وآن بما فيه حله وارتحاله وأثناء إدارته شؤون الرعية، أو الانصراف إلى التمتع بمعالم الحياة الشخصية على السواء. وكان عليه أن يوافيه بكل صغيرة وكبيرة بما فيها جلب الفواكه الشهية إلى الخليفة دون النظر إلى الوقت وحالة الخليفة الذاتية فلولا الاتصال الوثيق المنوه به قبلاً، لما اهتدى صاحب البريد إلى مكان تواجد الخليفة بهذه الدرجة من اليسر[١].

وفي عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م) نال البريد اهتماماً خاصًّا حيث أولاه الخليفة الجديد اهتمامات عديدة، وتتجلى تلك الاهتمامات فيما حصلت عليه الخلافة من نتائج إيجابية في حل معضلة (بابك الخرمي)، سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م، إذ وظف البريد في هذه المسألة خير توظيف. فقد كان الخرمي منهمكاً في قيادة حركة مناوئة للخلافة العباسية، فأقر المعتصم قائده الأفشين بمغادرته وتزويد الخليفة بكل تحركاته أولاً بأول إلى أن وقع في الشرك وألقى عليه القبض ثم قتل، وكان الذي استدرجه وأوقع به أحد الرعاة[٢].

وقد نال الخرمي جزاءً وفاقاً على ما اقترفت يداه ضد سلطة الخلافة، وغدا عبرة لمن لم يعتبر على مر الزمان، ويبدو من دراسة الرواية السابقة، أن ذلك الراعي لم يكن إلا أحد العيون المنبثة في طول البلاد وعرضها من قبل صاحب البريد، وإلا كيف تسنى لمن يمتهن الرعي القيام بتلك المهمة الصعبة التي ألقت القبض على أكبر معارض للدولة[٣].

وفي زمن الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م) أيضاً خطا البريد خطوة هامة على طريق تقصي المعلومات من مصادر متعددة وغاية

---

= صالح الأشتر، (دمشق: ١٩٦٧م)، ص١٨٣-١٨٤. الحنبلي، شذرات، ج٢، ص٤٢.

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٦٤٥. مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٥٢-٥٤. ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٢٨٤.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٥٢-٥٤. ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٢٨٤.

ما ابتغاه البريد جمع الأخبار واستقصاء الأسرار من خلال معلمي الصبيان الذين كانوا يسألون أولاد الجند عما يقوله ويفعله آباؤهم في منازلهم أثناء فترة إجازاتهم، ثم يرفعون التقارير الدقيقة عن كل ما تجمعت لديهم من مكنونات الأسرار إلى الخليفة للاطلاع عليها، وبالتالي استئصال الشر من مكمنه، وسوق مركب السلطة إلى مأمنه، وكان هذا الأمر مناطاً (بشفيع اللؤلؤي) المتقلد ديوان البريد في بغداد آنئذٍ[1].

وعند استحواذ البويهيين على مقاليد الأمور في العراق، التفتوا نحو البريد لإدراكهم دور هذه المؤسسة الخطيرة وتأثيرها على سير السلطة في مختلف جوانبها، فصبوا جل اهتمامهم على استثمار البريد إلى أقصى حد ممكن رغبة منهم في الوقوف على جميع شؤون الدولة[2].

وكانت المراسلات تجري بين الخليفة والأقاليم التابعة له، وعند ورود الرسائل كان الأمير البويهي يلتقط أهمها ويرسل البقية إلى ديوان البريد لتوزيعها على المعنيين بها، وكثيراً ما كانت الرسائل المهمة تقرأ على عضد الدولة، فيردُّ على الحسَّاس منها بنفسه، ويأمر كتَّابه بالرد على التي أقل منها شأناً، وبعد ذلك تختم وتحمل إلى ديوان البريد بعد إجراء التصحيحات إن لزم الأمر ذلك، ثم تصدر إلى الجهة المرادة[3].

وكان الأمير البويهي يراقب وصول البريد في الوقت المحدد له، فإن تأخر حاسَب المقصِّرين، علماً بأن الأخبار الواردة عن طريق البريد من شيراز[4] إلى بغداد، كانت تستغرق سبعة أيام، فضلاً عن الرسائل وكان البريد يحمل الفواكه الطريَّة إلى الأمير البويهي[5].

---

(١) مسكويه، تجارب، جـ١، ص٢٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (بغداد: ١٩٩٠م)، جـ٧، ص١١٥.

(٣) م.ن، جـ٧، ص١١٥.

(٤) شيراز، بلد عظيم مشهور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث، انظر: ياقوت معجم البلدان، جـ٣، ص٣٨٠.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٧، ص١١٥.

## ثانياً: صاحب البريد - سماته وواجباته:

### أ- سماته الأساسية:

كان يشترط في اختيار البريدي أن تتوفر المميزات الضرورية والملحة التي تؤهله لاعتلاء ذلك الموقع الحساس كالكفاءة والأمانة والذكاء والصدق[١] في الفعل والقول والاستجابة السريعة لتلقي التوجيهات والتوصيات والعمل على تنفيذها بلا تردد إضافة إلى التعقل المفضي إلى امتلاك الخبرة والتجربة الثرية والقدرة على الفهم والاستيعاب وسرعة التفاعل مع المستجدات والتمكُّن من تنسيق الكلام جرياً على قواعد اللُّغة ومقتضياتها والتفنن في الصياغة لإخراج العبارة منمقة جذابة تسحر المخاطب وتستميل قلبه إلى ما يملى عليه، فيأخذ بشغاف فؤاده ويستحكم أثره في نفسه. فضلاً عن السلامة الفكرية وصحة المزاج، على أن يتوسم فيه التمكن من البيان الجلي ولين الطبع والبراءة من الطمع[٢] تغلب عليه المنعة بعد اكتسابه المناعة ضد المغريات فضلاً عن عزة النفس والاعتداد بها وعدم الانزلاق في مهاوي الجشع والخداع، مع الاتسام بالقدرة على كتمان السر وستر العورات وكف اللسان عن الكذب والفضول[٣].

والصفة الغالبة على البريدي هي قوة الأجسام والمعرفة بالسبل والفجاج في طول البلاد وعرضها زيادة في التَّحوط من التَّعرض للمساوئ أثناء الانتقال من مصر إلى مصر وإقليم إلى إقليم[٤].

---

(١) أبو يوسف، الخراج، (القاهرة: ١٩٣٣م)، ص١٨٦. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٥٠-٥١.

(٢) القلقشندي، صبح، جـ١، ص١٥١.

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، (القاهرة: ١٩٤٨م)، ص٣٢.

(٤) ابن الأزرق، بدائع، جـ٢، ص٥٢٠. =

ومن مواصفاته أيضاً أن يكون ملمًّا بأسماء المواضع وذكر المنازل ومدركاً المسافات بالفراسخ وغير ذلك مما يتصل بعمله في هذا المضمار بغية الإسراع في إيصال المعلومات البريدية إلى الجهات المرادة والعودة بمثيلاتها إلى مراميها وإذا حدث تأثير أو عطل كان له القدرة على تشخيص الأسباب وإيجاد الحلول لتلافيها في القادم[1].

ويبدو أن زيادة الاهتمام بالجانب الأمني دفع الخليفة إلى إسناد منصب صاحب البريد ببعض القضاة اعتماداً على الأمانة والثقة ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة الشكاوى الواردة ضد أصحاب البريد في بعض الأحيان لتمييزهم بين الرعية وتفضيل بعضهم على بعض والانحياز إلى من يحابونهم دون غيرهم وسوء التصرف بالصلاحيات الممنوحة لهم، كما تقتضي بذلك الإشارات التي أوردها القاضي أبو يوسف في كتابه الخراج، ودعا الخليفة إلى تعيين أناس ثقات لا تعرف مزايا السوء سبيلها إلى قلوبهم[2].

### ب- واجبات صاحب البريد:

من خلال دراسة أوصاف المتولي للبريد تبدو أن مهام وواجبات صاحب البريد كانت جليلة ويمكن تحديد أهمها وهي:

١- معرفة الطرق والمسالك وطبيعة الأرض التي يعمل فيها ومنافذها وصيانتها.

٢- معرفة طرق الأعداء ومناطق تقربهم وتسللهم.

٣- الخبرة بحيل الجواسيس في الدخول والخروج والتَّخفي.

---

(١) م.ن، جـ٢، ص٥٢٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢.

٤- دراسة كتب البريدين في الثغور والولايات، والأطراف وعرضها على الخليفة بعد إيصالها بأسرع ما يمكن وبأقصر السبل[١].

٥- الإشراف على موظفي البريد في المراكز والمحطات وصرف رواتبهم وصرف أرزاقهم وأرزاق دوابهم.

٦- تقليد أصحاب الخرائط مسؤولياتهم[٢].

٧- نقل الضرائب إلى الخزينة المركزية[٣].

ومن مقتضيات وظيفته الهامة اطِّلاعه على جميع الأخبار في كل الجهات بحيث لا تخفى عليه خافية والمقصِّر لم يكن يفلت من العقاب المادي والمعنوي، فالعقوبات المادية كانت تَفرض على المهمل بدافع القصور أو جهل بمتطلبات وظيفته، ومن العقوباتِ المعنوية[٤] التي أنزلت القصاص ببعض المقصرين قول الشاعر:

**وَهَتْكَ بعلَّة الحَمَّام فَوْزٌ     وهالت في الطريق إلى سعيدِ**

**أرى أخبار بيتك عنك تَخْفَي     فكيفَ وَلِيتَ ديوانَ البريدِ[٥]**

يتبين مما سبق أن المختار لوظيفة صاحب البريد لم يكن بالمستوى المطلوب لافتقاره إلى سعة المعرفة والخبرة بمجال عمله وعدم اطِّلاعه بصورة وافية على ما يجري في مؤسسته لذلك لامه الشاعر قائلاً: إذا كنت لا تدري ما يجري في زوايا بيتك الصغير فكيف تستطيع أن تلم بما يجري في

---

(١) A. Mazaheri, Grtacagda, Musluman Larin Yasay islartre, p.105.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك، ص ص ١٨٢-١٨٣ قدامة بن جعفر، الخراج، ص٧٧-٧٨. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٢.

(٣) ابن الأزرق، بدائع، ج٢، ص٥٢٠.

(٤) ابن طيفور، تاريخ، ص٦٤. ابن الأزرق، بدائع، ج٢، ص٥٢٠.

(٥) البحتري، ديوان البحتري، ج١، ص٥٢١.

مؤسسة حساسة كمؤسسة البريد، ومن كان هذا شأنه فكيف يجوز له أن يتولى ما ليس بمقدوره تصريف شؤونه[1].

وهكذا اهتم العباسيون بصاحب البريد اهتماماً كبيراً لاعتمادهم عليه في ضبط الأقاليم ومعرفة ما يجري بها، فكانوا يكتبون عهداً لصاحب البريد عند توليته زمام الأمور ويوضحون فيه الخطة التي يجب أن يسير عليها خلال قيامه بالعمل في ديوان البريد[2]، كما يصدر في يومنا هذا مرسوم جمهوري بتولية كبار مسؤولي الدولة مناصبهم.

وقد ذكر قدامة بن جعفر سنة (٣١٥هـ/ ٩٢٧م) عهد ولاية البريد وذكر «أنه يجب أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه أمرهم ويُتتبع ذلك تتبعاً شافياً ويستشفه استشفافاً بليغاً، وينهيه على حقه وصدقه وأمره أن يتعرض حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، ويجري في أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف، والجور والرفق والتعسف، فيكتب به مشروحاً ملخصاً مبيناً مفصلاً. وأمره أن يتعرف ما عليه أحوال الحكام في أحكامهم، وسيرتهم وسائر مذاهبهم...»[3]. وأمره «أن يتعرف حال دار الضرب، وما يجري عليه مما يضرب فيها من العين والورق. وما يلزمه الموردون من الكلف، والمؤن ويكتب بذلك على حقه وصدقه. وأمره أن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأُعطياتهم، ومن يراعيه ويطالع ما يجري فيه...، وأمره أن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته، ولا يدخل شبهه

---

(١) م.ن، جا، ص٥٢١.

(٢) محمد حسين الزبيدي، العراق في العصر البويهي ٣٣٤هـ- ٤٤٧هـ، (القاهرة ١٩٦٩م)، ص٩١.

Von Kremer: Ibid, p.333.

(٣) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٣٥-٣٧. محمد حسين، العراق في العصر البويهي، ص٩٢.

في شيء منه، ويوعز إلى خلفائه وأصحابه أن لا ينهو إليه إلا ما يثبتونه أو كانوا على ثقة...»(١).

لقد ثبت أن مهمة صاحب البريد لم تقتصر على نقل الأخبار الرسمية فحسب، بل كان بمثابة العين الساهرة والأذن الصاغية للحكام، فكان من واجبه حضور مجالس الناس وولائهم ومجالس الوعظ والأسواق حيث يجري في هذه الأماكن ما ينبغي الاطلاع عليه(٢)، مستعيناً بجواسيس مهرة حاذقين ينجبونه في أداء مهمته(٣).

ومن واجبه أيضاً تقديم تقارير سرية بشكل منظم عن حالة الزراعة والزراع(٤) وأوقات دفع مرتبات الجند والاطّلاع على مقدار تلك المرتبات وإذا ما كانت قد وضعت عند استحقاق آجالها أو لا(٥). وعليه أن لا يكتم على الخليفة شيئاً من أمر الناس، وتعزيزاً لهذا المذهب في الرأي نورد قول الصولي. أن (أحمد بن يزيد المهلبي) قال عن أبيه، قلد الخليفة المتوكِّل ابن الكلبي منصبي البريد والخبر معاً ثم استحلفه بالطلاق طالباً منه أن لا يخفي عنه شيئاً من أمر الناس ولا من أمره هو ذاته شيئاً، وقد كان عند حسن ظن الخليفة إذ نفذ اليمين حرفيًّا ولم يجترئ على المساس بما عاهد عليه طوال بقائه في منصبه(٦).

---

(١) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٣٥-٣٧. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٢ محمد جمال الدين، تاريخ، ص ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) العباسي، آثار، ص٨٢. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٢.

(٣) محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٢.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ص ١٨٥-١٨٦. عجمي خطاب الجنابي، هارون الرشيد ومؤسسات الخلافة في عهده، (بغداد: ١٩٨٩م)، ص٤٢.

(٥) مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، (بغداد: ١٩٨٥م) ج٦، ص١٤٦ وما بعدها.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، تحقيق عبد السلام أحمد فرج، (بيروت: ١٩٦١م) ج١٠ ص٥٧. الصابي، الهفوات، ص٢٩٣.

ولم تقتصر قائمة الواجبات على ما سبق سرده بل يضاف إليها الإشراف على إدارة البريد واستحداث منازل جديدة طبقاً للمتطلبات الجديدة وتوفير الدواب والاستفادة من السفن في مواطن معينة[١].

مع توليه أمر (القصاد) وهم الرجال الذين يحملون الرسائل السرية التي يتعذر إرسالها بالبريد زيادة في الحيطة والحرص على مضامينها وخوفاً من وقوعها بأيدي الخصم الذي ينفتح بها دون ما ريب أو جدل[٢]، وكان هؤلاء يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً[٣] متشددين في التحوط والحذر من الطوارئ غير المحسوبة سلفاً ويطلق على هؤلاء اسم السعاة أو اسم بيك أو فيج[٤].

## ثالثاً: أنواع البريد:

### أ- البريد البرّي:

لقد تطور فن استخدام البريد زمن العباسيين تطوراً متنامياً وهادياً وحادياً إياهم إلى موئل لا تخذلهم فيه المعضلات إذ شمل تنامي هذا التطور البر والبحر والجو تفصل بينها مسافات معينة مزودة بالطعام والمؤن وفيها عدد من الخيول الخاصة بخدمة البريد والعاملين فيه[٥].

وقد قسمت طرق البريد البري إلى محطات تسمى السكك وفي كل مركز أو محطة خيول وبغال مسرَّجة ومجهزة لنقل الأخبار والخرائط أو

---

(١) خدابخش: Islamic Culture، ١٩٢٨م، ص ص ٤٣٣-٤٣٤. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

(٢) منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، (دمشق: ١٩٦٣م)، ص ٢٩٩.

(٣) العباسي، آثار، ص٦٨، ٨٤.

(٤) فيج: جمعه فيوج، فيج هو خادم الديوان الذي يدفع الكتب ويجيء بها والجمع فيوج، والفيج الذي يحمل الكتب من بلد إلى بلد، انظر: Bull Etud Orien, 1952.

(٥) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ٢٢٧-٢٢٩. د. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص٣٠٣.

لتغيير اللوازم، ولم تكن هذه المحطات والسكك متساوية المسافة بل متفاوتة الأبعاد حسب اقتضاء الضرورة طبقاً لبعد مصدر المياه أو لبعد القرى عن بعضها حتى أن الساعي كان يجد المركز البريدي الواحد بقدر مركزين بريدين[١].

وذكر المقدسي أن طول السكة الواحدة في العراق اثنا عشر ميلاً بينما كان طول السكة في الشام وخراسان بقدر ستة فراسخ، وفي خراسان كان على كل فرسخين رباط ورتب فيه أصحاب البريد[٢].

وكانت للبريد أثناء الخلافة العباسية وسائل متعددة كالدّواب وبخاصة الخيل والبغال[٣]، فضلاً عن استخدام الإبل لنقل البريد مضافاً إلى ذلك استعمال الجمازات وهي الإبل السريعة القادرة على العمل في القفار والصحارى[٤].

وكان يحق لصاحب البريد استحداث منازل برية جديدة كلما اقتضى إلى ذلك[٥] وغالباً ما كانت خانات تقام في هذه المراكز للمبيت[٦].

وقد وصفت المواصلات البرية في العراق بسرعتها لا سيما المتعلقة بالبريد، وقد ذكر الجاحظ بأن الحوادث الواقعة في البصرة والكوفة كانت

---

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٨. أحمد مختار العبادي، الحمام، ص١٧٠.

(٢) أحسن التقاسيم، ص٦٦. قحطان عبد الستار الحديثي، أرباع خراسان (البصرة ١٩٩٠م)، ص١٢٨.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح، ص٤٢. Laposte aux dans, p.625.

(٤) مسكويه، تجارب، ج٢، ص١٠١. الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق، إبراهيم الأبياري (القاهرة: ١٩٦٠م)، ص١٥.

(٥) خودابخش، Islamic Culture ١٩٨٢م، ص ص ٤٣٣-٤٣٤. حسين علي الداقوقي، البريد، ص٨٨.

(٦) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٨. أحمد مختار العبادي، الحمام، ص١٧٠.

تنقل أخبارها إلى بغداد على جناح السرعة بحيث لا يغيب بياض اليوم حتى تكون الحادثة قد بلغت مرامها دون تأخير[١].

وكان الخلفاء شغوفين باختيار الجمال لسرعتها الفائقة بالقياس إلى غيرها لا سيما الحجازية منها، وكان المتولي المستعين بهذه الجمال لنقل الأخبار يسمى (النَّجاب)[٢].

وبناء على سلامة فطرتهم المبنية على المعرفة بالتضاريس التي تنسجم مع نوع معين من الدواب، فقد كانوا يستعملون البغال في إيران والإبل في المغرب، ولكل من هذين الصنفين من الحيوانات سمته الخاصة المتلائم مع الطبيعة الجغرافية التي تتطلب العمل فيها وتقتضي الاعتماد على نوع المختار المنسجم مع القصد المراد ومهما يكن من شيء فإن النظام البريدي ظل مرناً، فلطالما أقدم الخليفة أو الوزير أو الوالي على تعزيز مركز بريدي وتطويره على طريق معين لأسباب سياسية أو عسكرية وبما أن البريد يعد مرفقاً رسميًّا للدولة، فإنه لم يكن يتولى إلا نقل الرسائل ذات الاتصال بشؤون الدولة باستثناء بعض الحالات الشاذة المستثنى من القاعدة[٣].

ومما يستلزم التنويه به هو أن الحمير كانت وسيلة نقل عمال الدولة من وإلى أماكن عملهم، أما بقية الأصناف من الحيوانات فكانت توظف في الأمور البريدية لتفوقها على المطايا من أوجه عديدة كالسرعة والقوة[٤].

والذي يتطلب التأكيد عليه هو أن أمراء البويهيين كانوا يتوخون السرعة

---

(١) الحيوان، (القاهرة: ١٩٦٥م)، جا، ص ص ٩٦-٩٧. حسين علي الداقوقي، البريد، ص١٨٣.

(٢) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد: ١٩٤٨م)، ص١٤٤. حسين علي الداقوقي، البريد، ص١٨٣.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتاب، (بيروت: ١٩٦٤م) ص٦٧. هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٨١.

(٤) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٨١.

والتَّعجل في التعامل مع الأحداث ومتطلباتها المقتضية والداعية إلى الاستعجال في أمر من الأمور، فكانوا يلجؤون إلى انتقاء أسرع الحيوانات وأقدرها على السير مسافات طويلة فاستعانوا بالجمازات عوضاً عن غيرها بغية تحقيق الغرض المطلوب وليس أدل على ذلك من إقدام (الوزير أبي الفتح ابن العميد) على اتخاذ هذه الوسيلة للِّحاق بالأمير ركن الدولة بن بويه في فارس سنة (٣٦٤ هـ/ ٩٧٤م) والضرورة الملجئة إلى هذا التصرف نابعة عن رغبة أولئك البويهيين في تنفيذ المهام لتحقيق الأغراض المنشودة، فلو تيسر لهم أسرع من الجمازات لبادروا إلى إيثاره على غيره، ولكنهم اقتصروا على الاستعانة بها لعدم توفر وسائل أخرى تفوقها سرعة وقدرة وصبراً على احتمال المشاق في تلك الحقبة، وللسبب نفسه استخدموا الجمازات في نقل البريد أثناء الحروب حتى لا تتخلف الأخبار المتعلقة بسير المعارك عن ركب الأحداث الناجمة عنها[١].

ومما لا يرقى الارتباب إليه ويتعذر التردد في قبوله هو أن المعنيين لم يكونوا يقدمون على شيء ذي بال يتصل بالبريد ويخدم تطوره عبثاً أو اعتباطاً بل كانوا يحسبون لكل شيء حسابه بحكم الدراية والخبرة والإدراك السليم فكانوا يضعون كل شيء في موضعه بعد تمحيص دقيق ويجنبهم التردي في هوة الزلل والخلل، ومن هذا المنطلق أقدموا على رسم معالم الطرق البريدية وحدَّدوها بشكل مدروس مستفيض وصولاً إلى نتائج سليمة مستعصية على الانتقاد والطعن ومن تلك الطرق البريدية الهامة نذكر الطرق التالية:

**أولاً**: الطريق الممتد من بغداد إلى المغرب ويمر بالموصل، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرّقة ومنبج وحلب وحماه

---

(١) محمد جمال الدين، تاريخ ص ص ١٠٤-١٠٥. وانظر إلى:

Hitti, History of the Arabs.

وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية واللّجون، ومن اللّجون، ثم الرملة وهي قصبة في فلسطين ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية ومن ثم إلى الرّقة[1].

**ثانياً**: الطريق الممتد من بغداد إلى الشام مروراً بالضفة الغربية للفرات ثم الأنبار وهيت إلى دمشق.

**ثالثاً**: الطريق الممتد من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمدان والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند، ويمتد من هذه المدينة حتى الوصول إلى الصين[2].

ومن باب الحفاظ على عدم انفراط عقد الموضوع فلا بأس من الإشارة إلى أن العباسيين قد استخدموا القصاد في المهام البريدية بمعنى السُّعاة[3]، إلّا أن (المستكفي بالله أول من أظهر السعاة في بغداد)[4]، ومعز الدولة البويهي هو من طور مفهوم السعاة والأغراض التي يودّونها، فبعد أن وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة وعودة ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقرار أمر معز الدولة في بغداد، شرع معز الدولة باستعمال السعاة لإبلاغ أخيه ركن الدولة الأخبار الضرورية عند الملمات ابتغاء الاطّلاع على مضامينها[5]. ثم هبوا لتدريب الأشخاص على هذه المهمة فكسب

---

(١) فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٣.

(٢) جهادية القره غولي، العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص١٠٠. د. محمد جمال الدين، تاريخ، ص ص ١٠٣-١٠٤. آدم متز، الحضارة، ج٢، ص ص ٤٠٦-٤٠٧. حسن إبراهيم حسن تاريخ، ج٤، ص٣٤٤.

(٣) منير العجلاني، عبقرية الإسلام، ص٢٩٩.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٩٧.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٣٤١. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٢. ابن كثير، البداية، ج١١، ص٢١٣.

المتدربون الخبرة والمران على أمثل وجه بحيث صار بعضهم يقطع نيفاً وثلاثين فرسخاً في يوم واحد[١].

والواقع أن السعاة ظهروا في الشرق لأول مرة في العصر العباسي وكان لهم العدّاؤون لإيصال الأخبار. وشاع استخدام السعاة في العراق زمن البويهيين وخير دليل على ذلك قول الحسن بن عبد الله إذ يقول: «أهل العراق يتغالون في السعاة»[٢]، واصفاً إياهم قائلاً: «هم رجال خفاف تعودوا الجري السريع والصبر على المتاعب والسير الطويل والقدرة على قطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة»[٣].

إن السعاة قد ظهروا في الشرق أول الأمر في عهد البويهيين بالمفهوم الواسع للكلمة، ودرءًا للغفلة عن الأمر نقول إن العباسيين قد استعانوا بالعدَّائين لإيصال الأخبار إلى مبتغاها اقتصاداً في الوقت وتوخياً للانتفاع بمردود فعلهم إيجابيًّا لأن العدائين كانوا أقدر من غيرهم على أداء المهمة بحكم التمرن والمراس[٤].

وقد حدث طفرة نوعية استبدت بالإعجاب واستقطبت أنظار الناس في زمن معز الدولة تجسمت في بروز ساعيين هما (فضل ومرعوش) اللَّذان فاقا جميع السعاة في حقل عملهما، إذ كان كل منهما يقطع نيفاً وأربعين فرسخاً أي بزيادة عشرة فراسخ على من كان الآخرون يقطعونه في العمل المثير للانتباه حمل الناس على التعصب لهما إعجاباً بتفوقهما غير سابق المثيل[٥].

وفي زمن الخليفة القادر بالله عام (٣٨١هـ/ ٩٩١م) الذي كان يمشي ذات

---

(١) م.ن، جـ١١، ص٢١٣.

(٢) العباسي، آثار، ص٨٨. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٥. حسن إبراهيم حسن، تاريخ، جـ٤، ص٤٣٤.

(٣) العباسي، آثار، ص٨٨. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٥.

(٤) نعمان ثابت، الجندية، ص٤٢.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٦، ص٣٤١. ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٢٢.

ليلة في أسواق بغداد، تناهى إلى مسمعه صوت شخص يقول «قد طالت دولة هذا المشؤوم وليس لأحد عنده نصيب»[1] فأمر خادمه بإحضاره بين يديه، بهدف البطش به، لكنه تريث قليلاً عن إنفاذ القصاص به سائلاً عن مهنته، فرد على الخليفة قائلاً: إني كنت من السعاة الذين يستعين بهم أرباب هذا الأمر على معرفة أحوال الناس، ومنذ تولي أمير المؤمنين تمَّ إقصاؤنا والاستغناء عن خدماتنا فتعطلت معيشتنا وانكسر جاهنا، فاجابه الخليفة أتعرف من هم على شاكلتك من السعاة في بغداد قال: نعم، ثم طلب من الساعي تدوين أسمائهم لإحضارهم وقد فعل ما أمر به، وما كان من الخليفة إلّا أن أجرى لكل منهم معلوماً ثم نفاهم جميعاً إلى الثغور القاصية ورتبهم هناك عيوناً على أعداء الدين والدولة، ثم التفت إلى من حوله وهو يقول «اعلموا أن هؤلاء ركب الله فيهم شرًّا وملأ صدورهم حقداً على العالم، ولا بد من إفراغ ذلك الشَّر فالأولى أن يكون ذلك في أعداء الدين دون أن تنغص بهم المسلمين»[2].

## ب- البريد الجوي: (الحمام الزاجل)

علاوة على ما سبق من بالغ الرعاية التي رصدت للبريد البري فإنهم حيال البريد الجوي أعطوا زيادة في التوخي سرعة نقل الأخبار لأنه الوسيلة الوحيدة المستخدمة لنقل أسرع الأخبار.

وقد أطلقت تسمية البريد الجوي الطائر زمن العباسيين مشيرين بذلك إلى الحمام الزاجل الذي شاع استخدامه في نقل الأخبار والرسائل منذ أقدم العصور، ويعدُّ الحمام الزاجل[3] من أبرز سبل الاتصال البريدي في العصور القديمة والوسطى[4].

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، دكتور إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٣م) ص٥٩.

(٢) م.ن، ص٥٩. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٧.

(٣) الأصفهاني، فتح، ص٣٦٠. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

(٤) آدام متز، الحضارة، ج٢، ص٤١٦. إبراهيم العدوي، الحمام الزاجل في العصور =

ففي القرن السادس قبل الميلاد أخذ اليونانيون من الفرس استعمال هذه الوسيلة موظفين إياها في الأغراض الرياضية بإطلاقهم الحمام الزاجل أثناء انعقاد المباريات الرياضية لنقل أخبار المباريات بين المدن اليونانية، ثم انتقل فن استخدامه إلى الرومان ولكن للأغراض الحربية، والحالات الطارئة المستعجلة الأخرى الحديثة، نظراً لتمتعه بالذكاء المتميز وسرعة طيرانه واهتدائه إلى وكره دون أن يلتبس عليه الأمر تحت أي ظرف من الظروف التي تعترضه وإن غاب عن موطنه بضع سنين ولذا علا شأنه وارتفع قدره في ميدان البريد، ولكن عناية المسلمين به فاقت غيرهم من الأقوام المذكورة ويعود لهم فضل تنظيم نقل المعلومات عن طريقه[1].

ويقول الثعالبي: إن المثل يضرب بدقة اهتداء الحمام الزاجل إلى وكره فحمام الهدى كان معروفاً في الشام والعراق وكان يشترى بأثمان باهظة فيطلق من أصقاع قاصية وهو محمَّل بالرسائل لإيصالها إلى المكان المراد ثم يعود محمَّلاً بالأجوبة عنها[2].

لولا استعمال حمام الهدى في البريد لما جاز أن يعلم أهل بغداد بما يدور في البصرة أو الكوفة في اليوم الواحد، فما كان يحدث غدوة النهار ينطلق خبره إلى المدن الأخرى عشيَّته وهذا مشهود له ومتعارف عليه تأريخيًّا، وينبغي العلم بأن حمام الهدى هو النوع المخصوص والأغلى قيمة والأعلى رتبة ويعرف بالحمام الرسائلي، الذي اتخذه الملوك لحمل المكاتبات[3].

---

= الوسطى، مجلة تاريخية مصرية، (القاهرة: ١٩٤٩م) العدد (١) مج ٢، ص١٣٢.

(١) آدم متز، الحضارة، ج٢، ص٤١٦. إبراهيم العدوي، الحمام، مج٢، ص١٣٢.

(٢) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق، محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٦٥م)، ص٤٦٨.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ص ٩٦-٩٧. حسين علي المسري، تجارة العراق في العصر العباسي، (الكويت: ١٩٨٢م)، ص١٨٣.

وقد اعتنى بهذا النوع بني العباس اعتناءً بالغاً كما ثبت ذلك في روايات تأريخية عديدة، فعلى سبيل المثال أورد مسكويه رواية تشير إلى التَّوسع في استعماله، ففي كل ساعة كان الحمام يأتي من مختلف أنحاء البلاد عائداً إلى أوكاره بعد أداء وظيفته، ونذكر من بين الخلفاء العباسيين الذين عوَّلوا على استعمال الحمام الزاجل بكثرة الخليفة المعتصم في سامراء[١]، فعند وقوع الخرمي في قبضة الأفشين أطلقت الطيور من النوع المذكور، وهي حاملة بشرى الفتح والانتصار على خصمه فعممه بدوره على الأمصار المختلفة في العالم الإسلامي[٢].

ومما ذكر عن ذلك الطائر ما أورده الحميري مفاده أن الناس تنافسوا فيما بينهم على اقتنائه حتى بلغ ثمن الطائر الواحد سبعمائة دينار[٣]، أما المنسوب إلى خليج القسطنطينية فقد بلغ ثمنه ألف دينار، وكانت البيضة الواحدة لهذا الطائر تباع بعشرة دنانير، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الناس قد احتفظوا بسجلات خاصة دوّنوا فيها أنسابه للتفريق بين الجيد والأجود حتى بلغ بهم الأمر حدًّا لا يختلف معه الأدنى عن الأعلى في الاهتمام به إذ لم يكن يمتنع الرجل الجليل أو الفقيه أو العدل من اتخاذ بعض منه لأغراض المنافسة بوصف أخبارها وآثارها، ولهذا الطائر متجر خاص في بعض الأقاليم الإسلامية لا سيما البصرة ومصر. وكانت المخابرات والمراسلات متواصلة بواسطته بين الإسكندرونة وبغداد، والقسطنطينية والبصرة، وقطع هذه المسافات الطويلة ينفرد به النوع الذي كان ثمنه ألف دينار دون غيره من الأنواع الأخرى[٤].

(١) مسكويه، تجارب، جـ٥، ص٢٩٨. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص ص ٦٢-٦٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، تحقيق، رضا تجدد، (طهران: ١٩٧١م)، ص ٦٤. يوسف حسن غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، (عمان: ١٩٨٢م) ص٦٥. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٥.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٥م)، جـ١٤، ص٤٣٥. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٣.

(٤) الحميري، الروض، جـ١٤، ص٤٣٥. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

ولما كانت تلك الطيور تعامل كسلعة تجارية تستوجب النقل إلى الأمكنة النهائية، فإنهم ابتكروا آلات خاصة لنقلها والإبقاء عليها حية عن طريق عدم تعريضها لموجبات الأذى ومن الجدير ذكره هو أن هذا الطائر لعب دوراً متفرداً وقام بوظيفة نقل الأخبار من وإلى الغايات والأماكن المنشودة أثناء الحروب والحصار مضافة إليها الأغراض المدنية وقت السِّلم[١].

والبريد الجوي شأنه شأن البريد البرِّي حيث خصّصت له مراكز ومحطات متعددة مقامة ضمن المسافات المطلوبة والمعلومة وانشئت في هذه المراكز أبراج خاصة وُكِّل بها موظفون يقومون بأداء أعمالهم خير قيام يعرفون بالبرَّاجين أو الخفراء[٢]، تتمثل وظائفهم في الاعتناء والتدريب والإطعام والإراحة والإطلاق والاستقبال[٣]. وكانت هذه المراكز مزودة بالدَّواب والأقفاص لتوجيه هذه الطيور إلى أماكن شتى علماً بأن المسافات بين كل محطة وأخرى أطول في الجو منها على الأرض[٤]. ويذكر المؤرخ الروسي بارتولد: إن شبكة من الأبراج أقيمت للحمام الزاجل تمتد إلى مراكش»[٥].

ومما كان يميز الحمام الزاجل من غيره وضع خلاخيل ذهبية في أرجله وألواح مميزة في أغناقه، هذا وكان المسلمون يستعملون أثناء الحروب اصطلاحاً أشبه بما يعرف اليوم بالشِّفرة فيحملها الحمام تكتب بها الأخبار ثم تعلق على أجنحته[٦]، وكان الورق المستخدم لهذه الغاية خفيفاً تلافياً

(١) نعمان ثابت، الجندية، ص٤٢. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.
(٢) اليونني، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد (الدكن: ١٩٥٤م)، مج ١، ج٣، ص٢٦١. القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٣٦.
(٣) محسن محمد حسين، الجيس الأيوبي في عهد صلاح الدين (بيروت: ١٩٨٦م) ص١٨١.
(٤) أحمد مختار العبادي، الحمام، ص١٧.
(٥) بارتولد، تاريخ، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص٥١.
(٦) الأصفهاني، فتح، ص١٧٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧.

لزيادة ثقل الوزن الذي يجهد الطائر أكثر مما ينبغي، أما سبب العزوف عن الكتابة الصريحة والاستعاضة عنها بالشِّفرة، فيعود إلى الاحتفاظ الدقيق بسرية الأخبار المرسلة وعدم السَّماح للخصم بالاطّلاع على الأسرار ولقد نتج هذا الابتكار البديع من طول الخبرة وتراكم المعرفة بشؤون البريد وكيفية التعامل معها طلباً لمزيد من الحيطة والحذر على الصعيد الأمني(١).

وأما فيما يتعلق بكيفية التعامل وتدريب هذا الطائر(٢) العجيب فإنهم أقاموا أبراجاً خاصة فوق أسطح المنازل والمباني، بقصد التمرين والتربية(٣) وكانوا يقسِّمون الحمام المراد تدريبه إلى مجموعات يتم تمرينها تدريجيًّا على تعلُّم سلوك المسالك والطرق، بعد حمله على الاستيعاب الكامل لما يدرَّب عليه، وكان المشرفون على التدريب يقضون ساعات طوال تحت الشمس دون الاكتراث للسعة الحرارة، وسلوانهم في ذلك مراقبتهم لتلك الطيور وهي طائرة في أسراب أسراب(٤).

ولم يقع الاختيار على هذه الطيور من قبل الدول اعتباطاً أو عفو خاطر، بل جاء نتيجة للدِّراية بما تتسم به لشدة سرعتها وقوة طيرانها(٥). وكانوا يتبعون في التدريب أسلوباً مبنيًّا على تقسيم المسافات إلى مراحل قصيرة بادئ الأمر فكانت تطلق لأول وهلة من مسافة إلى أخرى، ثم يعاد التكرار

---

(١) الأصفهاني، فتح، ص١٣٧. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٧.

(٢) القلقشندي، صبح، (القاهرة: ١٩٦٣م) جـ١، ص١٥٤. يوسف حسن غوانمه، التاريخ، ص٦٨.

(٣) الثعالبي، خاص الخاص (القاهرة: ١٩٠٩م) ص٤٤. ابن الإخوة القريشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، (كامبردج: ١٩٣٧م)، ص٢١٤. بدري محمد فهد، العامَّة في بغداد في القرن الخامس الهجري، (بغداد: ١٩٦٧م)، ص٢٤٠.

(٤) ورام الأشتري، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، (طهران: د.ت) جـ١، ص٩٢. بدري محمد فهد، العامَّة، ص٢٤٠.

(٥) الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص٩٧. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

إلى أن تستوعب المسافة المطلوبة، ثم تستأنف التدريب من مسافة تلي سابقتها وتتكرر العملية أيضاً لنفس الغرض إلى أن يتم استيعاب جميع المسافات المراد تدريبها[1] عليها، وقد نتج عن هذا الأسلوب تمكين هذه الطيور من الطيران والتَّحليق في الجو لمسافة تبلغ ثلاثة آلاف فرسخ في اليوم الواحد أحياناً[2].

وكانت الطريقة المتَّبعة لتعليمها الطيران مثيرة للإعجاب فعندما كانت ترسل من مسافات بعيدة تحلق في الجو بشكل مدور لتعلو مخترقة كبد السماء تدريجيًّا، وتستمر في علوها كي تستطيع مشاهدة موطنها ثم تهبط بالسرعة[3]، عند إدراكها بلوغ المرام، لذا استعملها الجماعات السرية فضلاً عن الوزراء والقادة المبيتين النية على حياكة المؤامرات بمعزل عن متناول السلطة المركزية[4].

لقد لجأت الحركات المعارضة ضد الخلافة العباسية إلى الاستفادة من الحمام الزاجل على نطاق واسع، ويتجسَّد ذلك في إقدام حمدان بن الأشعث مؤسس المذهب القرمطي على اتخاذ هذا الطائر في نقل الأخبار من مختلف البقاع إلى مقره في العراق[5].

ولقد تكثَّف الاعتماد على هذا الطائر لنقل الرسائل والمعلومات المهمة إلى المعنيين بها لا سيما في القرن الرابع الهجري وبالتحديد عام (٣١٣هـ/ ٩٢٥م) حين اشتد خطر القرامطة على الخلافة العباسية، فاضطر

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص٢١٧. ابن سيده، كتاب المخصص (بيروت: د.ت) ج١٠، ص١٧٠.

(٢) الدميري، حياة الحيوان الكبرى (بيروت: د.ت)، ج١، ص٢٥٨.

(٣) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، (القاهرة: ١٩٥٦م)، ص٢٤٦.

(٤) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، (بيروت: ١٩٦١م)، ص١٦٣.

(٥) محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٥. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

إثر ذلك الوزير (علي بن عيسى) إلى تسليم مائة طائر إلى مائة رجل بهدف نقل الرسائل وربطها بأجنحة هذه الطيور لتحملها إلى حيث ينبغي التوجه نحوه[١].

ويشير أحد المؤرخين إلى أن أبا طاهر القرمطي عندما اقترب من الأنبار أنفذ أبو علي بن مقلة صاحباً له ومعه خمسون طائراً وأمره بالإقامة فيها، لموافاته بالأخبار عن كثب، ففعل ذلك وصارت الأخبار ترد من جهته إلى الخليفة على يد نصر الحاجب[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن البويهيين تفننوا في الاستعانة بالحمام الزاجل ومن ذلك ما رواه ابن الأثير قوله: «كان بختيار البويهي قد تواطأ مع والدته وإخوته»[٣] حيث إنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك الذين يظهرون أن بختيار البويهي قد مات ويجلسون للعزاء متخذين من هذا الإجراء مصيدة منصوبة لاصطياد من يراد الإيقاع به من الأتراك، ولما حضر سبكتكين عندهم قبضوا عليه، ثم كتب بختيار إلى الأمراء بعد إنفاذ حيلته ونجاح خطته وعلّق المكتوب على أجنحة هذه الطيور يزف إليهم بشرى التوفيق فيما كان يصبو إليه معرفاً إياه بما تحقق من إنجاز مخطط لاصطياد الأتراك وينم هذا العمل عن البراعة في التَّدبر والتَّدبير والتَّصرف والتَّصريف[٤]؟

ولقد كانت الرسائل لا تستغرق وقتاً طويلاً في الوصول من الرقة والموصل وواسط والبصرة والكوفة إلى بغداد من البويهيين بواسطة تلك الطيور بحيث لم يتجاوز الوقت يوماً وليلة في كل الأحوال[٥].

---

(١) مسكويه، تجارب، جـ٥، ص٢٩٨. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، (القاهرة: ١٣٠٣هـ)، جـ٨، ص٥٧. محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص١٠٥.

(٣) محمد جمال الدين سرور، تاريخ، ص٥٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٥٣. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٤.

(٥) ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٥٣. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٣. آدم متز، الحضارة، جـ٢، ص٤١٨.

وفي نهاية القرن الرابع الهجري كانت عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف طيور كوفية ويعني بالكوفية طيور بغداد، فإذا حمل الطير رسالة من الكوفة إلى بغداد تحقق وصول الخبر في وقت قياسي مذهل[1].

## جـ- البريد البحري وإشعال النار:

### ١ - البريد البحري:

ومن الوسائل المسهمة إسهاماً جديًّا في تعضيد الخلفاء وإسناد موقفهم ودعم متطلباتهم البريدية، البريد البحري المعتمد على السفن، إذ كان البريد في العصر العباسي يسير بالسفن عند السواحل والأنهر، كنهر دجلة الذي تسير فيه السفن للأغراض البريدية، وتتسم بالجودة والسرعة[2]. وكثيراً ما كان أصحاب البريد يأذنون لعامَّة الناس من المسافرين بركوب تلك السفن بغية التمويه وإخفاء الحقائق التي تنتقل عن طريق البريد إلى الجهات المرادة[3] ثم إنهم لديهم طريقة أخرى لإيصال الأخبار في النهر عدا استخدام سفن البريد، وهي أن يضعوا الرسائل في قصبة تربط برزمة من حشيس وترمى في النهر[4].

إن البريد الحكومي المنظَّم بصوره المختلفة كان معتمداً على السفن والبغال والطيور والسعاة والنيران والأدخنة والطبول، وهذه الوسائل جميعها كانت في خدمة البريد تساهم مساهمة جادة موفية بالغرض في إيصال الأخبار والمراسلات والمكاتبات من وإلى الخليفة بأقصى سرعة ممكنة كي لا تفاجئه الظروف ولا تأخذه الغفلة أي مأخذ في بنية الخلافة[5].

---

(١) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٣. آدم متز، حضارة، ج٢، ص٤١٨.

(٢) حسين علي الداقوقي، البريد، ص٨٩. فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢.

(٣) حسين علي الداقوقي، البريد، ص٨٩.

(٤) فخري الزبيدي، هارون الرشيد، ص٦٢. نعمان ثابت، العسكرية، ص٣٨.

(٥) الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٦٠-١٦٢.

ويقدِّر المسعودي طول مجرى نهر دجلة على وجه الأرض بحوالي ثلاثمائة فرسخ أو أربعمائة فرسخ[1]، ولم يقتصر استخدام نهر دجلة على نقل البضائع فقط، بل استخدم أيضاً لنقل المسافرين بين مدن العراق أو إلى الخارج فقد حدث في عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) أن ركب جماعة من الحجاج من الموصل في عدد من الزوارق الكبار وفي أثناء الرحلة النهرية غرقت بعض السفن، وقدِّر عدد من هلك من الحجاج غرقاً بنحو ألف نسمة[2]. وكانت دجلة تستخدم أيضاً للمواصلات العسكرية، فقد ورد في عام (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) أن الوزير خواشاذة نقل جيشه من الموصل إلى بغداد بالقوارب واعتمد البريديون في كثير من الأحيان على نهر دجلة في نقل جيوشهم، فقد أرسل أمير البطيحة جيشه سنة (٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م) في السفن لضرب أحد المعارضين واستخدم دجلة في الأجزاء الشمالية منه للنقل في اتجاه معاكس لتيار النهر حتى مدينة الموصل، وكان التيار إلى الشمال من تكريت قويًّا، فكانت السفن تسير فيه بمعدل فرسخين في اليوم[3].

**٢- وسيلة إشعال النار:**

وفضلاً عمَّا فصلنا فيه القول بصدد البريد ومتعلقاته فهناك أساليب أخرى كانت تفعل فعلها في أداء المهمات البريدية بشكل جيد وإيجابي مستندين في ذلك إلى تقنين دقيق يستعصي على الخلل ومن هذه الأساليب

---

(١) المسعودي، مروج، (القاهرة: ١٩٤٨م)، جـ١، ص١٠٥. حسين علي المسري، تجارة، ص١٦٨.

(٢) مسكويه، تجارب، (القاهرة: ١٩١٢م)، جـ٢ ص ص ١٧٦-١٧٧. حسين علي المسري، تجارة، ص١٦٨.

(٣) مسكويه، تجارب، (القاهرة: ١٩١٦م)، جـ٣، ص١٧٦. ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٢٢٤. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٤٣. حسين علي، تجارة، ص١٦٨.

إشعال النار إذ كان التَّخاطب يجري بينهم عن طريق إشعال النار التي يمكن رؤيتها من بعيد وهذه الإشارة متفق عليها في قاموس المفردات البريدية[1] المعمول بها أيام العباسيين، بيد أنّ أبا العباس السفاح أوغل في إدخال أساليب جديدة على الوظائف البريدية واقتبس معالم معينة ثم سخَّرها بعد تطويرها لصالح الأغراض البريدية مستفيداً من خبرة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قد عوّل على ما كان لدى اليونان من خبرة في هذا المجال[2]، المتمثل في بناء الأبراج على طريق الحج الممتد بين الكوفة ومكة المكرمة[3] حيث أقام المنائر بعد مسح المسافة الواقعة بين المدينتين وتقسيمها إلى أميال عن طريق ذرعها بالأذرع الهاشمية، واضعين لكل ميل رقمه الخاص به فإذا أكمل الميل أشير إليه برقم واحد وإلى الميل الثاني برقم اثنين وهكذا دواليك بالقياس إلى بقية المسافة حيث تتسلسل الأميال والأرقام من الكوفة إلى مكة المكرمة[4]، وقد جعلوا هذه المنائر بمثابة إشارات يهتدي بها السائرون في الفيافي، وهذه الإشارات المنبعثة من إشعال النار على تلك الأبراج كانت خير وسيلة تقود السائرين إلى أهدافهم وتقيهم خطر فقدان الطريق المؤدي إلى الهلاك المحتوم[5]، كما كانت هذه المنائر تمثل خير سبيل لبث الأخبار المنتقلة من مرحلة إلى أخرى شطر الأماكن المقصودة، والقصد بالمنائر مواضع تشعل فيها النيران ليلاً ويطلق منها الدخان نهاراً، ليَستدل بها على اختلاف حالات رؤية العدوّ تارة من حيث العدد وغير لك من الرموز المتفق عليها للدلالة على المقصود تارة أخرى، فضلاً عن وضع نظارات في كل منور لرؤية ما ورائهم أو أمامهم،

---

(١) نعمان ثابت، الجندية، ص ص ٣٩-٤٠.

(٢) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٤) نعمان ثابت، الجندية، ص ص ٣٩-٤٠.

(٥) أبو زيد شلبي، تاريخ، ص ص ١٤٣-١٤٤.

وكان المكلفون بهذه الأعمال يتقاضون مرتبات مقررة[1] يطلق عليها الجوامك[2].

هذا وقد كانت الوسائل البريدية تتفاوت في سرعة نقل الأخبار وقد بذل المهتمون بشؤون البريد أقصى ما يمكن من جهد لتستوفي سرعة انتقال الأخبار ويظهر هذا التفاوت جليًّا عند النظر في الوسائل المستعملة، فالبرية أسرع من غيره من الوسائل التي دونه، والحمام الزاجل أسرع من البريد المعتمد على الدواب، والمناور ترسل الأخبار بما هو أكبر من سرعة الحمام، لذلك لم يكن مستغرباً إذا طار الخبر من مصر إلى مصر في غضون يوم وليلة[3].

وكان صاحب البريد يتولى مهمة اتخاذ المراقب والمشارف والأعلام وعليها النيران المشتعلة في الليل والدخان المنطلق في النهار، وهذه الإشارات كانت ذات مغزى معروف لدى العاملين في حقل البريد وكان صاحب البريد هو الذي يقررها وينظمها ثم يعممها على المعنيين للعمل بموجبها[4].

---

(١) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٤٧. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٤.

(٢) الجوامك: هي الرواتب بالمصطلح المتعارف عليه في يومنا هذا ومفردها جامكية. انظر: القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٤٦.

(٣) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٨٠.

(٤) العباسي، آثار، ص ص ٦٦، ٨٤.

# الفصل الثاني

## استخدامات البريد

أولاً : استخدامات البريد الخاصة

ثانياً : نقل أخبار الدولة ومنشوراتها

ثالثاً : استخدامات البريد العسكرية

رابعاً : استخدامات عامة أخرى

# الفصل الثاني

## استخدامات البريد

### أولاً: استخدامات البريد الخاصة:

لا مناص من الإشارة إلى أغراض البريد العديدة والتي لها أهميتها التأريخية وتقدم لنا صورة حيّة لتأريخ البريد وأول تلك الأغراض هو استخدام البريد بشكل خاص لشؤون الخليفة والخلافة معاً.

ففي سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) توفي الخليفة أبي جعفر المنصور في مكة المكرمة وتمَّ أخذ البيعة للمهدي قبل دفن والده من رؤوس بني هاشم فضلاً عن القواد المصاحبين له، لأداء فريضة الحج، وبعد إتمام مراسيم البيعة بادر الربيع الحاجب إلى إرسالها مع صاحب البريد إلى المهدي الذي كان في بغداد وقتئذٍ، وما إن مثل بين يديه حتى سلم عليه بالخلافة وسلمه كتاب البيعة. وهنا يظهر بجلاء دور البريد في التعامل مع الحدث وبصورة فورية فبدونه كان متعذراً التعامل مع الموقف الجديد المتمثل في وفاة الخليفة[١] والبيعة لولي عهده وإبلاغ ذوي الشأن بالموضوع.

ويلي ما سبق من الأغراض البريدية الخاصة غرض متصل بشؤون

---

(١) مؤلف مجهول، كتاب العيون والحداق في أخبار الحقائق، (ليدن: ١٨٧١م) ج٣، ص٢١٧. ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة: ١٩٣٢م) ج١٠ ص١٢٩.

الخلافة، وفي عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م) وجّه الخليفة المهدي كتاباً إلى هارون الرشيد الذي كان مستقرًّا في الرّقة[١] حينذاك، طالباً منه أن ينحدر على البريد، فنفذ إرادة والده، وانطلق من حرّان[٢] ووصل إلى بغداد في أيام يسيرة، فولّاه المهدي الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية والشام وإفريقية[٣].

هذا وقد كتب الرشيد عام (١٦٩ هـ/ ٧٨٥م) إلى الأمصار الإسلامية كافة نعي المهدي وأخذ البيعة للهادي ثم سيَّر نصير الوصيف على دواب البريد إلى الهادي بقصد إبلاغه خبر الوفاة مرسلاً معه القضيب والبردة والخاتم، وجدَّ البريد في السير مستوفياً من الجهد أقصاه فبلغ مدينة السلام في عشرين يوماً[٤].

وما دام سرد الأغراض الخاصة متصلاً فإن الضرورة تستوجب إدراج غرض آخر يتعلق باستقدام طبيب ذي حظ وافر من المهارة والحذاقة ونصيب أوفر من البراعة في مداواة العلل الطارئة، والأسقام المزمنة، ففي عام (١٧١ هـ/ ٧٨٧م) مرض الخليفة الرشيد إذ أصابه صداع شديد من الطب ولوازم التطيب، ثم طلب من يحيى استقدام من لا يجد الارتياب سبيلاً إلى فقهه في حقل الطب، فقفز إلى ذهن يحيى اسم (بختشيوع بن جيورجيس)، فأمر

---

(١) الرقة، وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. انظر ياقوت الحموي معجم البلدان، جـ٣، ص٥٨-٥٩.

(٢) حران: وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة اقور وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرقة يومان، انظر: ياقوت، معجم، جـ٢، ص٢٣٥.

(٣) الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق د. علي حبيبة (القاهرة: ١٩٦٧م) ص٢٤٥.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٨٩. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٢٥. مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص٢٨٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: ١٩٦٦م) جـ٥، ص٧٤. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (حيدر اباد الدكن ١٩٣١م) مج ١، جـ١، ص٢٦٩.

صاحب البريد بالانطلاق السَّريع لإحضاره من جند نيسابور، فلبى صاحب البريد الطلب وأدى ما عليه خبر أداء[1]، والبريد هو الذي نعى للخليفة الرشيد وفاة ابن عمه إبراهيم[2].

ومن الأغراض التي اشتمل عليها البريد وأدى مهامه الخاص فيها دوره في حج الخليفة الرشيد عام (١٨٠ هـ/ ٧٩٦م)[3] حين عزم على القيام بأداء فريضة الحج راجلاً أوعز إلى عمرو بن مسعدة بالقيام بتأمين الطريق بين بغداد ومكة المكرمة من جميع الجوانب، وإعداد المستلزمات المختلفة من مأكل ومشرب وأماكن الراحة والاستحمام، فضلاً عن تهيئة البريد بعد توفير جميع اللوازم المطلوبة، كما قسَّم الطريق إلى مراحل متعددة في طول المسافة لتجنب الخليفة متاعب السفر، ولا سيما أن زوجته زبيدة كانت برفقته الأمر الذي استلزم الوصول بالإجراءات الأمنية إلى أقصى درجاته[4]، فامتثل عمرو بن مسعدة أمر الخليفة وأنجز ما أسند إليه من المهام أحسن إنجاز، واستغرق العمل عاماً بطوله، ثم باشر الخليفة الرشيد السير ميمماً شطر الكعبة قاطعاً مرحلة واحدة من المراحل التي قسّم إليها الطريق الممتد من بغداد إلى مكة المكرمة كل يوم واستغرقت رحلته إلى مرماه ثلاثة أشهر بعد أن قضى الحج بأداء ناسكه قفل راجعاً قاصداً بغداد فكان البريد يوافيه بالأخبار يوميًّا على الصعيدين البري والجوي عن طريق توفير المتطلبات اللاَّزمة لكل منهما إذ كان البريد البري يستلزم النجائب والبريد الجوي يتطلب الحمام الزاجل[5].

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (بيروت، ١٩٥٨م) ص ص ١٣٠، ١٣٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، (بيروت: ١٩٥٥م)، مج ٢٢، ص ص ٥٢-٥٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٦٦.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، تحقيق، طه محمد الزيني، (بيروت: د.ت)، جـ٢، ص ص ١٦١-١٦٢.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة، جـ٢، ص ص ١٦١-١٦٢.

ولم ينقطع سيل الأخبار الوافدة عليه من السبيلين على السَّواء لذا كان على بينة من كل شيء ودراية بكل حدث، ولم تخف عليه خافية بفضل مهام البريد ورجاله وفي عام (١٩٣ هـ/ ٨٠٨م) حمل البريد خبر وفاة الخليفة هارون الرشيد[١] إلى نجله الأمين وهو في بغداد حينئذٍ[٢].

وفي السنة ذاتها بويع محمد الأمين بن هارون الرشيد، والمأمون وقتئذٍ في مرو، وقد كتب حمويه صاحب البريد بطوس[٣] إلى بغداد يعلن خبر وفاة الرشيد[٤]. وكان المأمون أخوه يكاتبه باستمرار ويحمل إليه البريد الأخبار والمكاتبات[٥].

وحين استقر أمر الخليفة الأمين وقويت شوكته بإسناد من الفضل بن الربيع، ومن معه من الأجناد كتب إلى المأمون يسأله التخلي عن بعض الأعمال في خراسان، كتعيين شخص يتقلد البريد ليوافيه بما ينبغي الاطِّلاع عليه غير أن المأمون امتنع ولم يلب مطلب أخيه[٦].

وأول ما بدأ به الخليفة الأمين من أعمال هو الاعتماد على رأي الفضل ابن الربيع فيما ينبغي فعله ثم كتب إلى جميع العمال في الأمصار جميعها

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٦٤-٣٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢١١.

(٢) ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، (بغداد: ١٩٧٠م)، ص١٣٠. ابن سنبط قنيتو الإربلي، خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سير الملوك، تحقيق، مكي السيد جاسم، (بغداد: ١٩٤٣م)، ص١٧١.

(٣) طوس: وهي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٣٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٢١١-٢١٢، ٢٢١.

(٥) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٢١. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٣٠.

(٦) الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٣٦-٢٣٧.

بالدعاء لابنه (موسى) مع الإبقاء على الدعاء للمأمون والقاسم[1]، ولما بلغ المأمون ما أمر به الخليفة الأمين من عزل أخيه القاسم مما أسند إليه الرشيد، أحسَّ بنواياه المبيَّتة الرامية إلى خلعه، أمر بقطع البريد ثم أسقط اسمه من الطرز والضرب[2].

ثم تواصلت المجافاة بين الأخوين حتى غدت مشاحنات حادة تحولت فيما بعد إلى كارثة أدّت بحياة الخليفة الأمين، ففي عام (١٩٨ هـ/ ٨١٣م) حوصر الأمين من قبل جيش المأمون ثم وقع في الأسر، ونقل إلى دار إبراهيم ابن جعفر البلخي بباب الشام وقد جمع عنصر المصادفة بينه وبين صاحب مظالمه أحمد بن سلام الذي سبق أن أسره الأمين، ولما وقع عليه نظر خليفته وعرفه ناداه يا أحمد ما فعل أخي فأجابه أحمد: إنه حي يرزق، فرد الخليفة الأمين قائلاً: «قبح الله صاحب البريد ما أكذبه لقد كان يقول إنه قد مات»[3].

تشير هذه الرواية بما لا غبار عليه إلى أن البريد كان يلعب دوراً خطيراً في المحاسن والمساوئ على حد السواء، فإن أراد الإساءة والإيقاع بأحد وجد سبيله إلى ذلك ميسراً، وإن أراد خلاف ذلك فإنه لم يكن يعدم المفضية إلى تحقيق ما يصبو إليه.

ولم يكن يقتصر دور البريد على نقل الأخبار والمكاتبات فحسب بل كان يتخذ وسيلة للنجاة في بعض الأحيان كما يتجلى ذلك في رواية تأريخية حصلت عام (٣٣١ هـ/ ٩٤٢م)، تتمثل في هيجان الأمراء على (سيف

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٧٥. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (بغداد: د.ت)، مج ٣، ص٢٣٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٩٧.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٧٥. مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص٣٢٢. ابن كثير، البداية، جـ٩، ص٢٢٤.

(٣) مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص ص ٣٣٩-٣٤٠ ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٢٨٦.

الدولة)[١] الذي ضاقت فيه السبل وقلب النظر في الوسائل المتاحة لإنقاذه فوجد ظالته في البريد وما كان منه إلّا الفرار بواسطته صوب بغداد، وهكذا غدا البريد وسيلة فعالة لنجاة سيف الدولة من الشر المتربص به ولولا وجوده لكان متوقعاً سوء عاقبته[٢].

لقد امتد استعمال البريد في التفنن والإحاطة بالأغراض الخاصة فضلاً عن العامَّة إلى أن بلغ مبلغاً لم يدع حتى النوادر التي تلفت الانتباه الممتزج بشيء من الغرابة، ففي عام (٢٤٧ هـ/ ٨٦١م) ضم مجلس المتوكِّل جمعاً من الندماء[٣] من بينهم البحتري الشاعر، ودار الحديث حول السيوف الفاخرة فقال أحدهم للخليفة المتوكِّل: إن رجلاً بصريًّا يملك سيفاً هنديًّا ليس له نظير[٤]، وعلى الفور أمر المتوكِّل صاحب البريد بالكتابة إلى عامله في البصرة يطلب شراءه ايًّا كان ثمنه، وجاء البريد يحمل خبراً مفاده أن رجلاً من اليمن قد اشتراه، فأمر الخليفة المتوكِّل صاحب البريد بالتَّحرِّي عنه حتى في اليمن وبينما هم جالسون عند المتوكِّل دخل عليهم عبيد الله بن يحيى والسيف معه، هذه الرواية تبرز بلا جدال النشاط البريدي الممتد إلى كل حدب وصوب[٥].

---

(١) سيف الدولة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان، توفي سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م). انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت: ١٩٧٢م) جـ٤، ص٤٠١.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص٤١٥. السيوطي، تاريخ، ص٣٩٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٩٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٨م)، جـ٤، ص١١٩.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، جـ٤، ص١١٩.

## ثانياً: نقل أخبار الدولة ومنشوراتها:

لم يتهاون البريد في أداء أية مهمة تدخل ضمن نطاق اختصاصه بما في ذلك الالتزام بكتم الأسرار على أدق صورة، ففي عام (١٤٤هـ/ ٧٦١م) تتابعت الأخبار على الخليفة أبي جعفر المنصور حول ما فعل زياد بن عبيد الله، فتم توجيه رجل من أهل خراسان من قبل صاحب البريد، ومعه كتاب وقد ألزم بعدم قراءته إلى أن ينزل الأعوص، وحيث بلغ المكان المحدد له قرأه فإذا فيه تولية عبد العزيز بن عبد المطلب بن عبد الله المدينة، وكان قاضياً (لزياد) ثم صودرت ممتلكات المخالفين والمقصرين الذين أُخذوا إلى بغداد بمن فيهم زياد نفسه للمسائلة والمحاسبة بين يدي الخليفة المنصور[1].

لقد توغل البريد عميقاً في الأسرار الخاصة بالعمال والولاة وتولى سير أغوارهم للوقوف على مسلك كل منهم، وما يصدر عنهم من تصرفات ذاتية، قد تترتب عليها الإساءة إلى المكانة الشخصية والوظيفية معاً.

ففي عام (١٨٤هـ/ ٧٧٤م) أمر الخليفة المنصور بتولية رجل على حضرموت فترصَّده البريد ووجده منهمكاً بما يشغله عن أداء وظيفته كما ينبغي، فكتب صاحب البريد إلى الخليفة بخبره بأن الوالي يكثر الخروج طلباً للصيد، ولما علم الخليفة المنصور بأمره عزله بعد أن عاتبه عتاباً شديداً، قائلاً له: «ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، نحن استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك... للنكاية في الوحش»[2] ثم طلب منه تسليم مقاليد الأمور إلى شخص آخر أصلح منه لهذه المكانة. تشهد هذه الحادثة بلا ريب أن المقصِّرين كانوا ينالون جزاء تقصيرهم، وأما الملتزمين فكانوا يحظون

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٥٢٩.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٦٨. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، (القاهرة: ١٩٧٤م)، ج٢، ص٢٧٠.

بنصيبهم من التَّقدير لقاء التزامهم وأن للبريد المكانة الكبيرة في كشف أساليب المقصِّرين[١].

وفي العام نفسه ولي الخليفة المنصور محمد بن عبد الله بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد المطلب البلقاء ثم عزله وصادر ممتلكاته المتضمنة ألفي دينار وبعض الأمتعة الشخصية وتولى صاحب البريد نقل هذه العائدات إلى الجهة التي ينبغي إيداعها فيها[٢].

ولا مفر من الإشارة إلى استمساك الخليفة المهدي بالنهج الذي سار عليه والده في مراقبة الولاة والعمال ومحاسبتهم عند توفر الأدلة على وجود خلل وظيفي ما دام الكلام متصلاً بدور صاحب البريد في الأمصار المختلفة، لأن أصحاب البريد كانوا بمثابة أعين ساهرة تميط اللِّثام وتكشف النقاب عن مواطن الضعف في أداء الوظائف والحصيلة الإجمالية من هذا العرض هي أن الخليفة المهدي قد عزل موسى بن مصعب الخولاني عن الموصل (١٦٧ هـ/ ٧٨٣م) وولاه مصر[٣]. وكان سبب ذلك يعود إلى أن فريق جباية الخراج في الموصل رفع تقريراً إلى الخليفة المهدي أشار إلى نقص فاحش في إحدى الضيعات[٤]، فكتب الخليفة المهدي إلى صاحب البريد يطلب جلب موسى ابن مصعب الخولاني ليمثل بين يديه لتقديم كشف بالأسباب المؤدية إلى ذلك[٥].

وحدثت زمن الخليفة المهدي حادثة أخرى عام (١٦٩ هـ/ ٧٨٥م)، تتجسد بأن الخليفة المهدي طلب هشام الكلبي، ولما حضر بين يديه وجد

---

(١) حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٢٧٠.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٨١.

(٣) م.ن، ج٨، ص١٦٦.

(٤) الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨- ٢٤٩.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ١٧٢-١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

كتاباً عنده فتناوله وقرأ منه قسطاً يسيراً فاستفظع مضمونه أنه من أمير الأندلس، فرد الكلبي أن هذا الرجل غارق في المثالب حتى أذنيه، وأن أبويه نظيراه فيها، وحين استرسل في تعداد تلك المثالب طلب منه الخليفة إملاءها كلها على كاتب السر ففعل وأخذ يذكر المثالب دون أن يدع شيئاً منها وعندما فرغ من استعراضها عرضها على الخليفة، فنالت إعجابه وفازت برضائه فختم الخليفة الكتاب ودفعه إلى صاحب البريد آمراً إياه بالانطلاق صوب الأندلس على جناح السرعة بعد أن أوصاه بكتمان سر ما سمع، وعلى الفور أحضرت له «بغلة ملجَّمة ومسرَّجة لتحمله إلى غايته كما وهبه مكافأة سنية تجسمت في أثواب عديدة من أجود الأنواع فضلاً عن كمية وفيرة من المال يستعين بها على سفره»[١].

يتضح مما سبق ذكره أن البريد لم يكن غافلاً عن أية شاردة أو واردة بل كان يطبق بأذرعه على كل شيء ومن باب الاستدلال على ما نقوله نشير إلى تمكنه من متابعة أية خلل من مبتداه إلى منتهاه في إحدى الضيعات لم يفلت من قبضة صاحب البريد بل أعلم به الخليفة، وبعد التدقيق والتحقيق استقر الرأي على ما آل إليه الأمر إيجابيًّا، وهكذا فإن البريد كان متتبعاً كل الزوايا الخاصة بشخصيات العمال والولاة وغيرهم من القائمين على شؤون الدولة المختلفة وتجلى ذلك في إبلاغ الخليفة بمثالب صاحب الأندلس ولم يقتصر الأمر عليه بل شمل أبويه أيضاً[٢].

عندما كان إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة وهو أخو الخليفة الرشيد والياً على دمشق، اعتزل الناس في دار معاوية بن أبي سفيان هرباً من الصخب والضجيج ثم استدعى كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى صاحب المنزل بعض حوائجه ولم تكن أدوات الكتابة موجودة في تلك الساعة وتطلب

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ١٧٢-١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٧٣. الأزدي، تاريخ، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

الأمرالاستعجال فتناول فحمة وكتب مشيئة الخليفة على خرقة ثم رمى الفحمة فتلقفها سليم الحاجب[1]، وكتب ما يوحي بنوع من التَّهكم، ولفت ذلك انتباه صاحب البريد فقرر إبلاغ الخليفة الرشيد بما جرى، وكتب مضمون ما دار ثم وجهه إلى الخليفة الرشيد للاطِّلاع عليه وبعد أن اطَّلع على فحوى الكتاب قرر عزله عن دمشق وحمَّل صاحب البريد كتاب العزل إليه، وإثر ذلك توجه إبراهيم نحو الرقة حيث تواجد الخليفة الرشيد ولما بلغها حبسه الخليفة مائة يوم، وبعد أن صفح عنه وجهه إلى مكة المكرمة ليحج بالناس سنة (١٨٦ هـ/ ٨٠٢م)[2]، وكان عليه اجتياز طريق يمر بجبل فيه صخرة عظيمة لا مناص من المرور تحتها وكانت تلك الصخرة تنذر بالسقوط بين لحظة وأخرى فاجتازها بأقصى سرعة ممكنة على جواد له مضطرباً. وحين لاحظ صاحب البريد ذلك المسلك كتب إلى الخليفة يطلعه على أمره وما داخله من رعب مفظع وحين اطَّلع الخليفة على الكتاب نعته بالجبن وأمر بعزله عن دمشق وتولية العباس بن محمد بن إبراهيم الإمام وشاءت الأقدار أن تمر تحت الصخرة هذه جماعة من الحجَّاج وبينما هم سائرون سقطت عليهم الصخرة فقتلت خلقاً كثيراً وإبراهيم بن المهدي يؤدي مناسك الحج، فبادر صاحب البريد إلى إخبار الخليفة بما حدث فأبطل أمر العباس واستصوب رأي إبراهيم وكافأه بثلاثين ألف دينار[3].

ويذكر أن صاحب بريد همذان أخبر الخليفة المأمون وهو في خراسان آنذاك، بكون كاتب صاحب البريد المعزول أطلعه على سر يتمثل في أن صاحب البريد المعزول تواطأ مع صاحب الخراج إذ اختلسا مبلغاً قدره مائتا ألف درهم من بيت المال واقتسماه بينهما. وحين تناهى الكتاب إليه،

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه الشيخ عبد القادر بدران، (بيروت: ١٩٧٩م) جـ٢، ص ص ٢٦٦، ٢٧٢.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٧٥.

(٣) ابن عساكر، تهذيب، جـ٢، ص ص ٢٦٦، ٢٧٢.

عقَّب عليه قائلاً ما مضمونه إن قبول السعاية أخطر من السعاية ذاتها لأن السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة فهي دلالة وقبولها إجازة فلو كان الساعي صادقاً كان لئيماً في وشايته لصالحه، وذلك لكونه لم يحفظ حرمة الأخوة ولم يستر عيب أخيه إن هذا التعقيب على السعاية من قبل الخليفة المأمون علامة دالة بمنتهى الجلاء على دماثة خلقه وحسن تباعه وتأصل جذور الشيم في أغوار نفسه وإلا لما عقب بهذا المستوى من المروءة والمرونة[١].

لقد لعب البريد دوراً نشيطاً في تناوله المظهرات وتحري المضمرات للوقوف على الخفايا وإن بان شيء منها أسرع إلى اطّلاع الخليفة عليه تجنباً لما قد ينجم عنه من خطر يزحف نحو الاستفحال والتفاقم.

ومن الشواهد التي يمكن إقامتها على مؤازرة البريد للسلطان وتوطيد أركان سلطته ما جرى في عام (٤٠١هـ/ ١٠١٠م) إذ انتهت إلى السلطان وشاية فأراد الوقوف على البينة التي لا تقبل الطعن وأرسل فارساً إلى (هراة)[٢] وبعد وصوله حطم القفلين اللَّذين كانا على باب الغرفة المرتاب فيها، ودخلها بقصد التفتيش والتحري فلم يجد ما يعزز الوشاية لكن قلبه لم يطمئن فأمر الأمير مسعود محمود بإخلاء القصور والدور كافة بحجة سفرة جماعية إلى أحد البساتين في إحدى المناطق الحصينة القريبة من البلد، وحين أضحت القصور خالية من سكانها جرى تفتيشها زاوية فزاوية من قِبَل قتلع تكين بهشتي والمشرف وصاحب البريد والفارس معهم بيد أن التفتيش لم يتمخَّض عن الهدف الذي أرسل من أجله الفارس وتبين زور ما تناهى إلى السلطان فحرروا محضراً بواقع الحال ثم أعطي الفارس عشرة آلاف درهم فعاد إلى السلطان بالخبر[٣].

---

(١) م.ن، جـ٢، ص ص ٢٦٦، ٢٧٢.

(٢) هراة: مدينة مشهورة من أمهات مدن خراسان، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٥، ص٣٩٦.

(٣) البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة، يحيى الخشاب وصادق نشأت، (بيروت: ١٩٨٢م) =

إن صاحب البريد قد أدى دوره تجاه ما كان مسؤولاً عنه في باب الإخلاص لوظيفته وتكريس الحقيقة بمعزل عن التحريف والتزييف وإبلاغ السلطان بها.

وفي زمن الخليفة المتوكِّل لم يركن البريد إلى السكون والتهاون وإنما استمر على نشاطه بتعريف الخليفة بكل ما يجب الإلمام به من الشؤون ذات الاتصال بالراعي والرعية معاً، وكان أصحاب البريد مهتمين بنقل المعلومات من كل الأمصار الإسلامية إلى الخليفة ومنهم حسين الخادم الطواشي المعروف (بعرق الموت)، الذي كان يتولى إدارة البريد في مصر ثم عاد إلى بغداد واستقر في خدمة المعتمد، ثم ولي بريد مصر رجلاً يدعى يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الخليفة الهادي المعروف بـ(قوصره)، وأسند إليه مهمة تولي البريد من مصر والإسكندرية وبرقة ونواحي المغرب، عام (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)[١].

وتذكر الروايات التأريخية أن البجة امتنعت عن أداء الخراج لبيت المال لسنوات عديدة (متتابعة) فكتب يعقوب صاحب البريد إلى الخليفة المتوكِّل، يقول إن البجة قد نقضت العهد الذي قطعته على نفسها تجاه المسلمين وقتل أهلها عدداً غير يسير من المسلمين الذين كانوا يرومون استخراج معادن الذهب والجوهر على التُّخوم الواقعة بين البجة وبلاد المسلمين، فضلاً عن إطلاقهم سيل من الشتائم والسباب على ذراري المسلمين ونسائهم[٢]، محتجين بأن مكان استخراج هذه المعادن يقع في نطاق حدود بلادهم وسوف لن يأذنوا للمسلمين بدخول منطقتهم لغرض مشاطرتهم في الحصول على هذه المعادن، وقد أحدث هذا الفعل حالة من

---

= ص ص ١٢٩-١٣٠. ابن عساكر، تهذيب، ج٢، ص ص ٢٦٦-٢٦٧.

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٠٣.

(٢) م.ن، ج٩، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

الذعر والهلع بين المسلمين، فانصرفوا عنها خشية أن يلحق بهم وبذراريهم الخطر ويصيبهم الضرر ونجم عن فعل أهل البجة[1] حرمان الخليفة من حق الخمس من المعادن المستخرجة[2].

وأيًّا كان رد فعل الخليفة تجاه عصيان أهل البجة وانقطاع النسبة المتفق عليها من الخراج، فإن صاحب البريد لم يغفل دوره، ولم يركن إلى ما يستشف منه التقاعس، بل قد وافى الخليفة بالأمر بكل تفاصيله والحرية تركت للخليفة فهو أجدر باتخاذ ما يراه صائباً من الإجراءات[3].

إنه لغني عن البيان وشاخص للعيان إذا قلنا إن نشاط أصحاب البريد واكب تسلسل الخلفاء بخطوات حثيثة راسخة تستعصي على التعثُّر والاهتزاز من الخليفة، ارتكب أحد الجنود في مصر ما يوجب القصاص عام (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) وكان يزيد بن عبد الله والياً عليها حينذاكِ، فأحضر الجندي المخالف بين يدي الوالي فضربه عشرة سياط، ونتيجة للألم المبرح الذي ألهب ظهره استحلف (يزيد) بحق الحسنين سبطي الرسول (ﷺ) وهو يستغيث طالباً العفو عنه، وبدلاً من أن تسلك الرحمة إلى قلبه، استشاط غضباً وزاده ثلاثين درة وعندما علم صاحب البريد، بما كان من أمر الجندي رفع تقريراً إلى الخليفة ضمنه التفاصيل المتعلقة بالحادثة وبعد فحص مضمون الكتاب حرر الخليفة كتاباً جواباً على ما تلقاه وأمر فيه بضرب الجندي مئة سوط زيادة على ما أنزله يزيد به من العقاب[4].

فمن الواضح والجلي أن صاحب البريد كان مدركاً في كل حين وآن

---

(١) البجة: قبائل تقع مناطق سكناهم جنوب مصر، أعلنوا عصيانهم من خلافة المتوكِّل على الله. للمزيد من التفاصيل يراجع: الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٠٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ص ٧٧-٧٨.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) م.ن، جـ٩، ص ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) م.ن، جـ٩، ص٢٠٤.

حساسية مسؤوليته ولم يكن يلقي بشيء وراء ظهره بل على النقيض من ذلك، كان يوافي الخليفة بكل ما يقع تحت نظره أو يتناهى إلى سمعه صيانة لما يراه من قدسية الوظيفة وتقديراً للمسؤولية الملقاة على عاتقه[١].

لا ريب في أن أصحاب البريد كانوا دقيقين في تنفيذ واجباتهم البريدية ويستوي لديهم فحص النوايا على الصعيد الإظهار والإضمار دون أن يظلوا في الظل تحت طائلة الإهمال، ففي سنة ٣٠٤هـ- ٩١٤م[٢] كتب صاحب البريد في كرمان[٣] يذكر أن خالد بن محمد الشعراني المعروف بأبي يزيد تولى الخراج زمن الوزير علي بن عيسى فشق عصى الطاعة بمخالفته الخليفة المقتدر مبيتاً النوايا على التمرد وجمع خلقاً كثيراً حوله وأجزل لهم العطاء وأغدق عليهم مالاً غزيراً بغية محاربة بدر الحمامي صاحب فارس، وقد بلغ عدد الملتفين حوله نحواً من عشر آلاف فارس وراجل، وبعد ورود أنباء هذا العصيان على الخليفة عن طريق صاحب البريد كتب إلى بدر الحمامي يطلب منه احتواء الموقف عن طريق إرسال جيش يتولى هذه المهمة[٤].

واستجاب بدر لأمر الخليفة وهيأ جيشاً قديراً جديراً بالنهوض بهذه المسؤولية، وقبل احتدام الموقف وجه (بدر) إلى خالد الشعراني كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة لقاء رفع منزلته وضمان سلامته[٥].

---

(١) الكندي، كتاب الولاة والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن گست، (بيروت: ١٩٠٨م)، ص ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، (القاهرة: ١٩٨٢م)، ص٥٨.

(٣) كرمان: وهي ولاية مشهورة ذات بلاد ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٤.

(٤) عريب بن سعد القرطبي، صلة التاريخ، ص٥٨. مسكويه، تجارب، ج١، ص ص ٣٨-٣٩.

(٥) القرطبي، صلة، ص٥٨.

## ثالثاً: استخدامات البريد العسكرية:

لقد استثمر العباسيون البريد في المجال العسكري استثماراً موفقاً، وعندما عزموا على البطش ببقايا الأمويين، وجه الخليفة أبو العباس موسى ابن كعب في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبد الله بن علي حاملين معهم الأوامر العسكرية والمخطط المرسوم لكيفية إدارة المعركة[(١)].

وكان جيش العباسيين بإمرة المخارق بن غفار، وكانت نتيجة المعركة اندحار المخارق وهزيمة جنده، بعد إلقاء القبض عليه دون أن يُعرَف، فطلب مروان إحضار أحد الأسرى لاستنطاقه للوقوف على نتائج المعركة، والاهتداء إلى معرفة رؤوس القتلى، وما إذا كان المخارق بينهم، فسأله ثانية وهل تعرفه إذا ما رأيته، قال: نعم هل هو ذا المخارق قال نعم فأطلق سراحه، وهو لا يعرف أن الذي كان يتحدث معه هو المخارق عينه[(٢)].

وهكذا بدا دور البريد جلي التأثير فلولاه لكانت الأيدي تكبل بأصفاد العجز، لخفاء كثير من الأسرار التي تتحكم بسير المعارك ورسم نتائجها. فالبريد هو الذي أطلق الأيدي في أسر الجهل بما سيحدث بحكم الافتقار إلى ما ينبغي توفره من المعلومات التي تقرر النتيجة.

وفي عام (١٥٠هـ/ ٧٦٧م) كان معاوية بن عبد الله وزيراً للمهدي مستقرًّا بنيسابور يومئذٍ، وكان خازم ممتعظاً من هذا الوزير لكثرة مخالفاته وعدم تنفيذه الكتب الموجة إليه، فقرّر خازم وضع حد لهذا الذي رآه عبثاً فركب البريد متوجهاً إلى نيسابور لملاقاة الخليفة المهدي وبحضرته. أبو عبيد الله فبادره الخليفة المهدي قائلاً: قل ما بدا لك يا خازم، لكنه امتنع

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٣٢-٤٣٣. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٦٤ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٣٢-٤٣٣. المسعودي، مروج، ج٣، ص ص ٢٧٤، ٢٧٦.

عن الإدلاء بشيء خوفاً من تسرب ما ينطق به إلى من يسؤه القول فتريث قليلاً إلى أن خرج أبو عبيد الله فاختلى بالخليفة وأخبره عن كل مخالفاته بما فيه ذلك عصبية الوزير وتحامله وتعطيل محتوى ما يرد من كتبه عليه وعلى من قبله من القواد مفصلاً عن ما استشرى من مظاهر الفساد المقرونة بقلّة السمع والطاعة[1].

وهذا الحدث يظهر بوضوح ما للبريد من نشاط ملحوظ ودور فعال في التحكم بالشؤون العسكرية، وفي غياب البريد كانت الأسرار تبقى طي الكتمان دون أن تبلغ مسامع المعنيين فتفعل فعلها السيئ في مستقبل الخلافة من الناحية العسكرية وغيرها.

وفي سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٨م) وجه الخليفة الأمين كتاباً إلى أخيه صالح جاء فيه ما مؤداه أوصيت بكر بن المعتمر بما ينبغي تبليغك به، وما عليك إلّا أن تعمل بموجبه بما فيه توزيع الأرزاق والعطايا على عسكرك، فليكن الفضل ابن الربيع متولياً هذه المهمة، ثم أنفذ إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مركبيهما من البريد ولا تتردد في ذلك قيد أنملة وعليك توجيه ما لديك من الأموال والخزائن إلى المعسكر. وليكن الله عوناً لك فيما أنت بصدده[2].

ومن هنا يستدل على أهمية البريد حيث عن طريقه يتم توجيه الأوامر والمخططات وتتمُّ حماية السلطة من الطوارئ التي قد تعرض نسيجها الداخلي للتمزق فالنشاطات البريدية كانت تنزع الصواعق التي تقصف ببنية الخلافة وتهز أركانها وتؤدي بها إلى هاوية السقوط.

وفي عام (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) أمر الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر بالتوجه صوب مصر لمساعدة قواده هناك والتأهب لملاقاة جيش ابن السري[3] ولما اشتبك الجيشان واشتد القتال ترجحت كفة انتصار ابن

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٩.

(٢) م.ن، جـ٨، ص ص ٣٦٩-٣٧٠. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٢٢٢ وما بعدها.

(٣) م.ن، جـ٨، ص٦٠٩ وما بعدها. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٣٩٦.

السريّ على جيش عبد الله بن طاهر، فأسرع قائده[1] بإخبار عبد الله عن طريق البريد والنتائج التي تمخضت عنها المعركة، فاختار عبد الله على جناح السرعة شطر ساحة الوغى لإنقاذ الموقف، وما إن وصل إلى هناك حتى انقضَّ بجيشه على أصحاب ابن السريّ وأطبق عليهم من كل جانب فبدأت تباشير النصر تلوح في الأفق فوهنت قواه لشدّة البأس واليأس، النازل بهم؟ فقدوا صوابهم وأضاعوا رشدهم لهول المعركة وغدوا يتساقطون في الخندق ويموتون[2]، وكان العدد الذي مات نتيجة سقوطه في الخندق أكثر بكثير من العدد الذي قتل بالسيف وحسمت النتيجة لصالح قائد الخليفة المأمون ويعود الفضل كله في ذلك إلى البريد الذي فعل فعله في تبليغ عبد الله بن طاهر بما كان متحققاً في ساحة القتال فلو أهمل البريد الموقف قليلاً لكانت النتيجة وبالاً شديد الأثر على جيش الخليفة المأمون تحت إمرة عبد الله بن طاهر[3].

وفي عام (٢١٩هـ/ ٨٣٤م) سيَّر الخليفة المعتصم قائده عجيف بن عنبسة لحرب الزطّ[4] المستحوذين على طريق البصرة عابثين ومفسدين آخذين غلات البيادر بكسكر وما يليها من البصرة مخيفين عابري السبيل بأعمالهم الطائشة ورتب عجيف الخيل في كل سكة من سكك البريد لتركض بالأخبار تباعاً إلى من يعنيه الأمر، وكانت الأخبار تتابع وترد إليه[5] يوميًا بلا انقطاع، فتمكّن عجيف من رصد مواضع الطائشين وأغلق

---

(١) مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص ص ٣٦٥-٣٦٦. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٦١٠. مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٦١٠. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٤) الزط: وهم قوم من أخلاط الناس، أصلهم من السند. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، نشر وتحقيق، الدكتور صلاح الدين المنجد، (القاهرة: ١٩٥٦م)، ق٢ ص٤٦٢. الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ٨-٩.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ٨-٩. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٤٤٣. كارل =

عليهم الطريق من مختلف الجهات وأطبق عليهم بمنتهى الإحكام ثم أعمل في رقابهم السيوف قاتلاً منهم خمسمائة رجل في معركة واحدة علاوة على أسر عدد كبير منهم لكنه لم يبق عليهم أحياء بل ضرب أعناقهم جميعاً مفرقاً شمل الباقين ثم وزع من بقي في أماكن مختلفة وظل مستوطناً المنطقة مدة سبعة أشهر[(١)].

والنتيجة المستخلصة تتمثّل في عظمة دور البريد الذي أدى مهامه بصورة جلية تجسمت في تبديد معالم القلاقل وتمزيق شمل القائمين بها.

وفي سنة (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) كان الخليفة المعتصم بسامراء بعد بنائه القصر المعروف بالجوسق، جالساً فيه، فجاء كتاب على البريد من ثغر الروم يذكر أن ملك الروم تطرَّق إلى نواحي الإسلام ومد يده إلى بعض القرى، وأنه أسر منها جماعة في جملة الجماعة امرأة هاشمية. وأنها صاحت: «وامتعصماه» فحين قرأ الكتاب نهض من ساعته وعبر إلى الجانب الغربي وأمر العسكر فخرجوا وسار ليلته والعساكر تتلاحق به، وكان مقدمته ايتاخ في أربعين ألف فارس أمره أن لا يركب أحد من عسكره إلّا أبلق لأن ملك الروم لما سمع قول الهاشمية «وامعتصماه» أمر بتقييدها وقال: «نفذي إلى المعتصم حتى يركب الأبلق ويخلصك من يدي[(٢)].» وحين وصل إلى أنقرة خربها وأحرقها... وأخذ ملك الروم أسيراً وطلب منه الهاشمية وأمر بإحضارها على الحالة التي كانت عليها، فأحضرت تحجل

---

= بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، منير البعلبكي (بيروت: ١٩٧٧م)، ص٢٠٨.

(١) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ٨-٩ وما بعدها. مسكويه، تجارب، ط، المثنى، جـ٦، ص٤٧٦. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٤٤٦.

(٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق، الدكتور قاسم السامرائي، (لايدن: ١٩٧٣م)، ص ص ١٠٥-١٠٦.

في قيودها، فحين وقعت عينه عليها قام على قدمه وقال: «لبيك لبيك يا بنت العم أجبت دعوتك في أربعين ألف أبلق»[1].

وفي عام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) حدثت حادثة تمثلت في إقدام أحد ولاة الأفشين وهو منكجور على جمع أموال كثيرة من قرية بابك الخرمي عنوة، واحتفظ بها لنفسه دون إعلام الأفشين والخليفة المعتصم، وكان على البريد رجل يدعى عبد الله بن عبد الرحمن آنئذٍ، فأخبر الخليفة المعتصم، بما حدث ولما تحسس منكجور الخطر القادم كتب إلى الخليفة مكذباً ما دار حوله من أخبار ونتيجة لهذا الأخذ والرد وقعت مناظرة بين المتخاصمين[2] همَّ على أثرها منكجور بقتل عبد الله بن عبد الرحمن فاستغاث الأخير بأهل أردبيل طلباً للنجدة، فمنعوا منكجور من السير بمأربه إلى منتهاه، وما إن بلغ الخليفة المعتصم ذلك حتى وجَّه أحد قواده في عسكر صخم لعزل منكجور، واستمرت مطاردته إلى أن استقر في أحد الحصون المنيعة، ولم يلبث هناك إلّا أقل من شهر حتى وثب عليه مؤيدوه وقبضوا عليه وسلموه إلى الأفشين الذين أرسله مخفوراً إلى سامراء فأمر الخليفة المعتصم بحبسه[3].

يتجلى من سير الحدث أن البريد قد أنجز المهمة على أحسن وجه فأي تقصير من البريد كان يفضي إلى تفاقم الأمر وتعاظم شأنه وكان يتعذر على الخليفة الاحتياط له.

وفي عام (٢٣٤هـ/ ٨٤٨م) كان محمد بن حاتم بن هرثمة والياً على أذربيجان بيد أنه قصَّر في أداء مهامه وبلغ ذلك الخليفة المتوكِّل فأراد تصحيح

---

(١) م.ن، ص ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٠٢. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٥٠٥.

(٣) م.ن، ج٩، ص١٠٢. ابن كثير، البداية، ج٩، ص٢٩٠.

الموقف فعزل الوالي المذكور وأحل محله حمدويه بن علي بن الفضل السعدي متوجهاً من سامراء إلى هناك والبريد قد سبقه بنبأ التغيير[١]، ما إن وصل إلى الجهة التي أرادها حتى جمع الجند والشاكرية[٢] حشداً اقترب من عشرة آلاف رجل غير أنه لم يتحقق ما هو جدير ذكره فعززه بقادة آخرين مثل عمرو بن سيسل وزيرك التركي، وزاد عدد المقاتلين على مائتي ألف فارس وأحاطوا بإحدى المدن الأذربيجانية ذات التحصينات المستحكمة المتمثلة في كثافة الأشجار المحيطة بها فضلاً عن كثرة عيون المياه وكان من الصعب إحداث ثغرات تسهل النفاذ من خلالها لأن عدداً كبيراً من المناجيق المنصوبة حولها للذَّود عن حماها لكن القادة المهاجمين لجؤوا إلى قطع الأشجار ونصب المناجيق المضادة ودنى عدد الأشجار المقطوعة من مائة شجرة، وهكذا تسنى للهجوم الانطلاق نحو الهدف. فقتل من قتل وجرح من جرح وحلت بالطرفين المتحاربين خسائر فادحة، غير أن النتيجة ظلّت دون حسم حاسم، ومما سبقت الإشارة إليه يمكن استنباط نتيجة مفادها أن البريد قد أفرغ شحنات صواعق النوازل بالمنازلة بعد تحجيم مفعولها بالمطاولة وبسط يد الأنجاد لإنجاز ما جدَّ وأجاد فيه وما ظن بما ظن فيه خيراً فلو أن البريد كان معدوماً لما تيسر الاسترسال في إرسال الأنباء إلى الجهات المعنية والعودة بمثيلاتها إلى الخليفة[٣].

واسترشاداً بما نجم عن الأحداث وتمحيصاً للوقائع، يظهر لنا أن البريد كان فعالاً ومعولاً عليه في تسهيل كثير من الشؤون المتصلة بالخلافة والخليفة على السواء.

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٠٢. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٢.

(٢) الشاكرية: فرقة عسكرية من الجيش العباسي مقرها بغداد، للمزيد من التفاصيل انظر: الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص ٢٦١، ٢٨٧، ٣١٨.

(٣) م.ن، ج٩، ص١٦٥.

وفي أيام الخليفة المهتدي رفع صاحب البريد بهمذان[1] عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) تقريراً مطولاً عما ارتكبه موسى بن بغا من أفعال لا تليق بمنصبه ولا يمت بصلة، كإخلال بالثغور وإباحة العدو ومن شاكل ذلك من المخالفات، وحين اطلع الخليفة على التقرير تألم من محتواه[2]، فرفع أكف الضراعة إلى الله، وهو يعلن البراءة من أفعال عامله داعياً لجيش المسلمين بالانتصار راجياً من الله رد كيد الكائدين إلى غورهم وذلك في عام (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)[3].

يبدو ممّا سلف أن البريد كان ينجز ما بذمته من وظائف أدق الإنجاز ويسهر على تنفيذ واجباته بكل ما أوتي من خبرة وإمكانيات مادية ومعنوية.

وفي عام (٣٠٢هـ/ ٩١٤م) قويت شوكة صاحب القيروان فكلف الخليفة المقتدر مؤنس الخادم بالتَّصدي له وانطلق على رأس حملة كبيرة صوب مصر بعد أن كتب إلى أجناده في الشام بالمسير إلى مصر، وتنفيذاً للأمر توجه مؤنس شطر مصر وأقدم الوزير علي بن عيسى على ترتيب الجمازات لنقل الأخبار بالسرعة المستطاعة[4] من وإلى بغداد يوميًّا، وقد حمل البريد إلى الخليفة خبر هزيمة عبيد الله العلوي مع جيشه ففرح المقتدر غاية الفرح بالنتيجة المرضية، وفرق على المحتاجين أموالاً طائلة شكراً لله على نصرة الجيش.

وما هي إلّا أيام حتى جاء الخليفة المقتدر بخبر موت عبيد الله العلوي، وقفل مؤنس عائداً إلى بغداد بعد تحقيق المراد[5].

---

(١) همذان: أكبر مدينة بالجبال، ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٤١٠.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص٤٠٨ وما بعدها. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص٤٠٨. المسعودي، مروج، جـ٤، ص١٨٥.

(٤) عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٧٧م)، ص٥٢. ابن خلدون، مج ٣، ص٣٩٢.

(٥) م.ن، ص٥٢.

وهكذا فإن دور البريد كان عظيم الأثر فبدونه لم تكن الأخبار سهلة التناول ويسيرة التداول، بل كانت تظل مكتومة ويصعب على الجميع عندئذٍ الإحاطة بها والتصرف حسب مقتضيات الظروف والأحوال لتلافي خطر الأحداث.

وفي عام (٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) خرج أبو عبد الله البريدي إلى واسط وكتب إلى بجكم يحثه على التوجه نحو الجبل بهدف الاستيلاء على المنطقة ثم طرد عماد الدولة ابن بويه من الأحواز، وكان الهدف الرئيسي هو إبعاده عن بغداد (مدينة السلام) للسيطرة عليها(١).

وتمكن صاحب البريد من نقل أخباره إلى عماد الدولة ليأخذ حذره، إلّا أن بجكم عثر على رسالة صاحب البريد وقتله. ولولا ذلك لتكشفت الأمور لعماد الدولة. كان للبريد مواقف إيجابية وأهمية كبيرة على المستوى السياسي والعسكري(٢).

## رابعاً: استخدامات عامَّة أخرى:

ويستدل مما سبق أن البريد كان مستوظفاً بأنجع ما يكون عليه التوظيف، في نقل ما يرد عن المعارضة من أخبار وأسرار ونوايا وخفايا قد تكون مستغلقة على غير العاملين في مجال البريد.

والأدلة تتوالى على صحة ذلك منها ما رواه الطبري: ذاكراً عن أحمد ابن ثابت أنه سمع قريشيًّا يقول إن الخليفة أبي جعفر المنصور قد توجه من بغداد إلى الكوفة، وبينما هو سائر نحو بغيته، جاءه البريد بخروج محمد بن عبد الله عليه في المدينة المنورة عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، معارضاً للسلطة

---

(١) مسكويه، تجارب، جـ١، ص٤١١، ٤١٣. ابن كثير، البداية، جـ١١، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٢) مسكويه، م.ن، جـ١، ص ص ٤١١، ٤١٣. ابن كثير، م.ن، جـ١١، ص ص ١٩١-١٩٢.

العباسية ومطالباً بالخلافة التي كان يراها حقًّا من حقوق أهل بيته، فقال أحد أصحابه ويدعى عثمان بن عمارة أظن أن محمداً خائباً وكذلك حالة من معه من أهل بيته[١]، وهذه الرواية علامة دالة بلا جدال عن مواكبة سير البريد للأحداث وإبلاغ إفرازاتها إلى الخليفة عن طريق رفع التقارير إليه، يبلغه فيها بأنشطة المعارضة وتوجهات المعارضين[٢].

وفي ذات السنة (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) التي خرج منها محمد بن عبد الله[٣] على الخليفة المنصور في المدينة المنورة، اختفى أخوه إبراهيم عن الأنظار لنفس السبب الوارد ذكره عند التحدث عن نشاط أخيه، خشية الرصد وكان معه رجل يدعى السفيان الأعمى الذي دخل على الربيع الحاجب، يستأذن الدخول على المنصور، فحقق بغيته لما رآه الخليفة المنصور شتمه، فقال سفيان: يا أمير المؤمنين أنا أهل لما تقول، إلّا أني أتيتك تائباً ولك عندي ما تحب. قال وما لي عندك. قال سآتيك بإبراهيم وهو في البيت، فقال الخليفة: أين إبراهيم فردّ عليه أنه دخل بغداد أو هو داخلها قريباً، فزوده بجواز ومعه غلام وفرنق[٤]، وكلف صاحب البريد نقلهم إلى الوجهة المنشودة، وعززه بجمع من الجند مع مبلغ من المال، وسار بالركب بصحبة البريد، حتى بلغ المكان الذي توارى فيه إبراهيم فوجده وصرخ به قم مريداً بذلك تنفيذ الخطة، فانطلق موكبهما حتى وصل المدائن، فاعترضهما صاحب القنطرة، وبعد دفع

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٦٢١. ابن واصل الحموي، تجريد الأغاني، تحقيق، طه حسين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة: ١٩٥٧م) ق١، جـ١، ص٦٠١.عبد الكريم الأشتر، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، (دمشق: ١٩٦٤م)، ص٤٩.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٥٦٥. الذهبي، العبر، ص ص ١٩٨، ٢٠٠.

(٣) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، انظر: الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق الدكتور ناجي حسن، (القاهرة: ١٩٨٦م)، ص٢٣٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (بيروت: ١٩٦٠م)، جـ٢، ص٣٧٦. الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٦٢٤-٦٢٥. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٥٦١.

الجواز إليه سأل أين الغلام المثبت اسمه في الجواز ثم قال: لا ريب في أن الذي معك هو غلام إبراهيم لكنه أطلقهما فهربا راكبين البريد وبعد قطع مسافة متجهين صوب البصرة، وبعد بلوغهما مأربهما اختفيا هناك[1].

مما سبق ذكره نستخلص أن البريد كان ينتفع به لصالح الخليفة أحياناً، ولصالح خصمه أحياناً أخرى، إذ ساعد تصرف الخليفة على تيسير هرب إبراهيم، الذي استغل جواز الخليفة للإفلات من قبضة الخليفة ذاته.

لقد كان النشاط البريدي المتربِّص بالمعارضة لالتقاط أخبارها متواصلاً على قدم وساق دونما هوادة أو استكانة، فحين تعاظم شأن (محمد بن عبد الله) في الحجاز، ووصول إبراهيم أخيه إلى البصرة، أحسَّ الخليفة المنصور بالخطر الداهم على سلطة الخلافة العباسية، ومن المعروف أن الخليفة المنصور لم يكن يتعلق بأهداف الانكسار، بل أبى أن يأتي يوم يترنح فيه تحت وطأة الضعف المسرف في العجز عن الاقتدار، فبادر إلى استشارة شيخ ذي رأي من أهل الشام، فأشار عليه بتوجيه أربعة آلاف جندي شامي لتدارك الموقف المستجد، وبعد ذلك أقدم المنصور على تكليف عامل عليها، طالباً أن يحمل كل يوم عشرة على البريد، للالتفاف على الأحداث قبل استفحالها، ولما ظهر إبراهيم بالبصرة وجاء البريد إلى أخيه (محمد بن عبد الله) وانتهى إليه ليلاً، وهو في دار (مروان) وعندما تسلم بريد أخيه، استبشر هو ومن معه غاية الاستبشار[2]، وفرحوا فرحاً شديداً، وهنا يمكن الاستدلال على أن البريد كان وسيلة من وسائل الاتصال بين أقطاب المعارضة. غير أن بريد المعارضة غير معلن النشاط لشحة الفرص، وإنما كان كالجرعات الطبية المقننة، لا يمكن العمل بالضد منها خشية وقوع الأسرار بأيدي أنصار الخليفة[3].

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٦٢٩. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٥٦٥. ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٨٧.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٥٦٥. ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٨٧.

ومن الأنشطة البريدية التي تعد بمثابة المصل الواقي ضد يرقات شرّ المعارضة، ما يروى عن الوضاح بن حبيب الذي قال: سرنا إلى المهدي ذات يوم، ولما دنوت أخذت مجلسي بالقرب منه، دسّ في يدي ورقة صغيرة تسترة الكف، وحين خرجت فتحت الورقة، وإذا فيها يا وضاح اكشف لي نوايا جمهور القرمطي، ففعلت ما كلفني به الخليفة المهدي. وكانت النتيجة صدق ظن الخليفة فيه، إذ كان القرمطي يضمر الشر للخليفة، ولما تبيّن لوضاح صواب ما ذهب إليه المهدي، كتب إليه يعلمه عن طريق صاحب البريد بما جرى بينهما[١].

وقد أشارت المصادر التأريخية إلى أن البريد الحكومي، كان يستخدم أيضاً لنقل بعض الأخبار الخاصة عن الرجال لأهلهم وذويهم ليطمئنوا عليهم. ويذكر منها أن الخليفة المنصور أمر صاحب البريد بإرسال رسالة إلى أهل رجل من خارج بغداد استدعي للقضاء بعد أن ثبت صدق دعواه[٢].

لقد ظلّ البريد يواكب مواكب الأحداث ويرفع التقارير عن سيرها أولاً بأول، وعندما أفلت إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[٣] عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م)[٤] من الوقوع في الشرك في موقعة فخ[٥] أتى مصر وعلى البريد. واضح مولى صالح بن المنصور حينئذٍ، وكان مشايعاً

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، (القاهرة: ١٩٧٣م)، مج ٢، جـ٢، ص ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٢) تقي الدين أبي بكر الحموي، ثمارات الأوراق، صححه: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٧١م)، ص ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص٤٩.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ١٩٢-١٩٣.

(٥) موقعة فخ. كان أبو عبد الله الحسن بن علي بن حسن بن علي بن أبي طالب. خرج عام ١٦٩هـ يدعو الخلافة وخرج إلى مكة، انظر، ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٣٨.

لعلي ﷺ، أنفذه واضح بإرساله بمعية البريد إلى المغرب واستقرّ في مدينة تسمى ولهلة بأرض طنجة[١]، وما إن وطأت قدماه أرضها حتى استجاب له من بها من البربر، وحين نبأ تواتر صاحب البريد طريقه إلى مسمع الخليفة الهادي، استقدمه وضرب عنقه، ثم صلبه عبرة لمن اعتبر[٢].

كان البريد يستخدم لنقل الأخبار السرِّية للغاية، وهو أيضاً يحافظ على أسرار الخليفة والدولة مما كان لا يعلمه أحد إلّا من أراد الخليفة أن يعلمه به[٣].

وقد أشار المؤرخون إلى أن البريد وسريته لعب دوراً مهماً في السيطرة على تحركات البرامكة، وكان له الدور المهم في القضاء عليهم[٤].

ومن النشاطات البريدية المضافة إلى ما تم سرده أثناء تناول البحث، ما جرى أيام الخليفة الرشيد بخصوص بعض المعارضين الذين كان الخليفة يجدُّ في طلبهم، بكل السبل الممكنة[٥].

وقد تمَّ عن طريق البريد في عهد الخليفة الرشيد إلقاء القبض على المناوئين والخارجين على الدولة، حيث تمكن صاحب بريد أصفهان، بما أوتي من مقدرة ودهاء من إلقاء القبض على علي بن عبد الله العلوي والذي كان مطلوباً من قبل العباسيين[٦].

---

(١) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص٤٣.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٩٨. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٧٦. الصابي، الهفوات النادرة، تحقيق، د. صالح الأشتر، (دمشق: ١٩٦٧م)، ص ص ١٩٢-١٩٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٩٧-٢٩٨. الأصبهاني، مقاتل، ص ص ٤١٢-٤١٣.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٤٢٣. الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٩٨. بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي في العصر العباسي الأول، (بيروت: ١٩٨٨م)، جـ٣، ص٥١٧.

(٥) بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي في العصر العباسي الأول، جـ٣، ص٥١٧.

(٦) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٤٢٣. الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٩٨. الأصفهاني مقاتل، =

ولما همَّ موسى بن جعفر (موسى الكاظم) بالاستعداد لأداء فريضة الحج عام (١٨٣هـ/ ٧٩٩م) طمعاً في تحقيق هدفين على الأرجح هما تنفيذ الفريضة، والخلاص من قبضة العباسيين في آن واحد[١]، وصَّل صاحب البريد خبره للخليفة الرشيد وأسبلوا على فعله هالة من الضخامة والجسامة من الناحية الأمنية، قائلين إن الناس يحملون إلى موسى بن جعفر خمس أموالهم ويعتقدون بإمامته وإنه على عزم الخروج عليك مستغلًّا هذه الأموال لإنفاقها على التخطيط لقلب نظام الحكم وإعادة السلطة إلى العلويين، فأقلق بال الخليفة إلى حد بلغ أقصى مداه، فلجأ إلى رصد مكافآت مالية سخية للعاملين في الأجهزة المكلفة بحماية أمن السلطة، كالشرطة والحرس وبمعاونة صاحب البريد، فنشط هؤلاء للإسراع في إلقاء القبض عليه[٢]، وهو متوجه شطر البيت الحرام عام (١٨٣هـ/ ٧٩٩م)، وتمَّ تسليمه إلى الخليفة الرشيد في بغداد، وتخلَّص من أحد أبرز قادة العلويين الذي كان رجاءهم الأكبر في استعادة السلطة من خصومهم العباسيين[٣].

وكان البريد يمارس نشاطه الفعّال، وهو يتتبع أمر المعارضين في مختلف الأصقاع، وإليه يعود الفضل في نقل الأخبار إلى الخليفة عن كثب ليتصرف وفق ما يراه مناسباً لكل حال على حدة[٤].

---

= ص ص ٤١٢-٤١٣. أحمد بن يحيى المرتضى، كتاب طبقات المعتزلة، تحقيق، سوسنة ديفلذ، فليزر، (بيروت: ١٩٦١م)، ص٥٢.

(١) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٤-٥٠٥. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص١٦٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة: ١٩٢٩- ١٩٧٢م)، جـ٢، ص٧٢.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٤-٥٠٥. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص١٦٤.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٤١٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص١٧٨. الشيخ عبد الرزاق المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (القاهرة: ١٩٣٨م) ص ص ١٧١-١٧٢. عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٤٥م)، ص١٤٢.

(٤) أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص٩٢-٩٣.

وفي عام (١٨٧هـ/ ٨٠٢م) حدثت حادثة هامة، لكن الخليفة الرشيد تصدَّى لما يمكن أن ينجم من تداعيات خطيرة مقوضة للأركان ملخصها[١]، إن عبد الله بن مالك الخزاعي كان جالساً على باب داره، وإذا بمولى له أقبل عليه، وأفضى إليه سر قتل جعفر بن يحيى البرمكي، فتوجَّس في نفسه خيفة على عدم صحة النبأ الذي كان من شأنه إنزال العقوبة به[٢]، إن تعامل معه بصورة تحتمل التأويل الذي يحمل على غير ما يرام في حالة ثبوت كذبه، فانقض على مولاه وضربه ثلثمائة مقرع في سجن، وبعد ذلك صعد إلى سطح المنزل مرتقباً ما يحدث وهو على أتم الحذر واليقظة، وإذا به يسمع صلصلة جرس دواب البريد وعندما دنا منه صاحب البريد، ناوله كتاباً يتضمن قتل جعفر من قبل الخليفة الرشيد، وإنزال العقوبة بالبرامكة[٣].

لقد عصفت العاصفة برأس معارض آخر هو علي بن عيسى عام (١٩٥هـ/ ٨١٠م) إذ يروي ذو الرياستين أنهم وجهوا جيشاً مدجَّجاً بالسلاح بقيادة هرثمة بن أعين قال للمأمون: لا تبرح حتى يسلم عليك بالخلافة، وأخذ هو المبادرة بالسلام عليه بالخلافة ومعه هرثمة والحسن بن سهل إضافة إلى شيعة المأمون، وبعد ذلك أقبل صاحب البريد عبد الرحمن بن مدرك عليهم من بغداد، وبعد دخوله سكت قليلاً، فقيل له: ويحك ما وراءك، قال هذا كتاب طاهر بن الحسين وعندما نظروا فيه وجدوا طاهر يقول: إن رأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في إصبعي، فانطلق من فوره ليبشر المأمون بمضمون الكتاب، فأمر المأمون بإحضار القواد

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٩٣-٣٩٥.

(٢) المسعودي، مروج، جـ٣، ص ص ٣٥٦-٣٥٧. التَّنوخي، الفرج عبد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، (بيروت: ١٩٧٨م)، جـ٣، ص ص ١٢٧-١٢٨. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص١٨٧.

(٣) المسعودي، مروج، جـ٣، ص ص ٣٥٦-٣٥٧. التَّنوخي، الفرج، جـ٣، ص ص ١٢٧-١٢٨.

ووجوه الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة، وما هي إلا أيام حتى وصل رأس المعارض، علي بن عيسى إلى خراسان[١].

وهنا تقوم شهادة أخرى تضاف إلى الشهادات السابقة التي تثبت دور البريد في أداء مهامه، فلو كان وجود البريد منتفياً لبقيت الأسرار جميعها أسيرة الكتمان ولصعبت على الخلفاء مواجهة الأخطار التي تفضي بالضرورة إلى وقوعهم في دوامات العنف المتواصل من غير القدرة على تحريك ساكن أو اتخاذ أي إجراء تترتب عليه سلامتهم ودوام ملكهم.

وبسبب البريد وما كان منه من تقديم الأخبار الصحيحة ونقله للرجال إلى العاصمة لأجل التحقيق معهم، أنقذ العالم الجليل ذا نون المصري[٢]، حيث نقله البريد إلى الخليفة المتوكِّل لأجل التحقيق معه وثبتت براءته وأطلق سراحه[٣].

إضافة إلى ما سلف ذكره، فقد روت إحدى الروايات التأريخية أيام الخليفة المعتز[٤] وقالت: إن محمد بن الأشعث الخزاعي صاحب بريد ديار مضر، أعلم الخليفة المعتز عن طريق البريد يذكر سوء مذهب صفوان المنطوي على المعصية في رأيه فوجه إليه الخليفة بسيما الصعلوك لإحضاره للتأكد من صدق الخبر بنفسه تجنباً للوقوع في الشبهات[٥].

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٩٣-٣٩٥.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٥٠. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (حيدر أباد الدكن: ١٩٣١م)، مج ١، ج٢، ص١٠٨.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص ٢٦٦-٢٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ص ٣١٤، ٣١٦.

(٤) المعتز، هو أبو عبد الله، الزبير بن المتوكِّل وأمه أم ولد رومية تسمى قبيحة، بويع له سنة إحدى وخمسين ومائتين، وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين. انظر: العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٢٨، ١٣٢.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٥٠١.

لا يستغرب أحد إذا قيل إن اليد تستمد قوتها من الساعد والبنان، والبريد لم يقل دوره عن دور هذين العضدين المؤازرين لليد القوية، فلقد تمكّن البريد من السير المتواصل نحو المنشود من المصير ألا وهو القيام بأداء المهام منذ نشأته، وتناولت هذه المهام مختلف الشؤون بما فيها نقل أخبار الشؤون العامَّة، من ذلك ما ذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى قائلاً: كان ولاة البريد في الآفاق بأجمعها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته بكل ما يصدر عن الناس من أعمال تجارية أو غيرها، وعوامل التقلبات والاستقرار في أسعار السلع والبضائع مضافاً إلى ذلك ما يقضي به القضاة من أحكام أو قرارات[1]، وعند ورود الكتب على الخليفة من قبل أصحاب البريد يجلس لدراستها بعد فحص مضامينها، فما وافق الارتفاع بمستوى الخدمات للناس أجازه، وما كان مناقضاً للهدف المنشود أمسك عنه واستعاض بما هو أصلح وأنفع وأكثر تحقيقاً للخدمات المطلوبة[2].

ومن الأخبار العامَّة الأخرى التي رفعت إلى الخليفة المتوكِّل للوقوف عليها ما ذكره صاحب البريد المعروف بابن الكلبي في بغداد عام (٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، عما حدث لجنازة أحمد بن نصر الخزاعي من اجتماع الناس حول الجنازة والتمسُّح بها تبركاً وإجلالاً، إذ رفع صاحب البريد تقريراً حول ما جرى إلى الخليفة المتوكِّل، وبعد تسلّم التقرير أحسَّ بالسخط والغضب وثارت ثائرته بسبب هذه الفعلة التي لم ترق له. فقال للقاضي يحيى بن أكثم كيف دخل ابن الأبزاري القبر كبرة خزاعة[3]، فرد القاضي قائلاً: إنه كان صديقاً حميماً له، وعلى ضوء ما سمع الخليفة من القاضي الزم محمد بن

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٩٦. حسن إبراهيم، النظم، ص٢٥٦.

(٢) عبد الرحمن سنبط الأربلي، خلاصة، ص ص ٦١-٦٢.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ١٩٠-١٩١. الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة بغداد، (بيروت: د.ت)، جـ٥، ص ص ١٧٣، ١٧٥. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، جـ٣، ص٢٧٢.

عبد الله بن طاهر بمنع العامَّة من الاجتماع والحركة في مثل هذه الحالات[1].

يستشف من إقدام الخليفة على منع حدوث مثل تلك التظاهرات، أنه كان يخشى أن تتحول التجمعات إلى مسيرات ضاغطة على الوضع الأمني العام والإخلال به، وهذا ما لم يكن يرضي الخلفاء لأنهم كانوا تواقين دائماً إلى الاستقرار والطمأنينة، وعدم توفير الفرصة لانفلات الوضع الأمني إذا اختل سيفضي بالضرورة إلى المعاناة المضنية للعودة به إلى عدم الاستقرار.

وما دمنا في معرض سياق إيراد البريد لأخبار العامَّة، نورد رواية تأريخية مفادها أن عيسى بن جعفر صاحب الخانات، قد شتم (أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة) وشهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسان الزيادي عام (٢٤١هـ/ ٨٥٥م) وما كان من صاحب البريد في بغداد إلّا أن أسرع إلى إعلام الخليفة بهذا الحدث[2]، وبعد أن اطلع على فحوى الكتاب أمر محمد بن عبد الله بضرب عيسى بن جعفر بالسياط وإن مات رمي في نهر دجلة فجاؤوا بعيسى لإقامة حد الشتم عليه على أن يشهد إقامة الحد جمع من الناس ليعتبروا بتأثير المشهد ثم ضرب خمسمائة سوط فضلاً عن الحد للأمور العظام التي اجترأ عليها[3].

وهنا يمكن القول إن أصحاب البريد وفوا كل شيء حقه من العناية وما تركوا صغيرة ولا كبيرة إلّا تناولوها بالتحقيق، وإذا ثبت صوابها رفعوا بها إلى الخليفة للبت فيها، وإن لم تكن كذلك أحجموا عن ذكرها له.

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص ١٩٠-١٩١. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٥، ص ص ١٧٣، ١٧٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٩.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص ٢٠٠-٢٠١. الخطيب، تاريخ، ج٥، ص ص ١٧٤، ١٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٩.

ويذكر الصولي في رواية تأريخية مفادها «ورد لعشر خلون من المحرم عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٧م) رجل يعرف بالخلنجي، كان يحمل الخريطة إلى مكة ويسبق بالأخبار فأخبر بسلامة الناس وتمام الحج»[١].

إن تطوّر البريد وتشعُّب وظائفه لم يفقه لغة السكون، بل كان أصحاب البريد المتأهبين للتعامل مع كل ما يستجد من شؤونه ليوفروا مستلزمات التعامل معها، كي تركن السلطة إلى الأمان والاستقرار وهناء البال. وعدم تذبذب الأحوال، فطفقوا يرصدون قدراً لا يستهان به من الاهتمام بالأحداث الطبيعية والحوادث الطارئة، وعندما يقفون على أي حدث بتمام تفاصيله يسرعون إلى إبلاغ الخليفة به ومما يدل على ذلك ما رفعه صاحب البريد إلى الخليفة المعتصم بصدد توالي الأمطار وغزارتها في البصرة، ليكون على بيِّنة من مردوداتها، واتخاذ الإجراءات الضرورية التي تتطلب الاحتياط والتحوط، فإن كانت النتيجة خيراً نالت الخلافة نصيبها وإن كان غير ذلك هبّت لدرء مخاطرها[٢].

وليس غريباً إذا قلنا إن البريد قد استوفى جل الأغراض الحيوية، وإن لم ينقلها كلها كي لا يأتي حدث يجلد بالسياط جفون التقاعس الذي يترتب عليه ما لا تحمد عقباه.

وهناك حادثة تأريخية نوردها على ما فيها من غرابة تحتاج إلى إعمال النظر للدلالة على اهتمام البريد وأصحابه بكل صغيرة وكبيرة تحدث في أرجاء الخلافة وإعلام الخليفة بها، كي يكون على علم بكل ما هو سرّ أو أعلن بصرف النظر عن درجة الرفعة والضعة، ويتلخص مضمون تلك الرواية الموضوعة أن طائراً غريباً أبيض اللون حط في إحدى مناطق حلب لسبع من

(١) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي من كتاب الأوراق، عني بنشره، ج هيورث، د.ن، (بيروت: ١٩٧٩م)، ص٨٢.

(٢) الصابي، الهفوات، ص ص ٢٥٨-٢٥٩.

رمضان، وشرع يصيح يا معشر الناس اتقوا الله الله الله[1] وكرر ذلك أربعين مرة أيضاً. وما كان من صاحب البريد إلى أن هبّ لتدوين هذه الحادثة الغريبة في نمطها مشهداً عليها، خمسمائة شاهد سمعوا صوته بأنفسهم، ثم أرسل كتاباً بما حدث إلى الخليفة المتوكِّل عام (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م)، ومع أن علم الخليفة بهذه الحادثة لا يسمن ولا يغني من جوع شيئاً إلّا أن صاحب البريد أطلع الخليفة عليه، كي لا يدع لأي مأخذ يأخذ سبيله إليه ويترك شيئاً عليه[2].

ومن الحوادث الطبيعية غير ذات القيمة الكبيرة، مع ما فيها من طرافة حادثة لا تستحق الذكر، ومع ذلك رفع صاحب البريد بالدينور[3] تقريراً إلى الخليفة المقتدر عام (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، يذكر فيه أن بغلة (أبي بردة من أصحاب أحمد علي المري) قد وضعت فِلوة تامة الأعضاء، ولكنها منسلخة الذنب، فهذه الحادثة مع انتفاء قيمتها وِعدم أهميتها، برغم بعض ما فيها من طرافة، لم تفلت من التدوين، فقد سارع صاحب البريد إلى إبلاغ الخليفة منطلقاً من الكفاءة والجدارة اللازمتين، لمن تناط به المسؤولية في أي حقل من الحقول بما في ذلك البريد[4].

كان البريد أيضاً ينقل أخبار الشعر والشعراء ومجالس الشعراء، وما كان الولاة ينفقونه لأجل ذلك.

ففي عام (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) قدم الشاعر المؤمل بن أميل على المهدي في الري، وكان وليًّا للعهد آنئذٍ، وأنشد قصيدة زاخرة بالإطراء والثناء بين يديه فأمر له بعشرين ألف درهم، وحين نمى الخبر إلى مسمع صاحب البريد أسرع بالكتابة إلى الخليفة يخبره بما جرى، وسخط الخليفة المنصور سخطاً

---

(١) السيوطي، تاريخ، ص٣٤٨. الحنبلي، شذرات، مج ١، جـ٢، ص١٠٠.

(٢) السيوطي، تاريخ، ص٣٤٨. الحنبلي، شذرات، مج ١، جـ٢، ص١٠٠.

(٣) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير، ومن الدينور إلى شهرزور أبع مراحل. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٤٩٤.

(٤) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ص٤٢. ابن الجوزي، المنتظم، جـ٦، ص١١٥.

شديداً على ما انتهى إليه من خبر الشاعر[1]، فكتب إلى المهدي يلومه ويقول: كان عليك أن لا تعطي الشاعر أكثر من أربعة آلاف درهم بعد إقامته ببابك سنة كاملة، ثم طلب منه إرسال الشاعر، وأنشأ كاتب المهدي يبحث عنه، لكنه لم يظفر به لتوجهه نحو مدينة السلام[2]، فاضطر إلى إعلام الخليفة بعدم وجود الشاعر في نطاق منطقته، ولما علم الخليفة المنصور بذلك أمر أحد قواده بالترصُّد له على جسر النهروان وأخذ هذا القائد يتفحص الناس فرداً فرداً للظفر به وتمكَّن من إلقاء القبض عليه وإحضاره إلى الخليفة، وحين مثل بين يديه قال الخليفة المنصور، إن هذا الشعر لا يساوي هذا المبلغ فاسترجع منه المبلغ ودفع له مبلغ أربعة آلاف درهم[3].

تشير هذه الرواية بجلاء إلى أهمية دور صاحب البريد الذي لم يخف الخبر عن الخليفة، واستطاع استرداد المبلغ الذي كان يذهب سداً لو ترك الشاعر وشأنه.

ومن البديهيات المسلَّم بها، هي أن البريد قد لعب دوره حتى في استدعاء الأدباء والشعراء واستقدامهم، إن رغب أي خليفة في ذلك، مثلما حدث للأصمعي[4] إبان حكم الخليفة الرشيد، وهذا دليل قاطع على أن البريد كان فعالاً في أداء كل ما يسند إليه من مهام صغيرة أو كبيرة[5].

هذا ما كان من شأن البريد مع الشعر والشعراء، وأما بالقياس إلى غيره

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٧٣-٧٤. الأصفهاني، الأغاني، مج ٢٢، ص٢٥٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (بيروت: ١٩٣٦م)، مج ١٠، ج١٩، ص٢٠١، ٢٠٤.

(٣) سبط الأربلي، خلاصة، ص٦٢. الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان (القاهرة: ١٩١٥م)، ص ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) القفطي، أبناء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: ١٩٥٠م)، ج٢، ص١٩٩. الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق، إبراهيم السامرائي (بغداد: ١٩٧٠م)، ص٩٣.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، مج١٦، ص١٩٩. الحموي، تجريد الأغاني، ق٢، ج١، ص١٧٣٦.

من الشؤون فإن البريد لم يبخل بجهد إلّا وقد كرسه لخدمة الخلفاء بما في ذلك الدعاء لهم، أو الامتناع عنه على المنابر أيام الجمع، ومن الضروري إيراد حادثة تظهر ما ذهبنا إليه في هذا السياق.

في عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) كان كلثوم بن ثابت بن أبي مسعدة على بريد خراسان وأثناء ولاية طاهر بن الحسين حضر ذات يوم صلاة الجمعة التي كان يؤم فيها طاهر بن الحسين المسلمين، فصعد طاهر المنبر، فخطب ولما بلغ ذكر الخليفة امتنع عن الدعاء له، بعد أن دعا للمسلمين بإصلاح الحال والبال(١)، فدبّ الهلع في قلب صاحب البريد خشية وصول الخبر إلى الخليفة، وظنّ أنه أوّل الموتى إن أخفى الأمر على الخليفة فانصرف من فوره واغتسل بغسل الموتى(٢) استعداداً لما ظن أنه مسوق لمصير محتوم، وبعد الاتزار بإزار الميت وطرح السواد، كتب إلى الخليفة المأمون، وبعد صلاة العصر استدعاه الخليفة المأمون، وقد خدَّ طاهر ميتاً لفداحة هول تصرفه، وخرج طلحة بعد أن رأى المنون، وقد أنشب أظفاره في أحشاء والده قائلاً: ردوه، فسأل الخليفة المأمون صاحب البريد، هل كتبت ما حدث أجاب نعم، فقال الخليفة إذن اكتب بوفاته، ففعل ما أمر به، ثم ولى طلحة بن طاهر ولاية خراسان في أعقاب رحيل والده، بسبب الذعر الذي أصابه(٣).

وهذه الحادثة إن دلّت على شيء فإنما تدل على طول باع أصحاب البريد في إدارة وظيفتهم بصورة موفقة، والدليل على صاحب البريد في أداء عمله بأجلى صور الإخلاص للخليفة من ناحية والخشية مما يترتب على الإهمال من سوء العاقبة من ناحية أخرى، وبناء على السببين السالف ذكرهما آنفاً، يمكن القول أن أصحاب البريد كانوا دقيقين في تسيير شؤون البريد وتيسير السبل أمام الأنباء التي ينبغي أن تأخذ طريقها إلى الخليفة.

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٥٩٤-٥٩٥. ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص٥٢٢.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٥٩٤.

(٣) ابن طيفور، تاريخ، ص٧٤.الأصفهاني، الأغاني، مج ١٥، ص١٨٥.

# الفصل الثالث

## صاحب الخبر واجباته وأنواعها

أولاً : التّعريف بصاحب الخبر

ثانياً : أقسام صاحب الخبر

أ - صاحب خبر الوزير

ب - صاحب خبر الوالي

ج - صاحب خبر صاحب الشرطة وقائد الجند

ثالثاً : أنواع ومهام صاحب الخبر

أ - صاحب الخبر على الوزراء والخاصّة

ب - صاحب الخبر على الولاة والقضاة

ج - صاحب الخبر على العسكر وصاحب الجسر

د - صاحب الخبر على الفقهاء والعلماء

هـ - صاحب الخبر على الشعراء والمعارضة والسّجون

# الفصل الثالث

## صاحب الخبر واجباته وأنواعها

### أولاً: تعريف صاحب الخبر:

هو رجل موثوق تناط به مهمة رفع جميع الأخبار إلى الخليفة خاصة تلك التي يرى وصولها أمراً تفرضه المصلحة العامَّة والخاصة على السَّواء، وهو بمثابة العين الباصرة والأذن السامعة للخليفة(١).

وهو يتولى وظيفة حساسة أولاها الخلفاء العباسيون بالغ الرعاية وأفردوا لها اهتماماً متميزاً، معتمدين عليه كل الاعتماد لإيصال المعلومات الواردة إلى الخليفة والصادرة منه(٢).

ووصفه أبو إسحاق الكاتب بأنه من أصح العمال ديانة وأكملهم أمانة وأظهرهم صيانة لأنه مؤتمن على الدماء والأموال «وهو العين التي تنظر بها القيادة إلى الرعية ولذلك ليس ينبغي أن يتقدمه أحد في الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى مجراهم»(٣).

ويجب أن تتوفر فيه صفة الأمانة وخشية الله، وهذا يظهر بوضوح عندما

(١) العباسي، آثار الدول، ص٨٣.

(٢) ابن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، (بيروت: د.ت)، مج ٢، ص٢٩٧.

(٣) أبو إسحاق الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب، (بغداد: ١٩٦٧م)، ص٤١٧.

أوصى الخليفة المأمون إبراهيم بن السندي عندما أراد أن يوليه الخبر بمدينة السلام قائلاً: «فأنظر أن تعمل بما يجب لله عليك ولا تراقب أحد غيره»[1].

وكان صاحب الخبر ينتخب من قبل الخليفة لذا يجب أن تتوفر فيه الصفات الجيدة السابقة لكي لا يخون الدولة ويخون الأمانة في الرعية، ولضمان عدم استخدام صاحب الخبر لصلاحياته في ابتزاز أموال الرعية، يجب توسيع الرزق عليه[2].

ومن الصفات الأخرى التي يتوجب توفرها في صاحب الخبر هي الصدق والبيان وعدم التحيزفي تقصيه للحقائق والأخبار، وعدم الانصياع لأهوائه الشخصية في جمع الأخبار، وإذا تبيّن العكس وكذب في خبره فالواجب أن يحاسب من قبل الخليفة أو الوزير ليكون عبرة لغيره من أصحاب الأخبار[3].

وكان دور صاحب الخبر يفعل «على ما هو أضمن للأمن والاستقرار والطمأنينة للرعية وذلك بفسح المجال لهم أن يقدموا شكواهم بأنفسهم في ظروف ليس فيها ضغط أو خوف أو رهبة»[4].

ومن مميزات هذه الوظيفة عدم وجود وسيط بين صاحب الخبر والخليفة أو الحاكم الذي يعينه[5].

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٣٥، ٣٨.

(٢) إسحاق بن إبراهيم، البرهان، ص٤١٧. دريد عبد القادر نوري، الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، (بغداد: ١٩٨٦م) العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) دريد عبد القادر، الشرطة، العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٦٤م) ج١٧، ص ص ٨٥، ٨٧. مصطفى كامل، أصحاب الأخبار، آفاق عربية العدد (٧) ص٦٢.

(٥) العباسي، آثار الدول، ص٨٥.

وعلى صاحب الخبر أن ينقل كل ما يرى ويسمع بأسرع ما يمكن، وإن كان الخبر شرًّا أو خيراً، وليس له الحق في مناقشة أحد من الرعية أو الموظفين فيما فعلوا وما قالوا[١].

ويختلف منصب صاحب الخبر باختلاف العمل الذي يناط به، من الشخص البسيط الذي يقوم بالتقاط الأخبار من العامَّة[٢]، إلى صاحب الخبر الذي ينصبه الخليفة رقيباً على أكابر عماله، وعلى الولاة في مختلف أرجاء الخلافة ويعرف (بصاحب البريد)[٣].

وليس لأحد من الولاة أو العمال أو القادة على صاحب البريد حكم ولا سلطة، ورسائله تصل إلى الحاضرة بأعجل السبل وأسرعها، وليس لأحد أن يفتحها أو يؤخرها أو يتعرض لها، بأية وسيلة[٤]، ولصاحب البريد في الحاضرة ديوان خاص يتولاه رجل ثقة مؤتمن ويؤازره من يتميز بالصدق والأمانة والإخلاص يجمع له الأخبار التي ترد من الأطراف ويتمحصها فور صولها[٥] ثم يبت في أمرها فتنقل الكتب والرسائل إلى الخليفة لاتخاذ الموقف بشأنها ثم يتلقى من الخليفة ما يبغي إيصاله إلى الولاة في الأقاليم الخاضعة للخلافة[٦].

---

(١) ابن طيفور، تاريخ بغداد، ص ص ٣٥، ٣٧.

(٢) م.ن، ص٣٧.

(٣) م.ن، ص٧١. التَّنوخي، نشوار المحاضرة، ص٥٣.

(٤) التَّنوخي، نشوار، ج٣، ص٢٧٨. البحتري، ديوان، ج١، ص٥٢١. ابن طيفور التاريخ، ص ص ٣٥، ٤٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، ج١٧، ص٨٥. أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص١٧٦.

(٥) التَّنوخي، نشوار، ج٣، ص٢٧٨. قدامة بن جعفر، الخراج، ص١٨٤. البحتري، ديوان، ج١، ص٥٢١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤١٠. د. محمد حسين الزبيدي، العراق في العصر البويهي، ص٩١.

إن عملية فض الرسائل وفرزهاكانت تتمُّ بحضور الخليفة وتحت إشرافه المباشر ليطمئن قلبه إلى ما يجري تحت سمعه وبصره ولا تفوته شاردة ولا واردة إلا وهو مطَّلع عليها ويبين قراره وفقاً لما يتطلبه الموقف من ناحية وتركن إلى عدم وجود مساس به وبأركان خلافته وفي حالة وجود ما يبعث على الريبة ينتفض للتصدي له وقطع دابره من أقصر السبل.

وصاحب الخبر كان لصقاً بالخليفة نظراً لحساسية المهمة المسندة إليه والأسرار الخطيرة التي يطَّلع عليها بحكم منصبه لذلك كان شديد الاتصال بصاحب البريد[١]، ويدل هذا الاتصال الوثيق على أهمية حرفة نقل الأخبار، ومركز صاحب الخبر والمؤسسة التي يعمل فيها فهو يحتل المرتبة الوظيفية الثانية بعد الخليفة، وهذا الأمر يمنحه الاطّلاع على البريد وما يأتي من أخبار مشتملة على أنواع شتى[٢] من الأسرار لذلك يعد بمثابة مدير عام لهذه المؤسسة بلغة عصرنا لكن ذلك لا يعني إطلاق يده في العمل، بل كانت تقيده بعض الضوابط التي لا تسمح له التصرف حسب مشيئته لما لذلك من خطر مستقبلي قد يلحق الضرر بالخلافة.

وقد ظهر مفهوم صاحب الخبر أيام العباسيين الذين ورثوا تقاليد الدولة الأموية الإدارية وطوروه بحيث شمل تنظيم العمل الاستخباري والعناية الخالصة بالبريد وتوفير جميع المستلزمات الضرورية لتطوير الخدمة البريدية على أحسن صورة في أرجاء الخلافة لأن البريد كان وسيلتهم الفضلى لتوثيق صلات أطراف وأرجاء الخلافة المترامية[٣].

ولما لم يكن يقتصر دور البريد على نقل الأخبار المستجدة بل امتد إلى

---

(١) الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٦٠، ١٦٢.

(٢) كامل مصطفى، البحث السابق، ص٦٢.

(٣) م.ن، ص٦٢.

القيام بالأعمال الاستخبارية لذلك أُطلقت كلمة العيون على العاملين في البريد[1] وعلى رئيسه صاحب البريد أو صاحب الخبر[2].

وكان صاحب البريد يكاتب الخليفة بالأخبار المتنوعة ذات الأهمية العالية وهو مسؤول أحياناً عن ديوان الخرائط لذلك سمي صاحب البريد والخرائط معاً أو صاحب البريد فقط[3].

وقد ذكر الصابي أن أبا مروان عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الزيات الخرائطي كان يتولى ديوان الخرائط، كما تولى أحمد بن أبي خالد فض الخرائط بين يدي الخليفة المأمون[4].

وهكذا كان أصحاب البريد عيون ساهرة ترصد نشاطات العمال والولاة على الصعيدين الإيجابي والسلبي ثم يرفعونها إلى الخليفة[5]، ليقرر ما ينبغي فعله بشأنها، وكانت نشاطات هؤلاء البريدين منتظمة وفعالة في مجال نقل المعلومات رغم وجود بعض العوائق كعدم توفر وسائل نقل سريعة وبالكمية المنسجمة مع كثرة الحاجات في تلك الأثناء[6].

وكان لديوان البريد أهمية خاصة وصاحبه هو المعتمد الخاص لدى الخلافة، وهو مكلف من قبل الخليفة بتقديم التقارير السرِّية بشكل دوري منظم عن أحوال الولاية وسير الإدارة فيها، وهذا يعني أن الخليفة لم يكن يألو جهداً إلّا وقد بذله في سبيل تنظيم شؤون الخلافة وتوطيد أركانها لأن أي

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨. الهروري، تذكرة الهرورية في الحِيَل الحربية، تحقيق، مطيع مرابط، (بيروت: ١٩٦١م)، ص٧٩. عبد المنعم ماجد، تاريخ، ص٣٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٣٠.

(٣) الصابي، تحفة الأمراء، ص١٥٩.

(٤) م.ن، ص١٥٩. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٦.

(٥) العباسي، آثار الأول، ص٨٢. محمد حسين الزبيدي، العراق، ص٩٣.

(٦) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ص ٥٨-٥٩.

إهمال يسترسل حبله على الغارب سيؤدي بالضرورة إلى إحداث الفجوات والثغرات التي يصعب ردمها فيما بعد.

لذلك كان البريديون معنيين بتنظيم نشاطاتهم وتكثيفها لتخرج النتيجة في ثوبها الزاهي معتمدين في مجال عملهم على عيون منتشرة ومتخفية بين الرعية يوافونهم بكل ما يتناهى إلى مسامعهم من أخبار ويقوم أولئك الإخباريون بإيصالها إلى الخليفة بالسرعة الممكنة[١]، ولا ننسى أن قوة وإمكانية أصحاب البريد كانت مستمدة من قوة الخليفة وسطوته، لذلك لم يترهب سلطة أي شخص مهما علا شأنه وعظمت منزلته سوى سلطة الخليفة ذاته[٢].

وقد اهتم العباسيون بنظام البريد وأشرف بعض خلفائهم على تعيين البريدين بأنفسهم مباشرة، بغية الاطِّلاع على أحوال ولاتهم ونوابهم ورعاياهم، فقد كان الخليفة المنصور يختار للبريد من أصلح العمال ديانة وأكملهم أمانة وأظهرهم صيانة لأنه عين الخليفة ومصدر ثقته[٣].

كما استخدم الخليفة المنصور نفسه ولاة البريد عيوناً على الولاة والقضاء وأصحاب الشرطة وغيرهم من عمال الدولة فكان البريد والحالة هذه دعامَة مهمة من دعائم الأمن في البلاد[٤].

ومما يؤكد أهمية صاحب البريد الخاصة في العصر العباسي ما ذكره

---

(١) سعيد عبد الفتاح، ترايخ الحضارة، ص١٧٠. جرجي زيدان، تاريخ التمدُّن، ص ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ص ١٨٥-١٨٦. مجموعة مؤلفين، حضارة العراق، ج٦، ص١٤٦.عجمي محمود خطاب الجنابي، هارون الرشيد، ص٤٢.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك، ص ص ١٨٤-١٨٥. عجمي محمود، هارون الرشيد، ص٤٢. محمد حسين الزبيدي، العصر البويهي، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٤٨. حسين علي الداقوقي، نظام، ص٨٨. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٧٠.

محمد بن سالم الخوارزمي الذي كان والده من قواد خراسان نقلاً عن الخليفة أبي جعفر المنصور قال: «ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم... أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الحق لومة لائم، والآخر صاحب شرطة، ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية والرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة...»[١].

ويستدل من هذا النص أن الخليفة كان يؤثر أيما إيثار صاحب البريد على جميع العاملين في شتى الوظائف الحساسة الأخرى، لوظيفتي صاحب الشرطة وصاحب الخراج والقاضي، لما لوظيفته من عظيم الشأن وبليغ الأثر فهو مطَّلع بحكم عمله في منصبه على دقائق الأسرار وبواطن الأمور وهذه الخصوصية تمكِّنه من فعل ما يشاء سلباً وإيجاباً فإن حجب الأخبار الهامة عن الخليفة لوقع فيما لا تحمد عقباه ولتعرضت الخلافة لمصير غير محمود النتائج.

لذلك لم يكن مستغرباً إذا أخضع الخليفة أصحاب البريد لامتحان لاختبار النوايا[٢] والإمكانات واختيار الأنسب للعمل في هذا الحقل[٣].

## ثانياً: أقسام صاحب الخبر:

### أ- صاحب خبر الوزير:

لم يكن الخليفة وحده يستعين بصاحب الخبر الذي كان يطلعه على كل

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٦. ابن العمراني، الأنباء، ص٦٢. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٠٤-٢٠٥. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤١. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٧٠.

(٢) القلقشندي، صبح، ج١، ص١٥١.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة، ص٣٨.

شيء يحدث في أرجاء الخلافة ليقوم بدرء المخاطر عنها ويتجنب مغبة المساس بالمفاصل الأساسية لها، بل كان الوزير هو الآخر يستعين بصاحب الخبر أيضاً لدعم موقفه وإسناد سلطته عن طريق إيصال المعلومات إليه، فيقوم بدوره بالتدقيق فيها، وتوظيف ما هو صالح لتعزيز موقعه أو إبلاغ الخليفة بما من شأنه تقويض أركان الخلافة[1].

وكان أصحاب الأخبار منتشرين في بغداد وخارجها مهمتهم الكتابة عن ما يقال من الإشاعات والأراجيف التي قد تتردد أصداؤها بين أوساط الخاصة والعامَّة على حد سواء، وكان هؤلاء يتصفون بالسرعة المدهشة في نقل تلك الأخبار إلى الوزير[2].

وفي معرض سياق الحديث عن أصحاب الأخبار تذكر رواية تأريخية عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)، فحواها أن صاحب الخبر كتب إلى الوزير أبي الحسن ابن الفرات يستأذنه دخول ناصح عليه لأمر هام لا يفضي به إلا للوزير نفسه، وبمعزل عن الناس[3]، ولما دخل الناصح على الوزير أفرغ ما في جعبته بخصوص المناهض للسلطة محمد بن داوود، وقال إنه يعرف موضعه الذي بات فيه الليلة المنصرمة، فدعا الوزير حاجبه العباس الفرغاني، وأمره بجمع عدد من الرجال لإلقاء القبض على المعارض المذكور، وعندما طفقوا يفتشون الدور لم يعثروا على أثر له، فأعيد المتنصِّح إلى حضرة الوزير الذي أنزل به العقوبة المتمثلة في ضربه مائتي مقرعة ثم شهر به على جمل ونودي عليه هذا جزاء من يسعى بالباطل، ثم كتب الوزير إلى الخليفة المقتدر يشرح له الموقف[4].

---

(١) الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق، عبد الله مخلص، (القاهرة: ١٩٠٨م)، ص٣٣٦.

(٢) خواجة نظام الملك، سياستنامه (سير الملوك)، (طهران: ١٩٥٣م)، ص ص ٩٤-٩٥.

(٣) مسكويه، تجارب، جا، ص ص ١٠-١٢.

(٤) م.ن، جا، ص ص ١٠-١٢.

ومما لا يجوز إغفاله، هو أن الوزير أقدم على هذه الفعلة لا لارتيابه في صدق الرجل بل لمنع نظرائه من الإقدام على شيء لا يسفر عن النتيجة المحدودة[1] وإن لم يكن الأمر كذلك لما كافأ المتنصح بمئتي دينار لأن السعاية الكاذبة لا تكافأ وإن الوشاية الباطلة لا مثوبة لها. ومواكبة لخط سير أنشطة أصحاب الأخبار نذكر أن صاحب الخبر كتب إلى الوزير أبي الحسن بن الفرات يقول له: إن الناس غير راضين عن قيامه بإسناد الأعمال إلى بسطام وآل نونجت وقد شعر الوزير بسخط على مضمون الكتاب، وقال والله لن أتخلى أن استعمال آل نونجت مهما كانت الأعذار والأسباب. والمستفاد من هذا الإصرار الشديد على استعمال هؤلاء هو انتسابه إلى نفس المذهب الذي يدين به كل من آل بسطام[2] وآل نونجت[3].

وما زال الحديث يتواصل بشأن اعتماد الوزراء على أصحاب الخبر والاستعانة بهم، لمعرفة ما يجري من الأمور السرِّية والعلنية، ففي أيام تولي أبي الحسن بن الفرات[4] الوزارة الأولى (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) وجد سليمان بن الحسن متقلداً مجلس المقابلة في ديوان الخاصة من قبل علي ابن عيسى ولما رأى الكفاءة والأهلية تميزانه، قلده الديوان بأسره[5].

كان لصاحب الخبر أدوار سياسية وإدارية كبيرة في بغداد، وكان له تأثير وإعادة الموظفين المفصولين والمعاقبين[6]. كما حدث في إعادة مدير

---

(١) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ١٩١-١٩٣.

(٢) بسطام، هذه نسبة إلى بسطام وهي بلدة بقوس مشهورة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٢١٣.

(٣) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٤) أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، وزير المقتدر بالله. انظر: ابن خلكان، وفيات، مج ٣، ص ص ٤٢١-٤٢٢.

(٥) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ١٩١-١٩٢. ابن خلكان، وفيات، مج ٣، ص ص ٤٢١-٤٢٢.

(٦) ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص٢٠.

ديوان الخاصة على عهد علي بن عيسى عام (٢٩٨هـ/ ٩١٠م)، حيث عوقب الرجل وصودرت أملاكه، إلّا أن صاحب الخبر كتب بحقه تقريراً منصفاً للوزير فأعاده بعد إكرامه[١].

وكذلك قام صاحب الخبر في عام (٣١١هـ/ ٩٢٣م) بتبرئة ساحة أحد موظفي الدولة المدعو (البزوفري)[٢] بعد أن اتهم وعذب وأبعد إلى واسط[٣] من بغداد، حيث تتبع أخباره صاحب الخبر وتمكن من مساعدته بعد أن رفع بذلك تقريراً عنه إلى الوزير ابن الفرات[٤].

وهذا دليل آخر ينضم إلى الأدلة الأخرى التي تثبت جدارة أصحاب الأخبار وقدرتهم على إظهار الحق وتبصير الوزراء به وإزالة الشبهات ودرء الالتباس والتَّصدي لكل من يصطاد في الماء العكر.

وهناك حلقة أخرى لا بد من إضافتها إلى سلسلة الأحداث التي كان أصحاب الأخبار لا يترددون عن إيصالها إلى الوزراء. فور تناهيها إلى أسماعهم فقد كتب صاحب الخبر بمدينة السلام إلى إسماعيل بن بلبل في وزارته الأولى للمعتمد، يقول: إن جارية غنّت عند الحسن بن مخلد، وكان في غنائها ما فيه سوءاً للخليفة[٥]، ويستدل منه على عداء للخلافة، فأنهى إسماعيل ذلك إلى الخليفة المعتمد، وقال هذا يضمر إلى الشر ويتربص بك الدوائر فأمر الخليفة بنفيه إلى مصر فمات هناك.

---

(١) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ١٩١-١٩٣.

(٢) البزوفري، هو محمد بن علي البزوفري، للمزيد عن قصة البزوفري وأخبار إعادته، انظر: مسكويه، تجارب، جـ١، ص١٠٣.

(٣) واسط: وهي مدينة تقع في شرقي دجلة، وقد بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٤هـ، وكمل عام ٨٦هـ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٣٤٨.

(٤) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ١٩١-١٩٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ص ١٤١-١٤٣.

(٥) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ٣٠-٣١.

لقد شمَّ صاحب الخبر رائحة الوعيد المبطن والحث على التربص بالخليفة مستدلًّا بما انتشر من الإشارات في ثنايا الأبيات(١) فأسرع إلى اطلاع الخليفة على ما كان من أمر الجارية مع الحسن بن مخلد(٢).

وفي عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) طلب الوزير ابن الفرات، بأمر من الخليفة القاهر من أبي علي الحسين بن صالح خيران البغدادي تولي منصب القضاء، فامتنع عن الاستجابة لطلب الوزير، فغضب عليه وحبسه في داره عدة أيام فوكَّل به نفراً بعد أن ختم على بابه، وقد احتاج إلى الماء خلال فترة حبسه، وأخذ يستعين بمن يجاور داره، وعندما سمع صاحب الخبر بالأمر، أخبر الوزير به، فرقّ قلبه لحاله وأفرج عنه(٣).

هذه بيّنة أخرى تضاف إلى البينات التي تشهد بأهلية أصحاب الأخبار وصلاحيتهم لوظائفهم وعدم تفويتهم لأية فرصة، إلّا وقد سارعوا إلى استغلالها لصالح السلطة ونصرة الحق من خلال الوزراء الذين كانوا يبادرون بدورهم إلى إخبار الخلفاء وينتهي إليهم من أمور صغيرة أو كبيرة.

### ب- صاحب خبر الوالي:

لقد تشعبت أذرع أصحاب الأخبار حتى كادت تشبه أذرع الأخطبوط التي تمتد إلى كل ناحية وصوب لاقتناص الفرية وشمل هذا التشعُّب النشيط النساء أيضاً، فقد أورد سبط الجوزي رواية محتواها أن الحاكم الفاطمي بمصر الحاكم بأمر الله(٤) كان شغوفاً بالركوب والطواف بالأسواق ليلاً،

---

(١) ياقوت الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، (طبعة جونتجهن: ١٨٤٦م)، ص٤١٤.

(٢) التّنوخي، نشوار، جـ٨، ص ص ٣٠-٣١.

(٣) الحنبلي، شذرات، ج٢، ص٢٨٧.

(٤) الحاكم بأمر الله، هو المنصور الملقب الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعز بن المنصور ابن القائم بن المهدي صاحب مصر، تولى الحكم عام ٣٨٦هـ وقتل سنة ٤١١هـ. انظر: =

ففي عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) قد بث أصحاب الأخبار في كل الأرجاء والنواحي لموافاته بما يقع تحت الأسماع والأنظار من الأخبار والأسرار، كما نشر عناصر نسوية لاصطياد أخبار النساء وما يتعلق بهن من نشاطات غير مشروعة وإذا بلغه عن دار يجري فيها ما لا ينسجم ومنطق الأخلاق اتخذ الإجراءات الصارمة بحق كل امرأة تأتي من الإثم والفحشاء ما يخرج عن نطاق الشريعة، وأمر بعض أتباعه بأن ينادي في الناس، ويقول إذا خرجت أية امرأة ليلاً أو نهاراً فإن دمها مستباح، فلم تجرؤ بعد ذلك النداء امرأة على الخروج[1].

يشير ما سبق إلى أن حاكم مصر قد تمكن من معرفة أحوال الرعية في مختلف المجالات بما فيها الجانب الأخلاقي وضبطها محكماً عن طريق أصحاب الأخبار. وهناك دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الوالي لم يخف عليه خافية داخل مركز الخلافة والأمصار الخاضعة له.

تمكن عضد الدولة من بث جواسيسه في كل مكان وبين مختلف طبقات الشعب ينقلوا له الأخبار ويترصَّدوا الموقف عن كثب وكان المخالف يقاد إلى بغداد لينال جزاءه العادل، كما حدث مع الشيخ الذي تشاجر مع أحد جواسيسه في مصر بشأن درهم لا يصلح للتداول، ولما اشتد الشجار بينهما، أغلظ الشيخ له بالشتم ولمن أمر بضرب الدرهم، فاقتيد إلى بغداد ومثل بين يدي عضد الدولة وتعرّض للمحاسبة والمساءلة لما فعله.

وبعد العودة إلى مصر، تحدث بما جرى له مع عضد الدولة، وطار الحديث في الآفاق والمجالس وطرق كل مسمع، فغدا ذلك أمراً مهاباً لدى

---

= ابن خلكان، وفيات، جـ٥، ص ص ٢٩٢-٢٩٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٢٤.

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، (حيدر آباد الدكن: ١٩٥١م) ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

أهل البلد فصاروا يقولون الحذر الحذر، إذا رأوا غريباً في أوساطهم وأمسكوا عن ذكر عضد الدولة بشيء بعد تلك الحادثة[1].

### جـ- صاحب خبر صاحب الشرطة وقائد الجند:

هناك مايشير إلى أن منصب صاحب الخبر في العصر العباسي، كان مستقلًّا عن منصب (صاحب الشرطة)، بل إن صاحب الخبر لا علاقة له بجهاز الشرطة العام ولا يتبع تنظيماته، ولكن الشرطة كتنظيم من تنظيمات الدولة، كان لها عناصرها السرِّية الخاصة بها، كما كان للخليفة (صاحب خبره الخاص)، هذا فضلاً عن الوزراء الذين استخدموا أيضاً أهل الأخبار لتزويدهم بالتقارير السِّرية اليومية[2]. فقد كان أفراد هذه العناصر السِّرية يقدمون تقاريرهم اليومية الخاصة إلى صاحب الشرطة تسمى (رقاع أصحاب الشرطة)، يخبره كل واحد منهم «بخبر يومه وما جرى في عمله»[3]، فضلاً عن مراقبة نساء الوزراء والأمراء المبعدين عن الخدمة[4].

وقد كان لجهاز الشرطة عيون ومعتمدون مهمتهم جمع الأخبار، ومتابعة المجرمين والتعرف على أماكنهم يضاف إلى ذلك أن الشرطة كانت تستعين بالتَّوابين، وهم اللصوص السابقون الذين تابوا وتركوا السرقة فعملت الشرطة على استمالتهم فاستخدمتهم ودفعت لهم الرواتب الشهرية ليدلُّوا على اللصوص ومرتكبي الجرائم[5].

والجدير ذكره هو أن رئيس مخبري الشرطة، كان من المقربين

---

(١) الروذراوري، ذيل كتاب تجارب الأمم، (القاهرة: ١٩٢٦م)، ج٣، ص ص ٦٠-٦٣.

(٢) عبد الواحد ذنون طه، صاحب الخبر وأهل الأخبار، مجلة الشرطة (بغداد: ١٩٧٥م)، العدد (٣٠)، ص٥٧.

(٣) التَّنوخي، الفرج، طبعة (القاهرة: ١٩٥٥م)، ج٢، ص٢٧٣.

(٤) ابن طيفور، تاريخ، ص٣٦.

(٥) المسعودي، مروج، ج٤، ص ص ٢٤٨- ٢٥٠.

لصاحب الشرطة[1]، وتفنن في استخدام المخبرين كأدوات عملية تعمل بانتظام في دوائر الدولة، وتتقصى الأخبار من خلال عملها اليومي، ضمن العاملين والموظفين، وشمل مجال عملهم السجون أيضاً، فكانوا يدخلون السجن بصفة السجناء، وبعد بناء العلاقة مع نزلاء السجن كانوا يعرفون الظالم من المظلوم[2].

ومن الجدير بالملاحظة أن قادة الجند كانت لهم أيضاً العيون والمخبرين الذين كانوا يوافونهم بكل الأخبار سرًّا ويطلعونهم على كل مخالفة قد تفسد الجيش وتضعفه. وقد أشار المؤرخ مسكويه إلى قصة تأريخية مفادها، أنه في سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) أوشك (معز الدولة)[3] على الاستسلام للردى فاستدعى ابنه وأوصاه بالطاعة والاستماع لمن هم أهلاً للمشورة وأعلم منه في السياسة، ومداراة الديلم ومنحهم استحقاقاتهم عند حلول مواعيدها تلافياً لحدوث الشَّغب، والإحسان إلى الأتراك لكونهم جمهرة عسكره، وبدلاً من الاستمساك بعروة تلك الوصايا القيمة تمرد على مضامينها والانصراف إلى اللهو ومعاقرة الخمر[4] وترتب على ذلك ما لا تحمد عقباه فاستوحش الناس منه، واشتد طمعه في إقطاعات كبار حاشيته وصاحب جيشه سپكتكين، وكان للأخير أصحاب أخبار في العسكر وفي دار الوزراء ولكثرة جواسيسه المنبثة بين الحاشية والبطانة لم يخف عليه شيء[5].

---

(١) التَّنوخي، الفرج، جا، ص ص ١٠٨، ١٨٦. دريد عبد القادر نوري، الشرطة في العراق في العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، (بغداد: ١٩٨٦م)، العدد (٢٩)، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) التَّنوخي، الفرج، جا، ص١٣٠.

(٣) معز الدولة، أبو الحسين أحمد بن أبي الشجاع بن فنا خسرو وهو عم عضد الدولة. انظر: ابن خلكان، ج١، ص ص ١٧٤- ١٧٥.

(٤) مسكويه، تجارب، ج٢، ص ص ٢٣٤- ٢٣٥.

(٥) م.ن، ج٢، ص ص ٢٣٤- ٢٣٥.

## ثالثاً: أنواع ومهام صاحب الخبر:

### أ- صاحب الخبر على الوزراء والخاصة:

لقد أدرك الخلفاء العباسيون بحكم الفطرة البشرية، أن المرء قليل بنفسه كثير بأخيه وليس بمقدور أحد الهيمنة على المرام وتحقيق المروم، إلّا باستمداد القدرة من ذويها وبناء على هذا المنطق الطبيعي، لجأ الخلفاء إلى الاستعانة بأصحاب الأخبار على مراقبة الوزراء والولاة، وتتبع تصرفاتهم خطوة فخطوة ورصد ميولهم بفحص آرائهم المناصرة للخليفة أو المناوئة له توخياً للحذر من المناوئة والمناوئين، لأن الوزراء والولاة بمثابة الدعائم الارتكازية التي تستند إليها سلطة الخلافة حماية لها من التقويض والاهتزاز.

ومن الخلفاء الذين أنجدهم أصحاب الأخبار بما يتصل بالوزير من أمور، الخليفة المعتضد، وقد ذكر أن القاسم بن عبيد الله الوزير تفرَّد بالوزارة بعد وفاة والده، والابتعاد عن إنجاز الأعمال، وكان خائفاً من وصول خبره إلى الخليفة[١].

كان الخليفة يرسل بعيونه من المخبرين له على هيئة المتسولين يجلسون على أبواب الوزراء يتقصوا له أخبارهم[٢].

وفي عام (٣١٤هـ/ ٩٢٧م) استوزر الخليفة المقتدر علي بن عيسى وكان في دمشق وقتئذٍ، فكلَّف صاحب خبره بإبلاغه بالأمر، كي يعود لتسلم المنصب، ثم أمر أبا القاسم الكوذاني بتعميم تقليده الوزارة على النواحي وجميع الأمراء وأصحاب البريد والخبر والقضاة ليكونوا على علم بذلك الاستيزار[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٨٨ وما بعدها. التَّنوخي، نشوار، جـ٣، ص٢٧٦.

(٢) التَّنوخي، الفرج، جـ٢، ص ص ٨٥- ٨٦.

(٣) مسكويه، تجارب، جـ١، ص١٤٩.

وفي أيام الخليفة القادر بالله[1]، قصد الوزير أبو القاسم المغربي العراق هارباً من خليفة مصر الحاكم بأمر الله، وتوجَّه إلى كنف الوزير فخر الملك فارتفع خبره إلى الخليفة من لدن صاحب الخبر، واتهمه بأنه ورد لإفساد الدولة العباسية، وبقي أبو القاسم في واسط إلى أن توفي فخر الملك، وشرع بعد ذلك يستعطف قلب القادر بالله، محاولاً التَّنصل مما أسند إليه، فدبَّ الصلاح بينهما فعاد إلى مدينة السلام ثم تركها قاصداً الموصل[2].

وفوق هذا كان يكلف من يمثل صاحب الخبر، وكان عليه تقمُّص شخصيات أعداء الخليفة من المعارضين[3]، والزندقة بشكل خاص[4]، لاكتشاف ما هو مكنون في صدورهم من أسرار أو أحقاد تشكل خطراً على الخليفة وأمنه، ونرى لزاماً أن نشير إلى نص يوضح ما ذهبنا إليه فقد «رفع صاحب الخبر إلى المنصور أن مطيع بن إياس زنديق وأنه يعاشر ابنه جعفراً، وجماعة من أهل بيته، ويوشك أن يفسد أديانهم لينتسبوا إلى مذهبه...»[5].

يستدل بهذا النص على أن أقرب المقربين من الخليفة لم يفلت من رقابة صاحب الخبر، وإلّا كيف تيسر له رصد وكشف العلاقة بين ابن الخليفة ومطيع بن إياس.

وقد كان رد فعل المهدي عنيفاً يوم ظن أن أباه الخليفة المنصور يريد أن يجعل أخاه جعفر وليًّا لعهده، إذ قال لعمارة بن حمزة: «إنه سيقتل أباه إن فعل

---

(١) القادر بالله، هو أبو العباس، أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله، بويع له بالخلافة سنة ٣٨١هـ وتوفي عام ٤٢٢هـ. انظر: ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص١٨٣، ١٨٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات، جـ٢، ص١٧٥.

(٣) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤٢- ٤٣.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٥٠٣- ٥٠٥.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٣، ص ص ٣١٧- ٣١٨.

ذلك، فلما دخل عمارة على المنصور بعد سماعه تهديد المهدي مباشرة بهدف تبليغ الخليفة ما سمعه من ابنه المهدي، قال له الخليفة المنصور «أنا أخبرك قبل أن تخبرني جاءك المهدي، فقال كيت وكيت...»[1].

وبلغ الخليفة المنصور من الدقة في الرد معرفة نوايا ابنه المهدي حدًّا عجيباً جعل عمارة بن حمزة يعلق على قول الخليفة «والله يا أمير المؤمنين لكأنك حاضر ثالثنا»[2].

وإن هذه الروايات التأريخية تظهر بجلاء ما بعده جلاء أن الخلفاء العباسيين كانوا محكمين قبضاتهم على الخلافة بصورة يتعذر معها على أي شخص إلحاق الأذى بأمنهم.

لقد كان مسرور الكبير خادماً للخليفة المهدي أول الأمر، ثم انتقل إلى خدمة الخليفة الرشيد، بعد أن آلت إليه مقاليد الخلافة، فصار موضع سره ومنفذ أمره[3]، وهو الذي قتل الوزير جعفر البرمكي بأمر من الخليفة الرشيد، وأسهم إسهاماً فعالاً في تصفية البرامكة عام (١٨٧هـ/ ٨٠٢م)[4].

وفي سنة (١٩١هـ/ ٨٠٦م) غزا الروم قائد الخليفة الرشيد هرثمة بن أعين، وكان معه مسرور الكبير الذي أسند إليه الإشراف على جميع النفقات ما خلا الخلافة[5]، ومع إسداء أجلّ الخدمات للخليفة الرشيد الذي اتهمه

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨ ص٦٩.

(٢) م.ن، جـ٨، ص٦٩.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٩٥- ٢٩٦. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ١٧٨- ٢٠٧.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٩٥- ٢٩٦. التَّنوخي، نشوار، جـ٧، ص٧٤ هامش رقم ٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ١٧٦- ١٧٩.

(٥) التَّنوخي، نشوار، جـ٧، ص٧٤ هامش رقم ٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ١٧٨، ٢٠٧.

بكونه رقيباً عليه من قبل نجله المأمون كما كان يتهم الطبيب بختشيوع بالتهمة ذاتها من قبل نجله الآخر الأمين(١).

إن ما يمكن استنباطه هو أن الخليفة الرشيد لم تتولد لديه هذه الظنون والشكوك في أقرب المقربين إليه بمجرد وساوس الاتهام وهواجس الريب، بل لا بد من أن تكون هذه الوساوس والهواجس قد نتجت عن رفع تقارير سرِّية مرفوعة على أولاده من قبل أصحاب الأخبار، وإلّا كان من الصعب تكييف النفس وإخضاعها للريبة في أقرب الثقات إليه.

لما توجَّه الخليفة الرشيد إلى خراسان جدد البيعة لابنه المأمون، وأعلم بذلك القواد وسائر الناس وحكم له بجميع الممتلكات المتمثلة في الأسلحة والأحوال، وما إن بلغ الأمين خبر ذلك مع اشتداد والده الموشك على الاستسلام للمآب المحتوم، جنَّد أصحاب الأخبار لجمع المعلومات المتعلقة بأبيه وإرسالها إليه(٢)، وكلف بكر بن المعتمر بحمل كتب في صناديق محكمة إلى القواد هناك، على أن يخفي الأمر عن الجميع بمن فيهم الخليفة الرشيد نفسه، وفي حالة وفاة الخليفة يدفع الكتب إلى المعنيين بها، ليلعب كل منهم دوره لصالحه مقروناً بإظهار الطاعة المطلقة له دون سواه(٣).

تروى رواية تأريخية طريفة غالت في الغرابة وأوغلت في الإثارة فحواها أن القاسم بن الرشيد كان متمادياً في إسرافه من حيث الإساءة إلى أخيه وحاشيته وسائر الناس، لا تليق بالدولة العباسية، حيث كان صاحب الخبر يرفع كل صغيرة وكبيرة إلى الخليفة المأمون حتى التي كانت متعلقة بالبيت الحاكم(٤).

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٣٩.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٣٨. الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٢٠- ٢٢١.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٦٥. الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٢٠- ٢٢١.

(٤) البيهقي، المحاسن والمساوئ، طبعة (القاهرة: ١٩٦١م)، جـ١، ص٣٨٣. للمزيد انظر: البيهقي، م.ن.

وفي عام (٢٣٣هـ/ ٨٤٧م) غضب الخليفة الواثق على أخيه جعفر المتوكِّل لبعض الأسباب فوكَّل عليه[١] كلًّا من عمر بن فرج الرخجي ومحمد بن العلاء الخادم بقصد رفع التقارير عنه في كل حين وآن، فصار جعفر المتوكِّل لا يطيق ما هو فيه فعزم على الاستعانة بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات وطلب منه أن يكلم أخاه الواثق بشأن غضبه عليه، والعفو عنه ودخل جعفر على الوزير وهو منشغل بالنظر في الكتب الواردة عليه، وبعد الفراغ التفت إليه وخاطبه بلهجة المهدد سائلاً ما جاء بك، قال جئت أطلب رضى الخليفة عني، فنظر الوزير إلى من حوله وقال لهم، انظروا إلى هذا يغضب أخاه ثم يطلب مني استرضاءه له[٢]، ثم التفت إلى جعفر وقال له اذهب متى صلحت رضي الخليفة عنك.

لقد خاب أمل جعفر فيما سعى إليه، ولم يستجب الوزير لطلبه وباءت أمنياته بالخيبة والخسران، ولا شك في أن الموكلين به كانا يوافيان الخليفة الواثق بكل ما يتصل بأخيه جعفر، لذلك أحجم الوزير عن تسهيل أمره ومؤازرته على إزالة الجفاء بين الأخوين، لذلك أوشك الانقباض الفطري على أن يحول بينه وبين قلبه لفرط العقدة التي نشأت عن غضب الخليفة عليه[٣].

ومن باب قطع الشك باليقين ودفعاً للالتباس، نقول إن صاحب الخبر لم تنقصه الجدارة، ولم تغب عنه الكفاءة في أداء ما هو مفوض إليه، والدليل على ذلك ما حدث ليعقوب بن السكّيت مع المعتز نجل الخليفة عام (٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)، ويعقوب هذا كان علماً من أعلام عصره في مجالات العلوم المختلفة، وقد سبق أقرانه في نيل حظ وافر في تلك المضامير، ولطول

---

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٣٦.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ١٥٦-١٧٥. ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، (القاهرة: ١٩٥٣م)، جـ٨، ص٩٦.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص ص ١٥٦- ١٥٧. ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٣٦.

باعه في علوم عصره ورسوخ قدميه في سوحها، ألزمه الخليفة المتوكِّل بإعداد نجله المعتز على صعيدي الأدب والعلم[١].

وتمهيداً لإطلاق قريحة ابن الخليفة وإزالة ما يعتريه من الخجل الذي ينشأ للمتعلم عند رؤيته المعلم للوهلة الأولى، سأل المؤدب نجل الخليفة أي علم تؤثر الابتداء به، قال المعتز بالانصراف، وحدث بين المؤدب والمتأدب ما يشبه الفكاهة والمزاح، إذ قال ابن السكِّيت: سأقوم. قال المعتز أنا أخف نهوضاً منك، فقام مسرعاً لإثبات قوله فعثر رجله بسرواليه، فسقط وانتابه الخجل الشديد في المأزق الذي أوقع نفسه فيه، وأراد مؤدبه أن يهون عليه الأمر ويخفف وطأته وأنشد يقول[٢]:

**يصابُ الفَتَى من عثرةٍ بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجلِ**
**فعثرتُهُ بالقولِ تُذْهِبُ رأسَهُ وعثرتُهُ بالرجلِ تبرا على مهلِ**

وقد طار ما أنشده على جناح السرعة وحطّ على مسمع الخليفة في الغد، وعندما دخل لاطفه المتوكِّل وقال له لقد بلغني إنشادك في أمْسِكَ، واستظرف الطريفة التي وقعت للمؤدب والمتأدب فأمر له بخمسين ألف درهم على قوله، إن قصر فترة بلوغ الخبر إلى الخليفة دليل حي وشاهد يأبى الطعن والتجريح ينطق بقدرة أصحاب الأخبار على الإجادة في إدارة مناصبهم والتمكُّن منها أشد التمكن، وإلّا كيف تسرب أمر لا يخرج عن كونه ضرباً من الفكاهة إلى الخليفة في هذا الوقت القصير[٣].

ومما ذكر أيضاً عن أصحاب الأخبار ما ورد على لسان جعفر بن ورقاء الشيباني الذي كان قائماً على خدمة الخليفة المعتضد بالله، إذ روى أنه كان مع نظرائه من أولاد الأمراء والقواد، لأداء ما كلفوا به من الخدمة، وكانوا

---

(١) الحنبلي، شذرات، مج ١، ج٢، ص١٠٦.
(٢) م.ن، مج ١، ج٢، ص١٠٦.
(٣) م.ن، مج ١، ج٢، ص١٠٦.

يجتمعون في حجرة مخصصة للاستراحة بعد إنجاز الخدمة نازعين أخفائهم وعمائمهم وكانوا ينصرفون إلى النرد والشطرنج، ولم يكونوا يعلمون بتربص صاحب الخبر بهم، حيث كتب إلى الخليفة ما كانوا يفعلون أثناء الاستراحة[1] ولم يلبث أن خرج عليهم خادم من خواص الخدم وفي يده الفصل المرفوع في أمرهم، وعلى ظهره التوقيع بخط يد الخليفة، ثم سلمه إلى خفيف السمرقندي الحاجب، وقد آزره جعفر الشيباني حسن حظه واستثناه من العقاب المنتظر، إذ لم يكن في تلك الأثناء مكلفاً بتنفيذ نوبته المستحقة عليه، وعندما تلقى السمرقندي الكتاب انزعج كثيراً وأنزل العقاب بمن كانوا في النوبة، وذلك بضرب كل منهم عدة مقارع وحضر هذا العقاب الجميع على الالتزام بالأدوار والابتعاد عن ما فيه التبدّل والغفلة عن أداء الواجب[2].

والنتيجة المسترعية للانتباه هي أن صاحب الخبر كان يقظاً كل اليقظة، ومنتهياً إلى ما يجري على كل المستويات والدليل القائم على إثبات ذلك أمر الخليفة الوارد إلى السمرقندي والقاضي بإعمال العقاب بالمقصِّرين.

وهناك رواية تحدثت عن أن تقريراً رفع إلى الخليفة المنصور من قبل صاحب الخبر، جاء فيه «إن الربيع الحاجب يذكر أنه ابن يونس بن محمد بن أبجة، وأتي بكتاب بخط الربيع كتبه إلى بعض وكلائه مع الربيع بن يونس، فدعا به الخليفة أبو جعفر وضربه مائة سوط وقال: يا بن الخبيثة أعتقتك واصطنعتك ثم تدَّعي ولاية عثمان بن عفان وغضب عليه وطرده، فقال المبارك ثم وجهني الخليفة المنصور إلى المدينة، فقدمت علي بن يونس ابن محمد فسألته عما يدَّعيه الربيع من نسبه فأنكر ذلك»[3].

---

(١) الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق، ميخائيل عواد، (بغداد: ١٩٦٤م)، ص ص ٧١- ٧٢.

(٢) م.ن، ص ص ٧١- ٧٢.

(٣) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، (بريل: ١٨٧١م)، ص٢٠٨.

إن هذا النص باعث على الغرابة ومثير الدهشة لما فيه من خفاء أمر المدعي على الخليفة، بالبنوة لشخص لا يمتّ إليه بصلة من أن الخلفاء كانوا يستعينون بأصحاب الأخبار الذين أسهموا بالذكاء والدهاء ما مكَّنهم من النفاذ إلى بواطن الأمور ومواطن الأسرار، وكانوا يوشكون على أن يحصوا الأنفاس على مضمري السوء للخليفة، فكيف تسنى لرجل أن يدَّعي ببنوته لرجل لا يعرفه وينطلي ذلك على الخليفة وأصحاب أخباره وهم المعروفون بدقة التحري عمن يراد الاعتماد عليه في المناصب الحساسة كالحجابة مثلاً.

وفي رواية أخرى أوردها الجهشياري قوله: لقد ورد على الخليفة أبي جعفر المنصور خبر خلعه من أهل إفريقية، فاعتزم على الشُّخوص إلى قنسرين[١]، لتدبير الأمر[٢] المتعلق بإعداد الإمدادات بغية احتواء المعضلة، وكتم سر المسير نحو المكان المراد، واجتمع أبو أيوب وعبد الملك والربيع لتحليل الموقف والتوصُّل إلى استنتاج المكان الذي ينوي الخليفة التوجُّه إليه، فلم يتمكنوا من تحديد المكان المطلوب، «وبعد المداولات لم يحالفهم الحظ في معرفة ما عزم عليه، فقال عبد الملك أمهلوني ساعة والزموا أماكنكم لعلّي أستطلع الموقف من الخليفة، بوسيلة من الوسائل دون إثارة انتباهه إلى ما نحن بصدده، وحين دخل على الخليفة المنصور أظهر له إتمام الاستعدادات قائلاً: إنه لم يبق غير استئجار الظهور والمبلغ المطلوب لتوفير اللَّوازم، لكن الخليفة كان عليماً بما عقدوا عليه العزم»[٣] عن طريق صاحب خبره، فقاله له: يا بن الخبيثة إن قولك نقيض فعلك، وإنك قد جلست مع أقرانك وتداولتم الحديث بشأن

---

(١) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص٤٠٤.

(٢) الوزراء، ص٨٢.

(٣) الجهشياري، الوزراء، ص٨٢.

كذا وكذا، ولا يذهبن بك الظن في أنني غافل عمَّا تعملون وجاهل بما أنتم مضمرون ثم طرده.

تلك الرواية تثبت بما لا يدع مجالاً للشك في أن الخليفة المنصور كان على دراية بما يجري في الخفاء ونقيضه، وما ذلك إلّا لكثرة أصحاب الأخبار لديه والذين كانوا يوافونه بكل صغيرة وكبيرة وكل ما يخشى منه على دولته ونفسه والذين كانوا في كل مكان.

يمكن القول بلا مواربة ولا تردد أن أصحاب الأخبار كانوا ينشطون ليل نهار، في تصيُّد الأخبار وإخضاعها للتمحيص والتدقيق بهدف تلافي الوقوع في الشرك الزور، المجانب للحقيقة والصواب وأصحاب الأخبار هؤلاء كانوا يتربَّصون بكل ما يصدر من الخاصة والعامَّة من فعل وقول لتبصير الخليفة بحقائق الأمور على ما هي عليه، فمن أخبار الخاصة، يذكر عن علي بن يقطين أنه كان جالساً عند موسى الهادي مع ثلة من أصحابه، وإذا بخادم الرشيد، قد أقبل وسرَّه بشيء لم يسمعه غيره عن جاريتين، «قد اجتمعتا على الفاحشة، فوكّلت هذا الخادم بهما ينهي إلى أخبارهما، فجاءني فأخبرني أنهما قد اجتمعتا، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد على الفاحشة فقتلتهما»[1]، فنالتا القصاص العادل على اقترافهما الفحشاء.

## ب- صاحب خبر الخليفة على الولاة والقضاة:

وكان من شأن أصحاب الأخبار مع الولاة، أن الخلفاء لم يدعوهم بعيدين عن أعينهم، بل وكَّلوا بهم أصحاب أخبار يترقبون ما يصدر عنهم من أفعال وأقوال.

ففي زمن الخليفة المنصور كان أبو مسلم الخراساني والياً على الشام ومعه الحسن بن قحطبة صاحب خبر الخليفة سرًّا، وكان يكتب بأخبار أبي

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٢١.

مسلم إلى الخليفة المنصور، وهو لا يعلم به، وكتب يوماً كتاباً ضمنه أقوال الوالي، وقبل أن يختم ذيله بقوله «إني أخبرك يا أمير المؤمنين أن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله بن علي، قد انتقل إلى رأس أبي مسلم، والسلام»(١) فضاق الخليفة المنصور بذلك ذرعاً ولم يدر ما يصنع، بيد أنه لم يركن إلى العجز فتربَّص به حتى قتله(٢).

وفي زمن الخليفة نفسه، ضرب مالك بن أنس من قبل والي المدينة المنورة، ضرباً مبرحاً، فأخبر صاحب الخبر الخليفة ما أصاب مالك على يد الوالي جعفر بن سليمان فعظم ذلك في نظره وتأثر بالغ التأثر، واعتبر هذا الفعل من الشّناعات الّتي يحرم الإقدام عليها، فأمر بعزله والمجيء به إلى مدينة السلام ليبت في أمره(٣).

كان هناك رجل يدعى عمر بن مهران - وكان إذ ذاك يكتب للخيزران - أول الأمر، وفي عام (١٧٦هـ/ ٧٩٢م) في عهد الخليفة الرشيد، ثم استقدمه الخليفة لبعض الشؤون، وبينما هو سائر إليه لقي يحيى بن خالد الذي رافقه إلى مقام الخليفة وحين رآه ماثلاً بين يديه أعلمه بسبب استدعائه، وطلب منه السير إلى موسى بن عيسى والي مصر حينئذٍ لتسلّم الأعمال منه، على أن يبقى هذا السرِّ طي الكتمان دون أن يطلع عليه أحد من أصحاب الأخبار إلى أن يوافي مصر، وبعد الاتفاق زوده الخليفة بكتاب بخط يديه إلى ذلك الوالي، وفي الغد بدأ الرحلة بصحبة غلام له مع ثلاثة من الموثوق بهم، وبلغ كتمانه السر مبلغاً تعذر العلم به على الذين معه، وكان ينتقل من بلد إلى بلد، وهو

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٧٩ وما بعدها. ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، مج ٨ ص ص ٢٢٠-٢٢١. ميرخوند، روضة الصفا، (طهران: ١٩٥٠م) ص ص ٤٣٦- ٤٣٧.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ص ٤٨٧- ٤٨٩. ابن أعثم الكوفي، فتوح، مج ٨، ص ص ٢٢٠- ٢٢١.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج٢، ص١٤٩.

متجه إلى غايته، وكلّما حط الرحال في بلد ظن الذين معه أنه هو المرام إلى أن انتهى به التِّرحال إلى مصر[1]. وهناك تنكَّر في زي المتظلم ودخل دار الإمارة وديوان البلد وبيت المال. وجلس مع المتظلمين لإخفاء هويته ثم شرع يبحث عن الأخبار والأسرار، وظل يفعل ذلك ثلاثة أيام حتى تجمع لديه رصيد هائل من المعلومات التي أراد الحصول عليها، وبعد ذلك بدأ بتوزيع الأعمال على أصحابه سرًّا والمسؤولون القدامى لا يدركون شيئاً ما يجري على الديوان وقال له اذهب مبكراً واجلس في الديوان وإذا سمعت به حركة فاقبض على الكاتب ووكِّل به[2]. ولا تدع أحداً يخرج إلّا أن أوافيك. وقلّد بيت المال شخصاً آخر وأمره بمثل ما أمر به الأول ثم قلّد شخصاً ثالثاً من أصحابه الأعمال بالحضرة، وألزمهم بالذهاب إلى دار الإمارة مبكرين وطالبهم إخفاء أنفسهم إلى أن يسمعوا دبيب الحركة، وبعد إتمام أمره مع أصحابه، اتجه صوب دار الإمارة وجلس مع المنتظرين إلى أن أذن موسى بن عيسى للناس بالدخول إذناً عامًّا فدخل الجميع، وهو معهم وجعل موسى ينظر في شؤونهم وعمر بن مهران جالس على مرأى منه وبين الفينة والفينة كان الحاجب يطلب منه طرح قضيته على الوالي، لكنه كان يتريث بقصد انصراف الناس، ليتسنى الاختلاء به وحين تمّ له ما أراد دنا من الوالي، وأخرج له كتاب الخليفة الرشيد الذي تلقاه الوالي بالإجلال، فقبَّله ووضعه إلى عينه ولدى البدء بقراءته امتقع لونه، ولم يبق له سوى إظهار السمع والطاعة، ثم قال له: اقرئ أبا حفص السلام، وأبلغه أنني سأعدُّ له مكاناً يليق بمكانته وأستقبله بالحفاوة والتكريم، فقال له الرجل أنا عمر بن مهران وقد أمرني أمير المؤمنين بإنصاف المظلومين، فمن كان له حق عليك وافيناه حقه، ومن أساء إليك عاقبناه على إساءته فتعجب موسى من دهائه وذكائه

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٧١-١٧٢. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص١٢٥.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص١٢٥.

وعظيم حيلته التي انطلت عليه[١]، وقال له: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، فقال موسى: لعنة الله على فرعون إذ يقول «ليس لي ملك مصر!»[٢] ثم اضطربت الأحوال في الدار وعلا الضجيج إثر قبض كاتب عمر على الديوان وصاحبيه الآخرين على بيت المال، وختم عليهما ثم وردت عليه الرقاع من قبل أصحاب الأخبار بذلك. واضطر موسى إلى النزول من فرشه قائلاً: لا إله إلا الله هكذا تقوم الساعة! والتفت إلى عمر بن مهران وهو يقول ما ظننت أحداً بلغ من الحزم والعزم والحيلة ما بلغت، قد تسلمت الأعمال وأنت في مجلسي[٣].

وفي عام (١٨٧هـ/ ٨٠٢م) كان علي بن عيسى والياً على خراسان، وبلغ الخليفة الرشيد خبر صاحب الخبر، أنه أخفى أموالاً طائلة في أحد البساتين، وحين شاع أمر ذلك في الناس، هاجموا البستان ونهبوا جميع الأموال التي أخفاها، وكان مع هذا الثراء يزعم أنه باع حلي نسائه لفقره المدقع، ولما علم الخليفة بالموضوع أرسل هرثمة بن أعين أحد قواده لإحضاره بعد مصادرة جميع ممتلكاته، فأركبوه بعيراً من غير غطاء ولا وطاء، وسلَّموه إلى الخليفة لينال ما يستحقه من العقاب جزاء أكذوبته على الخليفة الرشيد[٤].

وعند تسلم المأمون زمام الخلافة، انتهى إليه سوء صيت عامله على كورة الأهواز عبر صاحب خبره، فعزله نظراً لكثرة الشكاوى وسوء الأقاويل فيه من قبل جماعة كانوا على دراية بمسلكه، فأمر الخليفة أحمد بن أبي

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٢٥٢-٢٥٣. الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٢) القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٥٠؛ ابن خلدون، مج٣، ص٢٢٢.

خالد النظر فيما أثير حوله، ولما حضر جمع الخصوم ضد الوالي المعزول تقدم أمرهم واستأذن الخليفة، وقال: يا أمير المؤمنين لا تمكِّن أحمد بن أبي خالد من قبول الهدايا من خصمنا، ويعني بذلك العامل المعزول فإنه إن أكل مع طعامه فستدحض الحجة ويبطل حقنا في دعوانا، وبعد سماع الخليفة الحديث قرر النظر في أمورهم يوم الأربعاء بنفسه بعد إحضارهم جميعاً، ثم أمر بتخصيص ألف درهم لأحمد بن أبي خالد لينفقه على مائدته يوميًّا لكي لا يحتاج بعد ذلك إلى أحد من بطانة العامل[١].

وفي أيام الخليفة المتوكِّل كان محمد بن منصور يتقلَّد القضاء بكور الأحواز وكان عمر بن فرج الرخجي يتقلد الخراج بها، وكانا متوازيين في المرتبة السلطانية، بيد أنهما كانا موغلان في التشاحن والتناحر على نيل التعظيم والفوز بالتكريم، وكانت كتب الخليفة ترد عليهما بخطاب واحد، وكثيراً ما كان الرخجي، يكتب إلى الخليفة المتوكِّل ضد القاضي يشفي غليل الثأر لكن الخليفة لم يكن ليكترث بكتاباته لرفعة منزلة القاضي عنده، وبعد حين ورد كتاب الخليفة عليهما يدعوهما إلى الاجتماع معاً[٢] لتداول أمر رسمه لهما، ونظراً لتمكن المشاحنة والتباغض منهما، لم يتنازل أحدهما للآخر، إذ طلب الرخجي من القاضي الحضور إلى الديوان، فامتنع وأبى، وعامل القاضي الرخجي بمثل ما عومل به، فطلب منه الحضور إلى الجامع، وأصرَّ كل منهما على رفض طلب الآخر، غير أن السِّر لم يمكث في مخبئه بين أسوار الكتمان إذ طلب الرخجي من الخادم الرجوع إلى الخليفة المتوكِّل لإبلاغه بما حدث. وقال أبلغ الخليفة أن القاضي رفض الحضور إلى الديوان، وألحّ على حضوري إلى الجامع، وعندما علم القاضي بإجراء الرخجي قدم إلى الديوان ودخل، والرخجي يلقي دروسه على المتعلمين،

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص١٢٣؛ الطبري، تاريخ، ج٨، ص٥٤٤.

(٢) الصابي، الهفوات، ص١٥١-١٥٣.

الدولة تشتري منه كميات كبيرة لنفس الغرض، ففي عهد الخليفة المأمون اشترى منه حوالي (١٢٠) كيلو سنويًّا[١].

وكانت للدولة الإسلامية شفرات خاصة تجري بواسطتها المخابرات السرِّية ولا يعلم مفاتيحها ومغاليقها إلا رجال الدولة المختصون[٢].

وكانت للبريد ميزانيته الخاصة، فعلى سبيل الحصر لا القصر تمّ تخصيص ثمانية ملايين درهم من خزانة الدولة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد لإنفاقها على تسيير أمور البريد[٣].

## جـ- التطوّر التأريخي للبريد:

كان نظام الخدمة البريدية معروفاً في عهدي الإمبراطوريتين البزنطينية والساسانية ويظن البعض أن أصل البريد فارسي لوجود اصطلاح لغوي في الفارسية هو (برده ده م)[٤]. قلنا إن لفظ البريد لفظ عربي وإن كان معمول به عند الفرس والرومان ومما يؤكد كونه عربي وجود إشارات متناثرة في بطون الكتب تثبت وجود البريد، وخير ما يمكن الاستشهاد به والاعتماد عليه في هذا المضمار هو وجود أقدم نص لغوي وردت فيه لفظة البريد إذ روي عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: **(إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم)**[٥].

---

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، (بغداد: د.ت) مج ١، ص٣٢١. حسين علي الداقوقي، نظام، ص٩٠.

(٢) البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة، يحيى الخشاب وصادق نشأت، (بيروت: ١٩٨٠م) ص٨٨.

(٣) حسين علي، نظام، ص٨٨.

(٤) هارتمان، دائرة، مج ٧، ص١٨١.

(٥) محمد مستجاب، البريد، مجلة العربي، (الكويت: ١٩٩٨م) ص١٢٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٠.

مسترسل في الزهو والخيلاء وهو يعد مزاياه التي يتفوق بها عليه منها، وأن الخليفة قد أطلق يده في الأموال دون مساءلة. وما إن أمسك الرخجي عن الكلام حتى التفت القاضي إلى الوكيل وخاطبه: أيها الوكيل، وجب عليك إبلاغ الخليفة بما اعترف به بحضور الشهود ليتم إلزامه برد تلك الأموال إلى بيت مال المسلمين. ولدى اطِّلاع صاحب الخبر على كل تلك التفاصيل المتعلقة بما كان بين المتشاحنين رفعها إلى الخليفة المتوكِّل، فأصدر بإلقاء القبض عليه، ومصادرة جميع أمواله وممتلكاته التي تعرف الآن بالرخجيات، وأودعه السجن في سامراء يذوق سوء العذاب[١].

وفي الفترة التي كان فيها الخليفة الموفق ممسكاً بزمام الخلافة عقدت الولاية لخمارويه بن أحمد بن طولون على مصر، فأمر نجله المعتضد بالتوجه إلى هناك لمحاربته عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م)[٢]. وما إن التقى الجيشان بالصَّعيد حتى خيمت الهزيمة على خمارويه وانكسر جيشه وآل إلى الاندحار، وحين يئس من القدر على المواجهة ركب دابته وفرّ هارباً، فتزوج الخليفة المعتضد بابنة خمارويه عام ٢٨٢هـ ونتيجة لذلك توثقت العلاقات وصارت الهدايا تتسابق إلى أبي زوجته، وبعد فترة من الزمن تلقَّى المعتضد خبر غير سار من صاحب خبره مفاده، أن خماوريه قد ذبح في فراشه من قبل خادمه عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) ومن باب القصاص قتل نيف وعشرين خادماً من خدمه المتهمين بقتله[٣].

وفي زمن الخليفة المعتضد أوغل أبو العباس أحمد بن بسطام، في الإحسان إلى المحتاجين، الأمر الذي أدى إلى إثقال ذمته بديون متراكمة عجز عن دفعها، ونتيجة لذلك حبس وأُلزم بدفع مبلغ قدره سبعون ألف دينار.

---

(١) م.ن، ص ص ١٥١-١٥٣.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ١٠، ص٨.

(٣) الطبري، تاريخ، مج ١٠، ص٤٢؛ ابن الجوزي، المنتظم، جـ٥، ص١٥٥.

وهنا تعني البريد كما هو واضح حامل الرسالة الشفهية والتحريرية، كذلك فقد أثر عن العرب القدامى قولهم: «الحمى بريد الموت»[١] فلفظة البريد هنا ثابت وجودها في اللُّغة العربية تشير موجبة بأن الحمى محملة برسالةٍ شفهيةٍ معنويةٍ ينبغي بلاغها إلى المعنى بالمنية في أي ظرف مختار لا تختلس فيه الحياة من يد الأجل[٢].

كان للبريد أهمية خاصة وكبيرة في كل عهود الدولة الإسلامية على مراحلها المختلفة فالخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان يعد أول من أدخل نظام البريد في الإسلام[٣] مستخدماً جملة من القواعد المستحدثة لتطوير ذلك النظام وخاصة تطوير وسائل الاتصال، ثم جاء الخليفة عبد الملك بن مروان فأحكم نظام العمل به[٤].

ومما يدل على أهمية البريد وعظمة شأنه، ما نقله أحد المؤرخين عن الخليفة عبد الملك بن مروان وهو يوصي ابن الدغيدغة بعدم حجب البريد عنه، وإن كان مقدمه ليلاً فعسى أن يكون قد أتى بأمر عظيم أو نبأ جسيم يتعلق بالراعي والرعية على السواء، أو بأحدهما دون الآخر، فلولا الأمر كذلك، لما أقبل مدَّرعاً جنح الظلام والليل قد أسدل ثوبه على كل شيء، وهذه التوصية تقطع الشك باليقين وتدفع الإنسان إلى الجزم بعظمة شأن البريد لدى الخلفاء في شتى العصور الإسلامية[٥].

وقد استمر الاهتمام بالبريد وأنظمته على أشده في العهود المختلفة دون

---

(١) مستجاب، البريد، ص١٢٠.

(٢) مستجاب، البريد، ص١٢٠. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤٠.

(٣) السيوطي، الوسائل، ص٩٨.

(٤) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٣. نظير حسان، نظام البريد، ص٥٦. سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة (الكويت: ١٩٨٦م) ص٦٩.

(٥) يوسف حسن غوانمة، التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي (عمان: ١٩٨٢م)، ص ص ٥٨-٥٩.

وهنا تدخل (صاحب الخبر البوشجاني) في المسألة، وكتب إلى الخليفة تقريراً جاء فيه، أنه كان يفرق معظمها على الفقراء والمستورين شهريًّا[١].

ولما علم الخليفة بأمره أسقط ما بذمته من ديون، وأمر برده إلى عمله السابق[٢]. وهذا يدل على أمرين **أولهما**: معرفة صاحب الخبر بكل أخبار وتفاصيل أعمال الولاة، **وثانيهما**: المواقف الإيجابية لصاحب الخبر في الدفاع عن الولاة الصادقين ودفع الأخطار عنهم.

لا نزاع في أن الخلفاء كان يهمهم الإلمام بكل شاردة وواردة لها صلة بالخليفة والخلافة معاً، ولما كانت اليد تستمد قدرتها من الساعد والبنان، كان لزاماً على الخليفة أن يستعين بمن يسهل له السبيل إلى ذلك، هو صاحب الخبر الذي كان يعاضده في تسهيل مهمة الإلمام عن طريق الرسائل والرسل، ففي عهد الخليفة الرشيد تولى قضاء الرصافة[٣]، فريق من القضاة منهم سعيد ابن عبد الرحمن الجمحي[٤] وعمرو بن حبيب[٥]، والحسين بن الحسن العوفي[٦]، لكن العوفي عزل عن منصب القضاء بأمر من الخليفة الرشيد، ويعود سبب عزله إلى قصة إحدى النساء التي اشتكت على خصم لها، فبدأ يكثر من الاستفهام حتى ضجرت المرأة من كثرة أسئلته، فقالت له: طالت لحيتك وعظمت غفلتك أيها الشيخ، والله ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك[٧].

---

(١) التَّنوخي، نشوار، جـ٨، ص١١٥.

(٢) م.ن، جـ٨، ص١١٥.

(٣) السمعاني، الأنساب، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، (بيروت: ١٩٨٠م) جـ٣، ص٣٢٦.

(٤) اليافعي، مرآة الجنان، جـ١، ص٣٨٣.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة بغداد، جـ١١، ص١٩٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: ١٩٦٠م)، ق٢، جـ٧، ص٦٩.

(٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٧٤؛ الكندي، كتاب الولاة والقضاة، (بيروت: =

انقطاع حتى نال نصيبه الوافر من الرِّعاية والعناية البالغة، إذ وظف (الخليفة أبو العباس السفاح) البريد لخدمة الجيش ومهام القتال، واستثمر دور البريد في إلحاق الهزيمة (بمروان بن محمد) «آخر خلفاء الأمويين في واقعة الزاب بعد أن وجه إليه (موسى بن كعب) في ثلاثين رجلاً على البريد إلى (عبد الله ابن علي) وما خلت ليلتان من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة حتى سأل (عبد الله بن علي) من مخاضه فدلّ على مكانه بالزاب، فأمر (عيينة بن موسى) بالعبور وبمعية خمسة آلاف مقاتل فأنهى الجمع إلى عسكر مروان»[1]، ولولا دور الجهاز البريدي الفعال لما تيسر تحقيق المرام بهذا النمط من السهولة واليسر، وهذا ما يفسر منهم القائلين إلى تطوير البريد، رغبة في تلافي كل ما يعترض سبيله.

ولم يكن شأن الخليفة أبي جعفر المنصور أقل من سلفه من حيث التركيز على العناية بالبريد، لتستقيم بهم أركان الملك التي حصرها في أربعة أصناف من العاملين في أجهزة الدولة مع التأكيد الدقيق على أدوارهم الفاعلة في تمشية الرعية وأمورها كلٍّ بحسب اختصاصه الذي كان من المفترض أن لا يجاري فيه أحد على صعيد أداء الواجبات ودقة التنفيذ والأصناف المنوه بها تشمل القاضي وصاحبي الشرطة والخراج، فقد رسم الخليفة مهمة كل منهم بدقة تتطلّب فنون الرعاية، ثم التفت إلى صاحب البريد ليصور علو شأنه بما يفوق الوظائف السابقة روعة وإجلالاً لما للبريد من دور يكاد يكون فريد الطراز في نشاطاته التي يخدم أغراض الدولة المختلفة[2].

وفي معرض سياق الحديث عن أهمية البريد ودور صاحبه «عضَّ على

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٣٢.

(٢) أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، جامعة صلاح الدين، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، ١٩٩٨، ص١٧٠.

وهذا القول ينم عن سخرية ما بعدها سخرية واستهزاء لا مزيد عليه، وحين سمع صاحب الخبر بالقصة، أدرك أن القاضي فاقد للأهلية والكفاءة، ومن فقد هذين العنصرين لا سبيل إلى بقائه في منصبه، وبناء على ذلك كتب إلى الخليفة الرشيد يعرض عليه أمره مع المرأة فصرفه الخليفة[1] مستقضياً عبد الملك بن محمد بن أبي بكر محمد بن عمر مكانه عسى أن يكون خيراً منه وأكثر ملاءمة لهذا المنصب الحساس[2].

ومن المعلوم أن أصحاب الأخبار كانت مهمتهم متشعبة تتناول الأغراض الخاصة والعامَّة، وتترصد كل حدث ذي طابع خاص أو عام فمن الأمور ذات الطابع العام ما جرى في عهد الخليفة المأمون نفسه، وإذ استدعى إبراهيم بن السندي ذات يوم وقال: إني أستقدمك لأمر جليل لم أشاور فيه أحداً غيرك لفرط ثقتي بك، ولما أظهر إبراهيم خالص الطاعة له بلا تردد، قال له الخليفة المأمون قد رأيت أن أوليك خير ما وراء باب داري، فافعل ما يرضي الله ولا تأخذك في ذلك لومة لائم. فرد إبراهيم سأعمل ما فيه مرضاة الله ومرضاتك يا أمير المؤمنين[3].

### جـ- صاحب خبر الخليفة على العسكر وصاحب الجسر:

استمرت نشاطات أصحاب الأخبار على أشدها في كل الأزمنة والأمكنة. في عهد العباسيين وأحاطت سرادقات أنشطتهم بكل شيء بما في ذلك العاملين في حقل الجيش.

ويذكر أن الخليفة المأمون كان جالساً وحوله جماعة من الناس، ودار

---

= ١٩٠٨م)، جـ٢، ص٢٦٤.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ق٢، جـ٧، ص٦٨؛ الكندي، كتاب الولاة والقضاة، جـ٢، ص٢٦٧؛ الخطيب، تاريخ مدينة بغداد، جـ١٠، ص٤٠٨.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص١٤٠.

(٣) م.ن، ص١٤٠؛ البيهقي، المحاسن، جـ١، ص٢٧١.

إصبعه السبابة ثلاث مرات قائلاً أه أه..»[١]، بصوت كاد يجلجل الأرجاء المحيطة به لشدته في كل مرة وقد احتدمت ملامحه لإحساسه بقشعريرة دبّت في فرائصه فقيل له: ومن هو هذا الذي تكتنفه هذه الهالة العظيمة من الأهمية فرد قائلاً: إنه صاحب البريد الذي ينبغي عليه أن يكتب بخبر هؤلاء على الوجه الصحيح دون أن يعتريه تزييف أو تحريف[٢].

تنامى تطور البريد في عصر الخليفة المنصور، فأنيطت به أغراض متعددة الجوانب نجمت عن تشعب الحياة، فاستوجبت توسيع آفاق النشاطات البريدية كما تؤكد ذلك روايات المؤرخين التي تُجمع على أن ولاة البريد في الأمصار المختلفة كانوا يزودون المنصور بكل ما يتّصل بالحياة الاقتصادية في شتى مناحيها كحالة السوق، وقيمة السلع وأسعار البضائع وأنماط المعاملات التجارية ومضارباتها. وما تسفر عنه المساومات المتباينة في التأثير والتأثر من الناحية الاقتصادية، ولدى وصول الأسعار إلى الخليفة عن طريق البريد، كان يقلب النظر فيها فإن وجدها مستقرة على سالف حالها، أمسك عن الإقدام على أي فعل لانتفاء الحاجة إليه وإن وجدها متذبذبة يمثل نحو التغيير لغير صالح الرعية[٣]، هبَّ مدافعاً عن رعيته مستفسراً عن العلل الخفية المؤدية إلى هذا التبدل طالباً من العمال والولاة موافاته بالتفسير المنطقي المستساغ عقليًّا وليطمأن إليه قلبه وتقر عينه بما يضفي إلى إسعاد الرعية. ثم يعمم إلى فرض الإجراءات الضامنة لعودة الأسعار إلى سيرتها الأولى[٤].

---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، (القاهرة: ١٨٨٩م) ص ص ١٨٤، ١٨٥، الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٦٦-٦٧.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٦٦، ٦٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: ١٩٦٦م)، جـ٦، ص٢٦. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٩٦. أبو زيد شلبي، تاريخ، ص١٤١.

(٤) خواجة نظام الملك، سياستنامة (سير الملوك)، (طهران: ١٣٧٣هـ)، ص ص ٩٤-٩٥. =

الحديث حول المرائين وصفة الرياء الذميمة، وتناول عدداً كبيراً من الخاصة والعامَّة، غلبت عليهم هذه السجيَّة المذمومة، وذكر اسماءهم واحداً بعد آخر، ولما غادروا مجلس الخليفة، سأل رجل من علية العسكر، قائلاً لصاحبه، هل رأيت أحداً أعلم من هذا الملك، بأسرار رعيته قط، قال لا، ثم نقل هذا الحديث إلى صاحب الخبر الذي لم يجهل ما تعلق بالعسكر والمعسكر، بل شمل الفقهاء أيضاً، حيث كان صاب الخبر يدوّن كل شيء حتى لكأنه أعلم منهم بما يدور في منازلهم[1]. ثم يخبر الخليفة بما يجتمع عنده من معلومات ثم يقلب فيها النظر بهدف فرزها لتجنب ما قد ينشأ عنها من مساوئ تضر بالخليفة والخلافة[2].

وفي عام (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) خرج الخليفة المعتصم لبعض أغراضه، فتلقاه الأفشين في الطريق، فحياه بتحية تليق بالخليفة، واتفق أن كان عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل متوجهين صوب عسكر الأفشين بقصد شراء بعض السبي من ابن الأقطع، ووقفا ينتظران المنادي ينادي على بيع السبي بقصد اختيار الأجود منهم، وبينما هما كذلك وصل خبرهما إلى أشناس عبر حاجبه، فاستدعى أشناس محمد بن سعيد السعدي وقال له: اذهب إلى عسكر الأفشين[3] وانظر هل تراهما هناك، وعند من نزولهما وما قصتهما، حيث أمره أشناس فوجدهما ممتطين دابتهما، واستفسر عن سبب وقوفهما هناك فأجاباه أنهما ينتظران سبايا ابن الأقطع، وقال لهما الرجل وكِّلا عنكما من يشتري لكما من تريدان، فردا عليه، لا نشتري إلّا من نحن نراه بأعيننا، وعاد المكلف بالأمر إلى أشناس بخبرهما[4]، وإثر ذلك أمر حاجبه بأن

---

(١) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣١١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٤٧٧- ٤٧٨.

(٣) ميرخوند، روضة الصفا، ص ص ٤٧٠-٤٧٢.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٧٣ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ص ٤٤٧-٢٥١.

يلزمهما بالبقاء في عسكرهما، وعدم التحرك هنا وهناك وفعل الحاجب ما طلب منه، واغتم الرجلان شديد الغم واتفقا على الذهاب إلى صاحب خبر العسكر، يطلبا منه الحصول على عفو أشناس عنهما، وقالا له نحن عبدا أمير المؤمنين المعتصم فهو حر في أن يضمنا إلى من يشاء، إلى أن هذا الرجل استخف بنا وأغلظ في شتمنا وكال الوعيد لنا ونحن نخاف من أن يمسنا بسوء[١].

فأنهى صاحب الخبر ذلك إلى الخليفة المعتصم من فوره، واتخذ الخليفة ما يلزم من الاحتياطات الضامنة لسلامته وأمن خلافته[٢].

كتب المازيار[٣] إلى الدري يأمره بالقدوم عليه عام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) وبعد وصوله ضم إليه العسكر ووجه ضد عبد الله بن طاهر، وظن أنه قد توثق من الجبل، وسوف لن يكون بمقدور أحد أن يباغته هناك لوعورته وكثرة المضائق والأشجار فيه، وعندما اطَّلع عبد الله بن طاهر على نوايا المازيار وجَّه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب على رأس جيش كثيف من خراسان لتدارك الأمر، وكان معه صاحب خبره يعقوب بن إبراهيم البوشنجي[٤] المعروف بقوصرة، لموافاته بخبر العسكر عن كثب، وبعد ذلك زحفت الحشود نحو عسكر المازيار، وهو لا يشك فيما أعد له من القوات الضاربة، بالقياس إلى ضعف قواته وقلة عددها في المدينة التي كان فيها، وكان لمازيار ابن عم حاقد عليه لإساءة المازيار إليه بسبب تشهيره وتنحيته عن موقعه فاستغل الفرصة المؤاتية له وكتب إلى الحسن بن الحسين وأعلمه جمع ما في عساكره، ثم وصل خبر ما كان يجري إلى الخليفة المعتصم عن طريق صاحب الخبر، فرسم الخليفة خطة لاحتواء الموقف تتمثل في تعاون ابن عم

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٤٩٥ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٧٣؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٣) المازيار بن قارن صاحب طبرستان قاد حركة ضد الخلافة العباسية أيام الخليفة المعتصم. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٤٩٥-٥٠٥.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٨٤.

المازيار مع جيش الخليفة ضد المازيار، وفي حال نجاح الخطة تعود ملكية ما انتزع منه إليه إن هو وثب على المازيار وساعد جيش الخليفة في القضاء عليه[١].

ويستدل مما سلف ذكره أن قرب الخليفة وبعده عن مواقع الأحداث لم يكن ذا بال بسبب قدرة أصحاب الأخبار على رصد الأحداث، ثم رفع المعلومات عنها إلى الخليفة ليكون على علم بها واتخاذ الموقف المناسب لحسمها.

وتذكر رواية تأريخية سنة (٢٢٥هـ/ ٨٣٩م) مضمونها أن الأفشين كان يحارب بابك الخرمي، لكنه كان يستغل الهدايا التي تأتي من أهل أرمينية لصالحه ويرسلها إلى أشروسنة ليدَّخرها هناك[٢].

وكان طريق اجتياز الهدايا يمر بعبد الله بن طاهر الذي أعلم الخليفة المعتصم بخبرها، فكتب إليه الخليفة أن يحتاط للأمر، وكان الأفشين يستعمل طريقة خاصة لإيصال الهدايا إلى شروسنة حيث أمر بوضع الأموال في محفظات تشد على أوساط أصحابه بعد حشدها بالأموال[٣]. وبينما كان الأمر سائراً على هذا المنوال فترة تصدى (عبد الله بن طاهر) لناقلي الهدايا المرسلة من قبل الأفشين إلى أشروسنة[٤] واستوقفهم وشرع يفتشهم فرداً فرداً، وبعدما ضبط كمية كبيرة من الأموال والهدايا قال لهم من أين لكم هذه كلها، فقالوا له: إن هذه أموال أفشين وهداياه، فكذبهم وقال لهم: لو كان الأمر كذلك لكتب إليّ الأفشين وطلب مني توفير الحراسة والحماية لأن المبلغ عظيم والخوف على ضياعه أعظم، ولا بد من الحماية

---

(١) م.ن، ج٩، ص ص ١٠٤-١٠٥. مسكويه، تجارب، ج٦، ص٥١٦، ٥١٩؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٩٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٥١٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٩٨؛ مسكويه، تاريخ، ج٥، ص ص ٥١٢-٥١٥.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٠٢ وما بعدها.

لتوفير الأمن والأمان[١]، ثم وصنهم باللُصوصية وأخذ منهم ما كان بحوزتهم ووزعه على الجنوب، ثم كتب إلى الأفشين أقوال ناقلي الهدايا، وعقب بقوله: إن كان هذا المال لك فسأرده إليك بعد وصول استحقاقات الجيش من أمير المؤمنين (المعتصم)، وإن كان غير ذلك فالخليفة أحق به، ولقد وزعت هذه الأموال على الجند لأنني أريد توجيههم إلى بلاد الترك[٢]، ورد عليه الأفشين وكاتبه إن مالي ومال أمير المؤمنين واحد، وطلب منه إطلاق سراح القوم مع الأموال للذهاب إلى وجهتها وهي أشروسنة فأطلقهم عبد الله بن طاهر، ولكن نشأت بينهما الوحشية والجفاء بسبب ذلك[٣].

وفي عام (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) خرج جماعة من الأتراك الموالين لبغا الشرابي بمدينة السلام، هاربين ليلاً مجتازين باب الشّماسية، وكان هناك على الباب (عبد الرحمن بن الخطاب) الذي لم يعلم بخبرهم، فبلغ ذلك محمد بن عبد الله، فاستهجن جهل ابن الخطاب بما حدث، وعنَّفه على غفلته. وتولى بنفسه حراسة الأبواب. ولما وافى الحسن بن الأفشين مدينة السلام وكِّل بباب الشّماسية[٤]، وبعد ذلك وافى أبو أحمد عكبراء مع عسكره الشماسية، ومعه صاحب خبر العسكر، فضلاً عن رجل آخر يمتهن نفس المهنة يدعى جعفر بن أحمد البناتي المعروف بابن الخبازة. وبعد استقراره هناك ولى المستعين الحسين بن إسماعيل باب الشماسية وظل مقيماً هناك فترة ثم توجه شطر الأنبار، وقبل رحيله ولى مكانه إبراهيم بن إسحاق[٥].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٥١١ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٩٨؛ مسكويه، تجارب، ج٥، ص ص ٥١٢-٥١٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٥١٢ وما بعدها.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٩٨.

(٤) مسكويه، تجارب، ج٥ ص ص ٥١٢-٥١٥.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٧٠.

وهكذا كانت عمليات الاستبدال والنقل والتوليات تتولى من فترة لأخرى في صفوف أصحاب الأخبار من وقت لآخر بقصد ضبط المعلومات الواردة كي لا يتخللها الكذب والتزييف لأن النفس أمارة بالسوء تستجيب للمغريات والمؤثرات، وإذا طال بقاء أحدهم في موقعه لا يستبعد التأثير عليه وتجنيده، ضد الخليفة إن لم يكن مستقيماً.

وفي عام (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) ذكر أبو الحسن ولد عمارة، أن جماعة من خواص الأتراك دخلوا ديوان الجيش، وكان معه صك يريد تثبته، فقال للكاتب هذا الصك ورد عليه الكاتب أنه ليس متفرغاً لعمل الصك، وتلقف صاحب الخبر ما جرى ونقله إلى عضد الدولة، ولم يمض إلّا وقت قصير حتى استدعى أبا الحسن ولد عمارة وأعلمه بما جرى بصدد الصك، وأمره بالذهاب إلى الكاتب وتناول الصك منه وحرقه بين يديه، ونفذ أمر عضد الدولة ولم يفلت الكاتب من العقاب[١].

تظهر الأحداث المتتابعة في مختلف عهود الخلفاء أن أصحاب الأخبار ما غادروا شيئاً، إلّا وقد أحاطوا به سواء أكان ذلك ضئيل الشأن أو عظيم القدر ليطلعوا عليه بأنفسهم، ويقرروا ما ينبغي فعله بصدده وهذه الحادثة هي إحدى تلك الحوادث التي تشهد بصواب ما ذهبنا إليه.

وفي عهد الخليفة المأمون نفسه أوردت رواية تأريخية حادثة مضمونها، أن الخليفة المأمون قلّد إبراهيم بن السندي منصب صاحب الخبر في مدينة السلام، وعياش بن القاسم منصب صاحب الجسر[٢].

وفي أول يوم باشر فيه إبراهيم وظيفته توجه صوب الجسر، ودعا «عياش بقوم من أهل الجرائم للعرض فمرَّ به رجل من الأنباء فشتمه، وردَّ عليه الرجل بالمثل فزاد عياش في شتمه مستعملاً الألفاظ النابية، فجابهه

(١) الروذراوري، ذيل، ج٣، ص ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤١-٤٢؛ الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٣٦.

الرجل بنظير ما سمع من عياش، وسخط إبراهيم بن السندي، على فعل عياش، وقال له ليس لك أن تشتم أحداً وإنما واجبك الامتثال لما أمرت به من غير أن تتجاوز حدود الصلاحيات المخولة لك، وردّ عليه عياش: إنما أنت صاحب خبر ليس إلّا، وواجبك أن تكتب بما تسمع وترى، وليس من اختصاصك التدخل في أمري وأرى من الصواب أن تمسك عن القول وإلّا أمرت من يسحبك من رجليك ويرميك في نهر دجلة، واستشاط إبراهيم غضباً على ما بدر من عياش وقال له: سآتيك من سبأ بنبأ يقين[١] وسأعلمك كيف تنال جزاء اقترافك التطاول. ثم انصرف شطر دار الخليفة المأمون، وعند وصوله خرج إليه فتح، وسأله عن سبب قدومه فأنهى إليه ما فعل عياش به وقصّ عليه القصة بكاملها، ثم أوصل فتح الخبر إلى الخليفة المأمون، فأمر الخليفة بإحضار إبراهيم وإسحاق معاً، وقال ألا تأخذ على أيدي عمالك وتنهاهم عن المساس بالآخرين، ثم اسمعه ما جرى لعياش، فنهض إسحاق قاصداً منزله، فاستدعى المتطاول عياشاً يشتمه بعدما استخف به أشد الاستخفاف، ثم عيّن مع إبراهيم بن السندي (عكرمة أبا عبد الرحمن) و(الحسين القاضي) مع عياش ولم يكن بإمكان كل من عياش والسندي النهي في أصحاب الجنايات إلّا بحضورهما من بعد تلك القصة[٢].

ومن باب تلافي الملابسات وقطع دابر المشاكل التي قد تبرز إلى الوجود بين الفينة والفينة رأى الخليفة من الصواب تعزيز أصحاب الأخبار والجسور بمن يؤآزرهم على حسم النزاعات التي يحتمل وقوعها بينهم في بعض الأحيان ويستدل من ذلك أن الخليفة لم يكن ينطلق فيما يفعل إلّا من الحنكة والحكمة كي لا يحدث ما يسبِّب الإرباك في الوضع الأمني والتّسلسل الهرمي للوظيفة.

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤١-٤٢.

(٢) ابن طيفور، تاريخ، ص ص ٤١-٤٢؛ الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٣٦.

### د- صاحب الخبر على الفقهاء والعلماء:

إن أصحاب الأخبار كانوا يتسابقون فيما بينهم، وكأنهم يسبقون ظلالهم بغية الاستباق إلى اصطياد الأخبار، ثم رفع تقرير عنها إلى الخليفة ليقرر بشأنها ما تستوجبه الضرورة الأمنية.

وفي مثل هذا السِّياق ذكر عن مالك بن أنس ما معناه أن الخليفة المنصور ولي الخلافة، فنشط أصحاب الأخبار في حقل عملهم وأوصلوا عن مالك ما لا يرضي الخليفة، ويوغر صدره عليه، فامتلكه الغضب مما سمع وأرسل رسله ليلاً بقصد إحضاره والمثول بين يديه، ولما وصل مالك إلى مجلس الخليفة وهو خائف مما قد يسمعه مما لا يرضيه إذا بصوت قائل يقول: يا معشر الفقهاء، لقد بلغ أمير المؤمنين ما أخشن صدره عليكم، وأنتم أجدر بكف ألسنتكم عن سوء القول وأولى الناس بلزوم الطاعة والمناصحة في السِّر والعلانية، وإظهار الإخلاص لمن استخلفه الله عليكم[١].

نستدل مما تقدم بعيداً عن البخس والابتزاز، على أن الأخبار كانت تنساب على الخليفة، من قبل أصحاب الأخبار الذين كانوا يوصلونها بالليل وبالنهار، بهدف الحرص على تجنيب الخلافة مما يسيء إليها.

ويبدو من دراسة النصوص التأريخية، أن أصحاب الأخبار استثمروا طاقاتهم إلى أقصى غايات الاستثمار لصالح الخلفاء. وكانت الأخبار تنتقل على أيديهم كالسَّيل الدافق، وهي تحيط بكل ما هبَّ ودبَّ، وتترصد كل نشاط قد يدخل الارتياب إلى قلب الخليفة، بمن فيهم الفقهاء، والمحدثون[٢].

وفي سياق حديثنا عن الفقه والفقهاء لا بد من الإشارة إلى رواية تأريخية

(١) ابن قتيبة، الإمامة، جـ٢، ص١٤٤.

(٢) انظر: قصة الرشيد واستدعائه للفقيه مالك بن أنس، وما دار بينهما مما يثبت كفاءة صاحب الخبر في إيصال أمر الفقهاء إلى الدولة. الحنبلي، شذرات الذهب، مج ١، جـ٢، ص٢٩٠.

أخرى، تتعلق بالقضية ذاتها، مؤداها أن صاحب الخبر سليمان بن يعقوب أخبر الخليفة المأمون بأن بشر بن الوليد قد تأول آية من محكم التنزيل وصرف الدليل عن ظاهر ما نصّت عليه الآية وهو ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1]، زعم أنها نزلت في عمار بن ياسر وقد اخطأ التأويل، إنما دلالة هذه الآية تنصرف إلى معتقد الإيمان ومظهر الشرك، وأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له. ثم أجبر كل من كان على شاكلة بشر على التَّوجه صوب طرطوس، لأن الخليفة كان موجوداً هناك آنئذ، قبل أن تسنى له فرصة الالتقاء بهم والوقوف على أمرهم بشأن الآية المؤولة[2].

هذا وينبغي التنائي عن الغفلة والابتعاد عن الظن، في أن الخليفة المأمون لم يكن مقتدراً على الإحاطة بما يدور في أرجاء الخلافة بل على النقيض من ذلك فإنه كان مقتدر على الإحاطة بكل ما يجري عن طريق أصحاب الأخبار[3]، وكان على سعة عظيمة ومقدار أعظم ودراية أوسع بأسرار الحاشية والعمال والرَّعية، تلك الأسرار التي كانت تخفى على غيره في أغلب الأحايين، وخير شاهد على ما ذهبنا إليه يمكن إقامته اعتماداً على رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم المتعلقة بشأن الفقهاء وأصحاب الحديث القائلين بخلق القرآن[4]، ووجوب إجراء الامتحان لهم واختبار قدراتهم على إيراد المبررات التي تكرس مذهبهم، والمبررات المضادة التي يحشدها القائمون على الامتحان لإبطال ما ذهبوا إليه من آراء بهذا الصدد[5].

---

(١) القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: ١٦٠. ميرخوند، روضة الصفا، ص٤٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٦٤٤-٦٤٥؛ مسكويه، تجارب، مطبعة المثنى، بغداد جـ٦، ص٤٤٦.

(٣) ابن كثير، البداية، جـ١٠، ص ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٤) الأزدي، تاريخ، ص٤١٢؛ مسكويه، تجارب، جـ٣، ص٤٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٤٢٣-٤٢٦؛ ابن خلكان، وفيات، جـ٦، ص٢٧٩.

(٥) البيهقي، المحاسن، جـ١، ص١١٧.

ومن غرائب ما يثير الدهشة ويوقظ الإعجاب، أن سيول الأخبار المتدفقة على الخلفاء لم تبق ولم تذر شيئاً إلّا وقد أتت عليه لتسوقه إلى مسمع الخليفة في خاتمة المطاف[(١)]. ولم تفلت من قبضة أصحاب الأخبار حتى الأحلام والرؤى التي يراها النائمون في نومهم، ومن ذلك ما ألقت به الرواية التأريخية بين يدي البحث، يتمثل في أن الخليفة المتوكِّل ترك الهزل واللَّهو عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م) ولكنه كان يتشبَّه بخلق الجبابرة، وبلغه أن صالح بن أحمد بن حنبل رأى في نومه قائلاً يقول:

**مـلـكٌ يُـقـادُ إلـى مـلـيـكٍ عـادلٍ    متـفـضـلٍ بـالـعـفـوِ لـيـسَ بـجـائِـرِ**

وحين تناهى خبر الحلم المنظوم شعراً إلى سمعه ارتاحت نفسه إليه، وأخذ الانشراح يملأ صدره ويملك عليه قلبه وهو يهتز فرحاً بما سمع[(٢)].

ومن الشواهد المثبتة التي لا يرقى إليها الشك في قدرة أصحاب الأخبار على تصيُّد الخبر، في كل الظروف والأحوال ما ذكره الحنبلي قائلاً: إن أبا بكر محمد بن الحسن بن دربند عتاهية الأزدي العلام اللُّغوي صاحب التصانيف الكثيرة قد انتقل إلى بغداد زمن الخليفة المقتدر بالله عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، وما إن علم صاحب الخبر بمقدمه واستقراره في مدينة السلام، حتى أنفذ خبره إلى الخليفة، ولما تثبت من مكانته العلمية حدّد له مرتباً شهريًّا موفياً برغد العيش والمتطلبات الحيوية ذات الشعب المتباينة في الأهداف والأغراض[(٣)].

وفي عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) أحضر بين يدي الحاكم الفاطمي المعز[(٤)]

---

(١) م.ن، جـ١، ص١١٧؛ مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص٣٦٤؛ ابن القفطي، تاريخ الحكماء، (ليبزك: ١٩٠٣م)، ص٣٢٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ص ٤٨٤-٤٨٥؛ الحنبلي، شذرات، مج ١، جـ٢، ص١١٥.

(٣) الحنبلي، شذرات، مج ١، جـ٢، ص٢٩٠.

(٤) المعز العبيدي: أبو تميم معد الملقب المعز لدين الله، بن منصور بن القائم بن المهدي =

الفقيه أبو بكر النابلسي المعروف بالزهد والتقوى، بعد أن أبلغه صاحب الخبر قول النابلسي الذي جاء فيه: «لو أن عندي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بواحد منها». وبعد الاستفسار عما صدر منه اعترف النابلسي بمقولته، فتفجر بركان الغضب عليه، فأمر بالتشهير به في اليوم الأول، ثم إلهاب ظهره بالسياط في اليوم الثاني، وبسلخه في اليوم الثالث. وقد كلّف يهوديًّا بتولي عملية السلخ فقام المكلَّف يلبي رغبة الخليفة والضحية بين يديه، ولما بلغ السلخ تلقاء قلبه طعنه بسكين طلباً للإسراع بموته وخلاصه من العذاب فمات في ساعته على أثر الضربة[١].

## هـ- صاحب الخبر على الشعراء والمعارضة والسجون:

من المعلوم أن صاحب الخبر كان شغوف القلب بصيانة مسؤوليته من الخلل، ولم يهوَ قلبه الأمور قط لصالح أية جهة ضد سلطة الخلافة. بل كان متفانياً إلى أبعد الحدود في تنفيذ ما أنيط به من دور لصالح تكريس مصالح الخليفة. وكان نطاق العمل يتسع على مرّ الأيام، ليشمل شتى المناحي المختلفة الناجمة عن تقلباتها وثوابتها بفعل التَّجدد القائم على التغييرات والتبدلات المتلاحقة بحكم الأحداث المتوالية ليشمل هذا الاتساع الشعراء أيضاً. إذ يروي لنا (ابن واصل الحموي) أن معن بن زائدة دخل على الخليفة المنصور، وبعد حوار مستفيض بينهما قال له الخليفة المنصور: «بلغني عنك شيء ذو بال، فلولا مكانتك عندي وحسن رأيي فيك لغضبت عليك». فردّ عليه (معن): «وما ذلك يا أمير المؤمنين؟»، قال: «إعطاؤك مروان بن أبي حفصة الشاعر ألف دينار لقوله فيك:

**معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفاً على شَرَفٍ بنو شيبانِ»**

---

= عبيد الله، تولى الخلافة عام ٣٤١هـ، وتوفي سنة ٣٦٥هـ. انظر: ابن خلكان، وفيات، جـ٥، ص ص ٢٢٤، ٢٢٨.

(١) ابن كثير، البداية، جـ١١، ص٢٨٤.

فقال له معن: «والله يا أمير المؤمنين ما كافأته على ما ضمن وإنما كافأته على قوله في أمير المؤمنين[1]:

**ما زلتَ يوم الهاشمية معلماً بالسَّيف دون خليفة الرحمنِ**
**فَمَنَعْتَ حَوْزَتَهُ وكنتَ وِقاءَهُ مِنْ وقعِ كلِّ مُهَنَّدٍ وسنانِ»[2]**

فندم الخليفة المنصور على ما كاد أن يصيب معناً من الغبن، وصمت قليلاً ثم نطق قائلاً: «ألهذا السبب كافأته؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين. ولولا مخافة النقمة[3] عليّ من قبلكم لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال بحذافيرها، زيادة في إجلاله بسبب حسن مقالته فيك». واغتبط الخليفة المنصور بقول معن واستولى السرور على أرجاء نفسه وأغوارها، وقال: «لله درك من أعرابي ما أهون عليك ما يعز على الرجال من أهل الحزم والعزم»[4].

لا مناص من التيقن من أن صاحب الخبر كان محيطاً بكل ما يحدث تحت الشمس المشرقة على أرجاء الخلافة، ومخلصاً غاية الإخلاص في أداء دوره المسند إليه، ألا وهو التقاط الأخبار أيًّا كان نوعها، ثم إيصالها ضمن تقارير مرفوعة إلى الخليفة للبتِّ فيها، كما كان الحال مع معن والخليفة المنصور[5].

وأورد المؤرخون رواية في زمن الخليفة المنصور مقتضاها، أن صاحب الخبر رفع إلى الخليفة المنصور تقريراً تضمن اتِّهام مطيع بن إياس

---

(١) معن بن زائدة، بن عبد الله بن مطر بن شريك، الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق، ناجي حسن، (القاهرة: ١٩٨٦م)، ص٥١١.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٠، ص٩٠؛ الحموي، تجريد، ق٢، جا، ص١١٤.

(٣) م.ن، ق٢، جا، ص١١٤.

(٤) الحموي، تجريد، ق٢، جا، ص١٥٢٤- ١٥٢٥.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٣، ص ص ٣١٧-٣١٨.

الشاعر بالزندقة[1]، وعظم شأن التهمة في نظر الخليفة، لكون مطيع يعاشر ابنه جعفراً وثلة من أهل بيته، وقيل له إنه موشك على إفساد دينهم وحملهم على اعتناق مذهب الزندقة، وتدخل المهدي لصالح مطيع مبرئاً ذمته مما هو منسوب إليه قائلاً: «أنا به عارف، أما الزندقة فإنه ليس من أهلها، إلّا أنه فاسق ضعيف الدين، لاستحلاله المحارم». وقال الخليفة المنصور للمهدي: «عليك إبعاده عن جعفر وسائر الأهل». ونزولاً عند رغبة الخليفة[2] استقدمه المهدي، وقال له الأقوال الغليظة من قبيل قوله «يا خبيث الدين يا فاسق، قد أفسدت أخي ونفراً من أهلي وغررت بهم حتى طار سوء صيتهم في الناس، بسبب أقوالك وأفعالك، ولولا سعي لدى الخليفة إلى إنقاذك بتبرئة ذمتك، مما أشيع عنك لضرب عنقك». فسأل مطيع عن سبب ذلك كله، فأجاب المهدي: أنك تعاقر الخمرة وتفسد في القول بتأثيرها، وإنك تتماجن على السؤال وتستهزئ بالناس، كما ينص على ذلك تقرير صاحب الخبر إلى الخليفة». فاستغرب مطيع وأدى أغلظ الأيمان[3] وقال: «إن ذلك ليس من فعلي ولا من شأني، عدا مرة واحدة عن غير قصد أو سابق إصرار، إذ اعترض سبيلي رجل متسول أعمى، وبينما أنا عابر الجسر على بغلتي ظنَّني المتسول الأعمى، أنني من الجند ورفع العصا بوجهي ثم صرخ قائلاً: اللهم سخِّر الخليفة، لأن يعطي الجند أرزاقهم ليتمكنوا من شراء الأمتعة من التجار، فتزداد أرباحهم وتجب فيها الزكاة فيتصدقون علي من أموالهم، فامتعظت من صراخه ورفعه العصا

---

(١) ابن شاكر الكتبي، فوات، ج٣، ص ص ٤٠٠-٤٠١. الصفدي، الوافي، باعتناء س. ديدريتيغ، فرانز شتايز (القاهرة: ١٩٧٤م)، ج٣، ص٣٠٠؛ سميرة اللَّيثي، الزندقة والشعوبية، (القاهرة: ١٩٦٨م)، ص١٩٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٢، ص٨٣. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٣، ص٢٢٥. سميرة الليثي، الزندقة والشعوبية، ص١٩٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٢، ص٨٣. الثعالبي، ثمار القلوب، ص ص ١٢٨-١٢٩.

بوجهي، وضيَّق الطريق إلى حد كاد معه سقوطي في الماء، فقلت يا هذا ما رأيت أكثر فضلاً منك، استعن بالله على الرزق. ولا تجعل هذه الحولات والوسائط سبيلاً إلى نيل بغيتك، لأن هذه المسائل فضول، فبعث المشهد الضحك في الناس، وإن الذي رفعه صاحب الخبر لا يبرر التهمة التي نسبت إليّ». وهنا انشرح صدر المهدي وأرخى حبل الضحك متمتعاً بسماع القصة المضحكة، التي استعذبها وأخلى على أثرها سبيله ونجا من ضرب العنق[1].

لم يتوقف السعي إلى تضييق الخناق على كل من مسَّ بالخليفة مسًّا خفيفاً أو شديداً، بل دارت الرَّحى وهي تسحق بلا هوادة كل من حامت حوله شبهة أو ألصقت به التهمة، وكان حظ الشعراء في العقوبات وافراً كغيرهم من الفئات الأخرى، لقد بلغ المهدي من قبل صاحب الخبر، أن بشاراً قد هجاه وشهد قوم له عليه بالزندقة فأمر بضربه حتى الموت، وقد طويت على أثر الضرب صفحات عمره التي بلغت نيفاً وتسعين سنة[2].

ضرب الخليفة الرشيد أبا العتاهية وحبسه عام (١٩٢هـ: ٨٠٧م) بسبب تقرير رفعه صاحب الخبر عنه، وضمنه ما لا يرضي الخليفة الذي قرّر أن يوكل به في السجن صاحب خبر يصغي إلى ما يصدر عنه من أقوال، ثم يقدِّم بها تقريراً إلى الخليفة، وذات يوم سمع صاحب الخبر ينشد أبياتاً منها[3]:

**أمــا والله إنَّ الــظُّــلْــمَ لــؤمٌ، وما زال المسيء هو الظلومُ**

**إلى دَيَّانِ يومِ الدين تمضي وعند الله تجتمعُ الخصومُ**

---

(١) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ص ١٢٨-١٢٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٣، ص٢٢٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ٣، ص ص ٢٣٨-٢٣٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٧، ص١١٢، سبط قنيتو الإربلي، خلاصة، ص١٠٢؛ أرسن موسى رشيد، الشرطة في العصر الأموي (الكويت: ١٩٩٠م) ص١٧٢.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ٤، ص٥٣؛ الحموي، تجريد، ق١، ج٣، ص١١٩٥. ابن كثير، البداية، ج٩، ص٢١٨.

ودوّنها الموكَّل به ثم أرسلها إلى الخليفة الرشيد، وعندما تلاها رقّ قلبه للشاعر، فندم على ضربه وحبسه فاستدعاه وأكرمه بمكافأة قدرها ألف دينار.

وتنقل رواية تأريخية أخرى أن أبا العتاهية حين أكثر في التشبيب بجارية الخيزران تدعى عتبة، شكت إلى مولاتها الشناعات التي لحقتها بسبب التغزُّل بها[1]، ولم تطق هذه الحالة فأخذت تبكي بين يديها، وهي تشكو أمرها إليها، وبينما هما على تلك الحالة دخل عليها الخليفة المهدي، ورأى المشهد الذي أثار فيه نوع من السخط، فسأل عن خبرها، فأخبرت الجارية بالقصة، وعلى الفور أمر الخليفة المهدي بإحضار الشاعر، ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل في عتبة[2]:

**الله بيني وبين مولاتي أبدت في الصدّ والملاماتِ**

ثم قال ومتى وصلتك حتى تشكو صداها عنك؟ قال الشاعر: يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل قلت:

**يا ناقُ حثي بنا ولا تنهي نفسك فيما ترين راحاتِ**

ثم نكَّس المهدي رأسه وهزّ قضيباً كان بيده، يريد ضرب الشاعر به، وبعد قليل رفع رأسه، وقال أأنت القائل[3]:

**ألا ما لسيدتي ما لها أدَلَّتْ بأجملِ إدلالِهَا**

واسترسل الخليفة يطرح عليه السؤال تلو السؤال والشاعر يفحمه في الإجابة عن كل سؤال، ولما عجز الخليفة المهدي عن مساجلته الكلامية أمر

---

(١) المسعودي، مروج، ج٣، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٢) المسعودي، مروج، ج٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) م.ن، ج٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦.

بجلده حدًّا يقترب من إقامة الحد الشرعي، ثم أمره بالانصراف، فلقيته عتبة، وهو على تلك الحال فقال[١]:

بخٍ بخٍ يا عتبُ من أجلكم    قد قتلَ المهديُّ فيكم قَتِيلا

فاغرورقت عيناها بالدموع التي سالت على وجنتيها، ورآها الخليفة المهدي تبكي وسأل عن سبب بكائها، قيل له: إنها عطفت على حال الشاعر وهو مجلود، وأراد المهدي مداواة قلب الجارية وغسله مما علق به من حزن على الشاعر. فأمر له بخمسين ألف درهم، لكن الشاعر فرق المبلغ على من كان بالباب، وتلقف صاحب الخبر ما جرى من تفريق المبلغ، فأعلم الخليفة به من فوره فسأل الشاعر، وقال: «ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها؟» فأجابه: «ما كنت لآكل ثمن من أحببت». فعوض له بمثيله من المال، وحلف عليه أن لا يفرقه هذه المرة فأخذ وانصرف[٢].

وفي مجال سياق الحديث عن جعفر بن يحيى البرمكي ما نظمه الشاعر عمرو بن كلثوم من أبيات بحق جعفر لأن الخليفة كان قد هدر دمه[٣].

جاء على لسان المؤرخين بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكي وصلبه، أن الرقاشي[٤] الشاعر مرّ بجثته المعلقة على جذعٍ فهاله المشهد، ورقى لحاله بحكم ميزن الحرارة الذي يقاس به العطف والشفعة على من نزلت به

---

(١) م.ن، جـ٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦؛ أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، شكري فيصل، (دمشق: ١٩٦٥م) ص١٣٦؛ سهام عبد الوهاب الفريح، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، (الكويت: ١٩٨١م) ص١٣٦.

(٢) المسعودي، مروج، جـ٣، ص ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، مج ٩، جـ١٧، ص٢٧.

(٤) الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وهو من أهالي البصرة، توفي سنة ٢٠٠هـ، انظر: الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص ص ١٨٣-١٨٤.

العقوبة، وهو ميزان حساس لا يسمح بضياع أسرهما لفرط حساسيته، فوقف يبكي أمرّ بكاء وأنشأ ينشد فيه قصيدة منها هذا البيت[١]:

**أَمَـــا واللهِ لـــولا خـــوفُ واشٍ    وعـيـنٌ لـلـخـلـيـفـةِ لا تـنـامُ**

ولما كان أصحاب الأخبار واقفين بالمرصاد ذاهبين إلى أرحاب المدايات وأفسح الآماد لترصُّد ما يقع تحت أسماعهم وأبصارهم، لموافاة الخليفة به كتبوا إلى الخليفة الرشيد قصة الشاعر مع المصلوب، فأمر بإحضاره، ولما وقف بين يديه سأله الخليفة: ما حملك على إنشادك هذا المديح في جعفر؟» فقال: «يا أمير المؤمنين حملني على ذلك جميل إحسانه الذي طوّق به جهدي، فما ملكت نفسي حتى قلت ما قلت»، قال: «كم كان يجري عليك»، قال: «ألف دينار كل سنة»، فقال: «إنّا قد ضاعفناه لك»، فابتسم له الحظ بدلاً من أن يمرره على السيف ويجري كأس المنون الزئام[٢]. لا مراء في أن أذرع أصحاب الأخبار كانت خبيرة وماهرة في مطاولة المستجدات واكتنافها وإطباق القبضة عليها، ثم صياغتها ضمن تقارير ترفع إلى الخلفاء ليكونوا على بيِّنة منها، لإصدار التوجيهات المتضمنة كيفية التعامل معها. كما يدل على ذلك الحوار الذي دار بين الخليفة الرشيد ويزيد بن مزيد الذي نظم في مدحه بعض الأبيات، فوصل الخبر إلى الرشيد قبل وصوله إلى المعني، ونستمد هذا الدليل من رواية تأريخية ذكرت، أن يزيد بن مزيد، دخل على الخليفة الرشيد، فسأله من القائل[٣]:

**لا يعبقُ الطِّيبُ خدَّيْهِ ومفرقَهُ    ولا يُمَسِّحُ عينيه منَ الكَحَلِ**
**قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها    فـهنَّ يَتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَلِ**

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص ص ١٨٣-١٨٤؛ الحموي، تجريد، ق ٢، جـ١، ص ١٧٣١-١٧٣٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص١٨٣-١٨٤؛ الصفدي، الوافي، جـ٢، ص١٢٥.

(٣) الحموي، تجريد، ق٢، جـ٢، ص ص ١٩٩٢- ١٩٩٣.

قال: «لا أعرف الناظم يا أمير المؤمنين»، فرد عليه الخليفة الرشيد: «كيف لا تعرف شعراً قيل في مدحك وتجهل ناظمه؟»، فاحمر خجلاً لإحساسه بحراجة الموقف، وانقلب على عقيبه قاصداً منزله، والخجل يثقل كاهله، ولما انتهى به المسير إلى داخل داره، دعا حاجبه وقال: «من بالباب من الشعراء؟» قال: «مسلم بن الوليد»، وقال للحاجب: «لماذا حجبته عني ولم تعلمني بوقوفه على بابي؟»، قال الحاجب: «أخبرته بأنك معسر الحال لقلة المال، وطلبت منه الإمساك والإقامة أياماً معدودات إلى أن يرفرف الفرج بأجنحة اليسر، فلم يرض عن مقاله[1]:

**أما كَفَى البينَ أن أُرْمَي بأسْهُمِهِ    حتّى رماني بلحظِ الأعْيُنِ النُّجْلِ»**

وعندما شنف الإنشاد سمعه أمر له بخمسين ألف درهم، وطلب منه إسعافه بقبول الاعتذار، ثم أسر الحاجب رهن ضيعة على مائة ألف درهم، على أن يدفع خمسين ألفاً للشاعر وخمسين ألفاً لنفقته الذاتية[2].

وما هي إلّا سويعات حتى حطّ الخبر عند الخليفة الرشيد عن طريق صاحب خبره، فاستحسن الموقف وطربت له نفسه لما فيه من رفيع القيم وبديع الشيم، فأمر ليزيد بمائتي ألف درهم، ووصاه بأن يهب خمسين ألفاً للشاعر، ويزيده خمسين ألفاً ليصبح المبلغ الإجمالي الموهوب للشاعر مائة ألف درهم، وينتفع يزيد بالبقية الباقية التي قدرها مائة ألف درهم لنفقته الخاصة. وهذا الإكرام يعبر بلسان الحال قبل المقال عن استمساك الخلف بعلو همة السلف، في إظهار الإجلال للمواقف التي تستدعيه وتستلزمه[3].

إن الخليفة الرشد كان عليماً بكل ما يخص الشعراء والأدباء في حياتهم ومماتهم، من ذلك ما يرويه هشام بن عبد الملك الخزاعي، ويقول: «كنا

---

(١) الحموي، تجريد، ق٢، ج٢، ص ص ١٩٩٢-١٩٩٣.

(٢) م.ن، ق٢، ج٢، ص ص ١٩٩٢- ١٩٩٣.

(٣) م.ن، ق٢، ج٢، ص ص ١٩٩٢- ١٩٩٣.

بالرّقة مع الخليفة الرشيد، فكتب إليه صاحب الخبر وفاة كل من الكسائي[١] وإبراهيم الموصلي والعباس بن الأحنف في وقت واحد»، فأمر الخليفة الرشيد ابنه المأمون بالخروج للصلاة بهم[٢].

ومما احتفظ به التأريخ من الروايات عن الشعر والشعراء، ما جرى لأبي نواس وسليمان بن أبي جعفر، مع الخليفة الأمين، إذ تروي إحدى الروايات أن أبا نواس نادم الأمين، وله معه أخبار وأشعار كثيرة، وأراد فضل بن سهل، تجنيد بعض أشعار وأخبار أبي نواس مع الخليفة الأمين، وحشدها للطعن في الخليفة والسخرية منه، بسبب كيفية احتمال هذا النمط من الشعر والشعراء خاصة وأن أبا نواس قد أطلق عنان لسانه فيما لا ينبغي قوله[٣].

وبلغ ذلك الخليفة الأمين فأصر على طلب أبي نواس، وحين حضر وجد سليمان بن أبي جعفر حاضراً قبله، لأن صاحب الخبر قد نقل للخليفة عنه ما لا يقلُّ إسفافاً عن أبيات أبي نواس نجتزئ من نظمه[٤].

وقد أغلظ الخليفة الأمين القول لسليمان وأطلق عليه سيلاً من أقبح الشتم وأقذعه بسبب تلك الأبيات، غير أن سليمان تبرأ مما نسب إليه، فشهد بعضهم أنه وضع قدماً في يوم ممطر لاستقبال القطر، وما إن نزل في

---

(١) الكسائي، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي الكوفي، انظر: ابن خلكان، وفيات، ج٣، ص٢٩٥.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، ج٦، ص٢٢٢.

(٣) اسقني خمراً وقلْ لي هو الخمرُ ... ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
انظر: الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) ولا زادني تيهاً على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر
ولو لم أقل فضلاً لكانت صيانتي ... فمن عن جميع الناس حسبي من الفخر
ص ص ٣٠٧-٣٠٨؛ محمد جابر عبد العال، حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول، (القاهرة: ١٩٥٤م) ص ص ٢٦٩-٢٧٠.

القدح قدر من القطر حتى شربه، ثم قال مستهزئاً: «يزعمون أن مع كل قطرة ملكاً[1]. فكم ترونني شربت من الملائكة أيها الناس؟»، ولما سمع الخليفة شهادة الشهود، أرسله إلى سجن مع قوم متهمين بالزندقة، وبينما هو في محبسه قال أبياتاً منها:

**ألا العذر يقبل لي فتقبل توبتي منهم ولا يفرضون حلف يميني**
**أما الأمين فلست أرجو دفعه عني فمنْ لي اليوم بالمأمون؟**

وما هو إلا ردح من الزمن حتى استقرت الأبيات على سمع الخليفة المأمون الذي كان بمرو آنذاك فقال معقباً: «والله لئن لحقته لأثريته إثراءً لا يتصوره أحد»، لكنه مات قبل دخول المأمون مدينة السلام[2].

يعرف القاصي والداني زمن العباسيين لكثرة إلمامهم بأنشطة أصحاب الأخبار، إن الأسرار كانت تنتقل إلى الخلفاء مهما بلغت درجة التكتُّم عليها، لأن أولئك جعلوا نصب أعينهم ملاحقة الخبر، وبعد استحصاله كانوا يسوقونه إلى الخليفة. ففي زمن الخليفة المأمون حدثت طريفة تثير الدهشة والغرابة من جهة، وتنطق بفاعلية صاحب الخبر، وتمكُّنه المنقطع النظير في أداء دوره من جهة أخرى، وتلك الطريفة تبرز معالمها في قصة شخوصها أحمد بن صدقة المغني وخالد الكاتب، والخليفة المأمون وإحدى جواريه، ويتجسَّد موجز القصة في أن أحمد بن صدقة مرَّ بخالد الكاتب يوماً، وطلب منه نظم بضعة أبيات ليغنيها في حضرة الخليفة المأمون، فقال الشاعر للمغني: أي حظ لي في ذلك، إنك ستفوز بالمكافأة فوعده أن سيقاسمه إياها»، فنظم له بعض الأبيات منها هذان البيتان[3]:

---

(١) الجهشياري، الوزراء، ص ص ٢٤١-٢٤٢.
(٢) م.ن، ص ص ٢٤١-٢٤٢.
(٣) ابن خلكان، وفيات، جـ١ ص ص ٢٣٤- ٢٣٥؛ الحموي، تجريد، ق٢، جـ٢، ص ص٢٠٢٩- ٢٠٣٠.

تقول سلاماً فمن المُدْنَفُ　　ومن عينه أبداً تذرفُ
من قلبه قلقٌ خائفٌ　　عليكَ وأحشاؤه ترجفُ

ولما حفظ المغني صاغ له لحناً شجيًّا تطرب له القلوب وتهتز له النفوس، وفي غده حضر وبيده رقصة مكتوب عليها بالذهب يا سيدي سلوت، ثم ابتدأ يغني بالشعر الذي نظمه خالد الكاتب، وما إن باشر الغناء حتى احمرت عينا الخليفة المأمون، ودارتا في رأسه من شدة الغضب، وقذفه بشتم مؤلم، وقال له: «هل لك علي وعلى حرمي صاحب خبر، يوفيك بأسرار داري»؟ فاندهش المغني من رد فعل الخليفة غير المتوقع فسأله المغني[1]، والحيرة تأخذ منه كل مأخذ: «ما سبب ذلك يا سيدي؟» فأجاب الخليفة المأمون: «من أين عرفت قصتي مع جاريتي، حتى غنّيت في معنى ما بيننا من الجفوة». فحلف المغني على أنه لم يكن يعرف شيئاً مما أثاره الخليفة، وقصَّ عليه قصته مع خالد الكاتب، ولفرط إعجابه بالطرافة التي نسجها عنصر المصادفة ضحك ضحكاً شديداً فأمر له بخمسة آلاف درهم ولخالد الكاتب بمبلغ مماثل[2].

يحكى أن الخليفة المأمون قد بلغه قول علي بن جبلة لأبي دلف:

كل من في الأرض من عربٍ　　بين باديه إلى حضرهْ
مستعير منك مكرمة　　يكتسبها يوم مفتخرهْ

استشاط غضباً وتفجَّر سخطاً عليه، وقال اطلبوه حيث كان، فنشط أصحاب الأخبار في طلبه لكنهم لم يظفروا به، لأنه أوى إلى الجبل، ولما أحس بالملاحقة هرب إلى الجزيرة، غير أن الكتب في طلبه، قد غطت الآفاق وعلم أن الملجأ غير آمن لا يوفي بإنقاذ الروح من الإزهاق فيمم شطر الشام، بيد أن عيون الخليفة المنبثة في الأرجاء دون استثناء كانت

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ٢٢، ص ص ٢١٦- ٢١٧.

(٢) م.ن، مج ١٩، ص٣١٦.

متربصة به، ولم يبق أمامه حبل نجاة يستمسك به بغية الإنقاذ، فألقت القبض عليه وسلمته إلى الخليفة المأمون، ولما ساقه قدره إلى الخليفة، وأوقفه بين يديه، قال له: يا بن الخنساء ألست القائل للقاسم بن عيسى كذا وكذا[1]، ونعني البيتين السابق ذكرهما في سياق الحديث، وجعلتنا نستعير المكارم منه، وفي معرض الدفاع غير المقنع عن نفسه راح يريد الحجة تلو الحجة، يلوذ بها طمعاً في النجاة منها، قوله للخليفة أنتم أهل البيت لا يقاس بكم أحد، لأن الله ﷻ فضَّلكم على خلقه واختاركم لنفسه، وإنما عنيت في القاسم أشكاله وأقرانه، فردّ عليه الخليفة قائلاً: والله ما استثنيت أحداً من الكل، ثم قال سلوا لسانه من قفاه[2].

يروي ابن واصل الحموي أن الخليفة المتوكِّل قد بلغه نبأ احتراق الحسن بن عبد الملك بن صالح المفضي إلى موته، بوساطة صاحب الخبر، لكن علي بن الجهم كذَّب مضمون التقرير، وقال له: إنه لم يمت بفعل الاحتراق، بل مات قتلاً على يد العامل، وإن هذا الخبر مختلف على أساس المصانعة والمداهنة، وصاحب الخبر غير صادق فيما أورد، لوقوعه تحت تأثير المحاباة، فألزمه بيته، وبعد برهة بلغه بعضاً من هجائه له فحبسه انتقاماً منه، عقاباً على سوء صنيعه، لا سيما وهو صاحب خبره، وكان عليه أن يكون صادقاً في النقل وملتزماً بحسن الأدب تجاه ولي نعمته[3].

وفي زمن الخليفة القادر بالله يورد صاحب خبره، أبو عبد الله البشير البصري، رواية موجزها فيما نورده، إذ قال وقع بين أبي الحسن بن سكرة الهاشمي الشاعر وزوجته بنت أبي تحف الهاشمية بسبب ميله لامرأة تدعى خمرة، فشكت الزوجة زوجها عند نقيب الهاشميين أبي القاسم بن أبي تمَّام

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٩، ص٣١٦.

(٢) م.ن، مج ١٩، ص٣١٦.

(٣) م.ن، مج ١٠، ص٢٢٤؛ الحموي، تجريد، ق ١، ج٣، ص١٩٥.

الزينبي[1]، وعند اطّلاعه على حيثيات الشكوى أحضر زوجها فألزمه أحد الاختيارين الإرضاء أو الطلاق. وقال الزوج ما الباعث على رضاك، فقالت له احلف بالطّلاق على أن لا تجتمع إليها ولا تقربها، فإن فعلت استحق الانصراف عنك، وقد فعل ما طلبت منه بحضور النقيب، وأضاف أنه سيهجوها كل يوم وغدت زوجته لا تدعه يخرج إلى أن يهجوها تنفيذاً لما قطعه على نفسه من عهد، ثم تزوجت خمرة من رجل يعرف بابن طومار واتفق أن دخل ابن طومار هذا على أبي إسحاق الطبري الشاهد المقرئ المحدث، ثم دخل بعده ابن سكرة[2] وهو لا يعرف ابن طومار المتزوج من خمرة. فسأله أبو اسحاق تحب خمرة وزوجها ابن طومار حاضر، ما لديك اليوم من أخبار «فرد ابن سكرة أمسكتني زوجتي الساعة، ولم تدعني حتى قلت في خمرة أبياتاً من الشعر»[3]. ولما فرغ ابن سكرة الهاشمي إنشاده الأبيات المشار إليها، قال أبو إسحاق هاهنا زوج خمرة، وقد سمع ما قلت وأشار إليه تعريفاً به فاستحى ونكّس رأسه، ثم خرج يجر أذيال الخجل والاستحياء[4].

إن دائرة مساعي أصحاب الأخبار ومحاولاتهم المتواصلة، كادت تستنفد أقصى مدايات الجهد، الإحاطة بكل شعب النشاطات على اختلاف أوجهه في خدمة الخلفاء، وقد شملت مساعيهم هذه مختلف الحقول بما فيها المعارضة، ففي عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) اشتدت ملاحقة الزنادقة ومطاردتهم من قبل الخليفة موسى الهادي الذي قتل منهم خلقاً كثيراً، وكان هنالك رجل

---

(١) الصابي، الهفوات، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) ابن سكرة: هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي الشاعر المشهور. وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي. انظر: ابن خلكان، وفيات، مج ٤، ص٤١٠.

(٣) الصابي، الهفوات، ص ص ٣٧٧- ٣٧٨.

(٤) م.ن، ص ص ٣٧٧- ٣٧٨.

يدعى يقطين أراد أداء فريضة الحج، ووصل هناك لذلك الغرض، وبينما هو يطوف حول الكعبة المشرفة، نظر إلى الناس وهم يهرولون أثناء طوافهم بالكعبة، فأثار منظرهم انتباهه، وقال ما أشبه هؤلاء الحجيج المهرولين بدوس البيدر، ولما شاع هذا الحديث في أوساط الناس[١]، ووصل خبره إلى الخليفة الهادي عن طريق صاحب الخبر، ولم يكن بد من إنزال العقاب به، لأن هذا القول فيه الاستخفاف كل الاستخفاف بمناسك الحج، فاقتص منه الخليفة وأمر بقتله[٢].

إن الهاربين من وجه العدالة كانوا أشد ما يخافون أصحاب الأخبار الذين كانوا مبثوثين في كل مكان، وكانت لهم القدرة الفائقة لاصطياد الهاربين، وعليه فقد أورد المؤرخ الأصفهاني رواية مفادها أن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن هرب إلى إفريقيا وكان أشد ما يخافه رجال الأخبار وسرعة نقلهم المعلومات للدولة، لأجل ضبطهم[٣].

ولم ينقطع تواصل حلقات رفع التقارير إلى الخليفة، من قبل أصحاب الأخبار المقتفين آثار المعارضين والمتتبعين تنقلهم، أو أماكن اختبائهم، فقد قيل إن أصحاب فخ حين قتلوا، نجا يحيى بن عبد الله من القتل، وأنشأ يطوف هنا وهناك بحثاً عن ملجأ يلوذ به، وحين استقر به المقام في بعض النواحي، علم الفضل بن يحيى البرمكي بموضع اختفائه، فأشير عليه بالانتقال شطر الديلم، وكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد فمضى متنكراً حتى ورد الديلم. لكن صاحب الخبر الماهر في اصطياد المعارضين علم بسره، فبلغ الخليفة الرشيد خبره، وأرسل الفضل لجلبه الذي احتال عليه،

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٩٠؛ ابن سبط الأربلي، خلاصة، ص١٠٦.

(٢) ابن سبط الأربلي، م.ن، ص١٠٦.

(٣) للمزيد عن تلك القصة، انظر: مقاتل الطالبيين، ص ص ٣٢٤-٣٢٥. ميرخوند، روضة الصفا، ص ص ٤٥٠- ٤٥١.

وأتى به إلى الخليفة الرشيد، وبعدما مثل بين يديه نظر في أمره، وقرر إخلاء سبيله[1].

هذا وإن اشتداد الخليفة الرشيد في التعامل مع المعارضين لم يعرف حدوداً ينتهي إليها، فقد صبّ جام غضبه على كل من ثبتت معارضته لسلطته أيًّا كان جنس المعارض ونوع المعارضة بمن فيهم الزنادقة أيضاً، فقد أخبر صاحب الخبر بذلك عام (١٨٧هـ/ ٨٠٢م)[2].

وفي نفس السياق يذكر أن الحليفة الرشيد، قال للسَّندي بن شاهك، وهو متولي الجسرين في بغداد، وكل بدار البرامكة سرًّا وكان الخليفة يعمر الأنبار في تلك الأثناء، ومعه جعفر البرمكي، فلبي طلب الخليفة، وأمسى ابن شاهك في مجلس الجسر في الجانب الشرقي، يتوقع ورود الأخبار عليه من قبل الخليفة الرشيد، فكلَّف رجلاً يراقب من سيأتي بما يأمر به، وإذا بفرنق على بغلةٍ تحته خِرْجٍ فيه جثة جعفر، وقد شطرت شطرين، ومعه كتاب يأمر فيه الخليفة الرشيد بصلب كل شطر على أحد الجسرين ففعل ذلك[3].

كذلك أشار المؤرخ الطبري رواية، مفادها شدّة نشاط الخليفة وأصحاب أخباره في تتبع المعارضة أيًّا كانت ميولها، ما دامت تشكل خطراً على الخلافة، ففي عهد الخليفة الرشيد كان آل أبي طالب أكثر الناس خطراً على الدولة، مما دفع بالرشيد إلى تتبع أخبارهم كلها، وكان أصحاب الأخبار يأتونه بكل صغيرة وكبيرة عن عبد الله بن الحسن بن الحسن مما دفع بالخليفة أخيراً إلى الحجر عليه في بيت معيّن أشبه ما يكون بالإقامة الجبرية في يومنا هذا[4].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٤٢٢. الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٤٢٢- ٤٢٣. الأصفهاني، مقاتل، ص٣٠٩.عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، (بيروت: ١٩٥٦م)، جـ١، ص١٧٤.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٩٧. الصفدي، الوافي، جـ٩، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٩٧-٢٩٩. الجهشياري، الوزراء، ص١٨٨.

(٤) الجهشياري، الوزراء، ص١٨٨.

تذكر رواية تأريخية لصاحب الأخبار هي أن إبراهيم السَّندي، قال: إنه وجد رقاعاً منتشرة في طرقات بغداد، وكان فيها شتم وكلام قبيح موجه إلى الخليفة، فكره رفعها لما فيها من فرط سوء الأدب، لكنه خشي من أن يعرف بها صاحب الخبر، فيضفي بها إلى الخليفة، ويصبه بعد ذلك من المكروه ما لا يطاق، ودرءًا للحالتين معاً، كتب إلى الخليفة المأمون يخبره بما وجد، فردَّ عليه الخليفة مكاتبة وكتب له بخط يديه، لا تولوا هذا الأمر أكثر مما يستحق لأنك إن فعلت ذلك، اتسع الخرق وتفاقم الوضع، وما عليك إلّا أن تأمر أصحاب الأخبار بجمعها وتمزيقها، لأن هذا الفعل لا يولد ما نخشاه، وسيزيل آثاره دون عناء وبناءً على أمر الخليفة تمّ الاستجابة والتلبية[1].

ونورد حادثة أخرى تتلخّص في أن الخليفة المأمون بلَّغه صاحب الخبر خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة، لذهابهم مذهب ماني في الاعتقاد، فأمر الخليفة بإحضارهم إلى بغداد، بعد اطِّلاعه على التقارير المرفوعة إليه، عمّا يجري حتى خارج بغداد وبعد اعتقالهم ومثولهم بين يدي الخليفة المأمون طفق يناديهم فرداً فرداً سائلاً عن مذهبهم، وإذا ثبت انحرافهم عن الإسلام وخروجهم عن مبادئه وتعاليمه، يدعوهم إلى البراءة من الزندقة مظهراً لهم صورة ماني، طالباً من كل منهم أن يبصق عليها ويتبرأ من صاحبها، فأبى مروره على السيف، وبقي الطفيلي وحده، ينتظر مصيره، فسأل الخليفة صاحب الخبر عن قصة الطفيلي الذي برهن للخليفة بما لا يقبل الريب في أنه ما زاغ عن الإسلام ولا ألحد بما جاء به وإنما التحق بهم طالباً للنزهة والمتعة لكنه لم يحوز على ثقة الخليفة المأمون[2]، إلّا بعد لعنه ماني ومن دار في فلكه بعد رؤيته صورة ماني فوثق الخليفة بقوله وعفا عنه[3].

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص٤٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد، ج٧، ص ص ٢٣٢-٢٣٣؛ المسعودي، مروج، ج٤، ص٩-١٠.

(٣) الأبشهي، المستطرف في كل فن مستظرف، (بيروت: ١٩٨٢م)، ج١، ص٢١٠.

ومن العلامات الدَّالة على تواصل حركة المعارضة، أذكر لمحة عن الحادثة التي جرت زمن الخليفة المتوكِّل، وملخصها أن شيخاً من سكان الدنيور[1] كان يتشيع ويميل إلى الإمامة، ويتردد عليه فريق من الناس للدَّرس والتحصيل على يديه، يدعى بشر الجعاب فرفع صاحب الخبر أمره ومن معه إلى الخليفة المتوكِّل، وذكر له أنهم يسبون الصحابة ويشتمون السلف، فأمر الخليفة المتوكِّل وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يكتب إلى عامله هناك يطلب منه إرسال بشر الجعاب ومتلقي الدروس منه، وكان العامل هذا صديقاً لبشر يجمعه به حسن المعاشرة، وصفاء الود، وعند تلقي كتاب الخليفة المتضمن استدعاء بشر أشفق عليه، وهاله الخوف من أن يمسه ما لا يرضيه، فاستدعى العامل صديقه بشر وأعلمه بما كتب عنه وموقف الخليفة منه، فلاذ بشر بالصمت قليلاً ثم قال: لدي رأي إن أخذت به نجوت مما أنت خائف علي منه، قال العامل وما هو، أجاب بشر أن في الدنيور[2] شخص يسمى بشر أيضاً وهو خفاف، فإذا استبدلت (الجعاب) بالخفاف عن طريق تزوير حروف اللقبين، بحيث تغدو الجعاب خفافاً، نجوت من المأزق بفضل هذه الحيلة، ولم يتردد العامل في الإقدام على تنفيذ رأيه، لأن بشر الخفاف كان غاية في البلاهة والغفلة، وتنطلي عليه الحيل بمنتهى اليسر، وكان مستغلًّا من قبل الناس، وذلك باستلاف مبالغ من المال منه في موسم الشتاء على أن ترد إليه عند حصول الغلاّت في موسم الصيف، لكنهم لم يكونوا منصفين معه، وكانوا يلجؤون إلى التسويف، والمماطلة في إعادة ما بذمتهم إليه، وكان العمل يتكرر على هذا النمط باستمرار وبدافع امتحانه لإلصاق التهمة به استقدمه صاحب الخبر ليتبيّن حقيقته، فضربوا بينه وبين الموكَّل من قبل الخليفة لمعرفة أمره ستاراً

(١) ابن خلكان، وفيات، جـ١، ص٣٥١.

(٢) الدنيور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص٥٤٥.

بخفيه عن الأنظار، فبدأت الأسئلة تنهال عليه، بخصوص الأصحاب والسّلف، والموكّل يسمع ما يجري خلف ستار وعندما سمع بشر الخفاف المستغفل كلمة السَّلف ظنها سلفاً، وهي جمع سلفة، والفرق هائل بين معنى الكلمتين كما معو معلوم، هبَّ يلعن السلف لاكتوائه بناره التسويف والمماطلة من المتسلفين، ولما ثبت صاحب الخبر بنفسه من لعن بشر السَّلف رفع القضية إلى الخليفة المتوكِّل، لكن الأخير لم يتسرع بل تريث قليلاً، وطالب صاحب الخبر باستئناف مساءلته، فعاد بشر إلى اللعن كما فعل في المرة الأولى، فسأله صاحب الخبر عن سبب شتمه، قال: إن المتسلفين أوغلوا في إيذائي بالمماطلة والامتناع عن إعادة ما استلفوه مني وقصَّ عليه القصة كاملة[1]. فأدرك صاحب الخبر سذاجة بشر وسماجة مبلغه من العلم وعرف أنه لا يفرق بين السُّلَف والسَّلف، فهما سيان لديه، فأيقن صاحب الخبر ببراءة ساحته، مما أسند إليه وأعلم الخليفة بما استقر رأيه عليه، بعد فحص أهلية الرجل التي لم تستوعب الفرق بين النفر من النفير، وعندما وقف الخليفة على براءته من التهمة المنسوبة إليه، تلك التي قامت دعائمها على أسس الاحتيال والتلاعب بالكلمات، وتحريف بالألفاظ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك التحريف والتحوير في سياق سرد الحادثة[2].

وفي عام (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) أيام الخليفة المعتمد ذكر ابن سمعان أنه خرج من منزله قاصداً دار جد أمه، وسمع أن جماعة من بني تميم حامت حولهم شبهة المعارضة للخليفة، فأمر يحيى بن محمد البحراني الزنج بالإحاطة بهم، وقال: من كان من آل المهلب، فليدخل دار إبراهيم بن يحيى، فدخلت جماعة قليلة تلك الدار وأغلقوا الباب دونهم، ثم قيل للزنج اقتلوا من بقي خارجها من المعارضين ولا تبقوا منهم أحداً، ثم

(١) ابن خلكان، وفيات، جـ١، ص٣٥١.

(٢) م.ن، جـ١، ص٣٥١.

خرج إليهم محمد بن عبد الله المعروف بأبي الليث الأصفهاني، ونطق بما يشبه كلمة السِّر المطلوبة في المعسكرات لتمييز المعادي من المناصر، قائلاً (كيلوا)، وهذه الكلمة كانت بمثابة إشارة لمباشرة تنفيذ الأمر عند سماعه. وما إن سمعوا تلك الكلمة حتى أعلموا السيوف في الرقاب، وحلقت على تلك البقعة التي حصلت فيها أشباح الموت التي غمستهم في خضم الدماء التي سالت حماية لأركان حصن الخليفة المنيع من التضعضع والتزحزح[1].

تلك الحادثة كمثيلاتها تزيل أدنى التباس عن قدرة صاحب الخبر على لعب دوره في خدمة الخليفة، وذلك بإيصال الأخبار إليه، لتفادي مخاطر المعارضة لسلطته.

ومن الأنباء التي حفلت بها كتب التاريخ عن أنشطة المعارضة للخلفاء، ما جرى عام (٣١٣هـ/ ٩٢٥م) زمن الخليفة المقتدر، ففي تلك الفترة كان الوزير أبو القاسم الخاقاني يبحث عن رجل من أهل بغداد يدعى الكعكي قيل عنه إنه كان يكاتب القرامطة، ويذهب مذهب الإسماعيلية في القصيدة، ولما تواترت الأخبار المرفوعة إليه عن طريق صاحب الخبر، بعد اتساع دائرة نشاطه المعارض للخلافة، كلّف نازوك بإلقاء القبض عليه، وحين أحس المعارض الكعكي بقرب التفاف الطوق حول جيده تسلّق الجدار وفرّ هارباً، وبعد اقتحام الدار وجد من ينوب عنه، وبصحبته عدد من الرجال يسيرون على منوال رئيسهم القرمطي، فبدأ بعقاب نائب القرمطي وذلك بضربه ثلاثمائة سوط والتشهير به على جمل، ونادى المنادي هذا جزاء المتعلمين المنحرفين عن سواء السبيل وحبس من هم أدنى رتبة منه[2].

ثم ورد عن طريق صاحب الخبر نبأ آخر أفاد أن جماعة معارضة أخرى تجتمع في مسجد براثا، تغالي في شتم الصحابة، فأمر الخليفة بالقبض

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٤٨٦.

(٢) مسكويه، تجارب، ج١، ص ص ١٤٥- ١٤٦.

عليهم، ولما داهم نازوك ومن معه المسجد وجدوا فيه ثلاثين رجلاً، ومع كل واحد خاتم من الطين الأبيض مكتوب عليه أن محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولي الله، وبعد نيل كل منهم ما يستحق من عقوبة، ثم هدم المسجد بناءً على فتوى صدرت من فقهاء ذلك الزمان، تبيح الهدم لكونه يشيع الفرقة بين المسلمين[1].

ومن أخبار صاحب خبر الخليفة على العامّة ما أشار إليها البيهقي في رواية ذكر فيها مسرور الخادم، قال له الخليفة المأمون: إن أصحاب الأخبار قد أكثروا القول في أن شيخاً يأتي خرابات البرامكة فيبكي وينتحب طويلاً ثم ينشد أشعاراً يرثي فيها البرامكة، وعليك أن تذهب مع دينار بن عبد الله للتثبّت من صحة أقوالهم، فانطلق إلى حيث أشار الخليفة المأمون واختفيا وإذا بشيخ قد أقبل معه خادم يحمل كرسيًّا حديديًّا، وبعد وصوله جلس وشرع يفعل ما رفع عنه فقبضا عليه وأحضراه بين يدي الخليفة المأمون، ولما سأله عن سبب البكاء والانتحاب وإنشاد المراثي[2]، أجابه الشيخ أنه يفعل ذلك وفاء للآلاء والنعم التي كان البرامكة يغدقونها عليه فتعجب الخليفة المأمون، من شدة إخلاصه ووفائه لأولياء نعمته، فخلّى سبيله قائلاً: اذهب فأنت طليق لأن الوفاء مبارك وحسن العهد من الإيمان[3].

ومن الأخبار العامّة التي رفعت إلى الخليفة ما ذكرته إحدى الروايات التأريخية أن رجلين تنازعا بباب الجسر في مدينة السلام أحدهما من الوجهاء، والآخر من السوقة فأوغل الوجيه في أذى العامي، فصرخ من حدّة الأذى واعمراه، لقد ذهب العدل منذ ذهبت، فالتقط صاحب الخبر وهو إبراهيم بن السندي خبر التنازع فأوصله إلى الخليفة المأمون، الذي

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم، جـ٦، ص١٩٥.

(٢) المحاسن، جـ١، ص ص ١١٦- ١١٨.

(٣) سبط قنيتو الأربلي، خلاصة، ص ص ١٥٠-١٥٤.

استدعى العامِّي واستفسر عن سبب النزاع، وحين فرغ من الاستماع إلى شهادته أحضر خصمه الوجيه واستنطقه على نمط ما فعل مع الأول، فأجابه الوجيه بأنه كان مارًّا بباب الجسر، وإذا بالعامِّي أخذ بزمام فرسه وطالبه بما ادعاه حقًّا له، ولم يكتف بهذا القدر بل تمادى في سوء المعاملة، فوجّه الخليفة السؤال إلى العامي عمّا إذا كان ما أدلى به الوجيه صحيحاً، لكن العامي طعن في أقواله ووصفها بالكذب والباطل، لكن الوجيه انبرى يقول: إن بوسعه إحضار عدد من الشهود الذين رأوا بأم أعينهم وسمعوا ملء أسماعهم سبب الشجار، وبعد التحقق من أسباب الحادثة ونتائجها توصل إلى المناخ التوافقي وحسم النزاع بينهما على أساس تحييد إفرازاتها ثم تقييد هداها بالانقضاض الذي تمخَّض عنه القرار باعتبار الخليفة يمثّل أعلى رمز بيده صنع القرار(١).

وذكر ابن حمدون النديم قال: «كان له أصحاب أخبار يرفعون إليه كل ما يجري في الأسواق، فرفع إليه بعض أصحاب الأخبار أن إسكافيًّا قال لقطان: وقد طالبه بدين كان له عليه وكان يماطله: ما بقي للمسلمين من ينظر في أحوالهم». فقد أخبر صاحب الخبر الخليفة المعتضد الذي أمر بإحضار الإسكافي وأن ينتصف له من خصمه(٢).

ومن العجب العجاب أن أصحاب الأخبار لم يفوتوا أمراً مهما كان تافه الشأن إلّا أولوه بالغ رعايتهم كي لا يتعرضوا للتأنيب أو التقريع من قبل الخلفاء يوماً من الأيام، ومن ذلك ما روته إحدى الروايات التي جاء فيها أن الخليفة الرشيد حبس يحيى بن خالد مع ولده الفضل، وضيق الخناق على الوالد والولد بحجب الناس عنهما وحجبهما عن الناس، وذات يوم لاحظ الخبر الموكَّل بهما استغراقهما في ضحك مفرط، فأنهى الموكَّل

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص٤٣.

(٢) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٤٢- ١٤٣.

خبرهما إلى الخليفة الرشيد، الذي بعث مسرور الخادم للوقوف على حقيقة أمرهما، وقال لهما ما سبب تماديكما في هذا الضحك، الذي لا ينسجم مع غضب الخليفة الرشيد عليكما وإني أخشى عليكما مغبة إفراحكما فيه من غير سبب مبرر لكنهما فسرا له السبب بقولهما: إنهما غلبت عليهما إلى طعام السكباج لكن لم يكن لديهما ما يلبي رغبتهما وبعد جهد جهيد توفرت لهما اللوازم المطلوبة لإعداد ذلك الطعام، ولما نضج الطبخ همَّ الفضل بإنزال القدر غير أنه لم يكن من نصيبهما لسقوط القدر وتبدد الطعام وهذا السبب هو الذي أثار الضحك لعلمهما بالحرمان منه بعدما كانا يشتهيانه[1] أشد الاشتهاء، وبعد أن وقف الخليفة الرشيد على المبرر بكى ثم أوصى مسرور الخادم بتزويدهما بمائدة يومية لائقة بهما.

تلك الحادثة تحمل المتتبِّع على أن أصحاب الأخبار كانوا يحيطون بكل صغيرة وكبيرة ثم يعلمون الخليفة بها من جهة وتبرهن على الرَّصانة والرَّزانة التي يتَّسم بها الخليفة بعيداً عن السذاجة والسماجة التي لا تليق بأصحاب الهمم العالية[2].

ومن الحوادث المتصلة بيحيى ونجله (الفضل) ما رواه ابن المعتز ذاكراً أن الخليفة الرشيد وجّه مسرور الكبير إلى السجن لمعرفة ما هما عليه من حال، ولما وصل وجد الفضل ساجداً فهتف به إلّا أنه لم يجب ودنا منه ورآه يغط في نوم عميق وواصل شأنه إلى الخليفة الرشيد الذي استفسر عن حالهما، كيف وجدت الفضل قال: كان في ثوب نمل، مع أن الموسم كان شتاء والبرد قد بلغ غايته في الشدة؛ فقال الخليفة خذ هذا الدّواج فألق به عليه دون إيقاظه، ففعل ما أمر به، ولما انبلج فجر صباح اليوم التالي زارهما سعيد

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق، عبد الستار أحمد فرج (القاهرة: ١٩٥٦م) ص١٢٩.

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ص ١٩٧-١٩٨.

ابن وهب الشاعر الذي كان تناله نعمهما، وينهل منهما ما يشاء، ومن باب الإخلاص لهما ومشاطرتهما محنتهما، بادرهما بالسؤال عن الدِّواج بقوله كنت عندكما بالأمس ولم ألحظه عندكما، فأخبره بالأمر متفائلاً بأن يكون ذلك علامة دالة على حسن رضا الخليفة عنهما[١].

ولما كان الجود من الموجود همَّ الفضل بمنح سعيد ذلك الدواج إقراراً منه بالرضا عن جميل موقفه المتمثل في زيارتهما المتكررة غير أنه أبى لعدم حاجته إليه من جهة وخشيته من عدم موافقة السَّجان على إخراجه، وعندما بلغ الأخذ والرد منتهاه استقرّ الرأي على مفاتحة السَّجان بالأمر، فكان ردّه عدم الممانعة على أن يكتب بالخبر إلى مسرور الخادم الذي أنهى الخبر بدوره إلى الخليفة الرشيد، الذي أطرق مليًّا برهة ثم قال: ما وهبته ذلك الدواج يهديه إلى من شاء وهذا اعتراض صريح من الخليفة على ما أراد به الفضل[٢].

يستخلص مما سلف أن صاحب الخبر لم يدع شيئاً ولم يغفل عن أمر أينما حدث وأيًّا كان سبب حدوثه إلّا عجَّل بالكتابة عنه إلى الخليفة.

---

(١) ابن المعتز، طبقات، ص ص ٢٥٦-٢٥٨.

(٢) م.ن، ص ص ٢٥٦-٢٥٨.

# الفصل الرابع

## العيون والتّجسس

أولاً : تعريف العيون والتّجسس

أ - تعريف العيون

ب - تعريف التّجسس

1- التّجسس لغة

2- مفهوم التّجسس

ثانياً : أ - العيون والتّجسس على العامة

ب - العيون والتّجسس على رجالات الدولة ومنتسبيها

جـ - العيون والتّجسس على مناوئ الدولة

ثالثاً : وسائل أخرى لنقل الأخبار

أ - المراصد والمسالح

ب - التّنكر وأساليب أخرى

# الفصل الرابع

# العيون والتَّجسس

## أولاً: العيون والتَّجسس

### أ- تعريف العيون:

العيون عناصر قتالية فعالة وهي وإن لم تباشر القتال الفعلي، فهي تقاتل العدو داخل صفوفه من خلال كشف نواياه وخططه. ويتوقف على المعلومات التي تقدمها العيون عند وضع الخطط الحربية.

فالعيون عناصر عسكرية تؤدي خدمات لا غنى للقيادة عنها[1]. وبالنظر لأهمية العيون وخطورة واجباتهم لذلك وضعوا شروطاً ومواصفات لمن توكل إليه هذه المهمة وهي:

١- أن يكونوا أوثق الجند نصيحة وأكثرهم صدقاً[2]، لأن المتهم لا ينفع بخبره وإن كان صادقاً.

٢- أن يكون كتوماً للسرّ حافظاً له فيتجنب كل فلتة قد يفلت بها لسانه فينكشف ما يحاول أن يضمره أو يخفيه من سرّ[3].

---

(١) خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص١٣٧.

(٢) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عوني، (القاهرة: ١٩٦٤م) ص٢٤.

(٣) م.ن، ص٢٢.

٣- أن تكون له خبرة وإلمام بجميع مناطق البلاد التي يتوجه إليها، وأن يكون عارفاً بلغة أهلها، كي لا يفطن له العدو وينكشف أمره(١).

٤- أن يكون صبوراً على العقوبة والتعذيب إذا ظفر العدو به حتى لا يخبر بأحوال قواته وتنكشف نواحي الضعف فيها(٢).

**ب- تعريف التَّجسس:**

**١- التَّجسس لغة:**

التَّجسس لغة من الجسّ وهو اللمس باليد(٣). وجس الشيء بيده يجسه جسًّا: جسّه بيده ليتعرفه(٤). وجس الشخص بعينه: أحدق النظر إليه ليستبينه ويتبيّنه(٥) ومنه جاء جس الخبر والتَّجسس الذي هو التفتيش عن بواطن الأمور(٦).

وجس الخبر وتجسسه: بحث عنه وفحص(٧) أو البحث عمّا يكتب

---

(١) خالد جاسم، تنظيمات الجيش، ص١٣٧.

(٢) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، ص٢٤. خالد جاسم، تنظيمات الجيش، ص١٣٧.

(٣) الخليل أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق، محمد المخزومي، إبراهيم السامرائي، (بغداد: ١٩٨٦م)، جـ٦، ص٥؛ الفيروز آبادي، القاموس المحبط، (بيروت: د.ت)، جـ٢، ص٢١١.

(٤) الرازي، مختار الصحاح، ص١٠٤؛ ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص٣٣٦؛ سعيد الجزائري، ملف الثمانينات عن حرب المخابرات، (دمشق: ١٩٨٨م)، ص ص ٩-١٠.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص٣٣٦؛ سعد إبراهيم الأعظمي، جرائم التجسس في التشريع العراقي، (الموصل: ١٩٨١م)، ص١١.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص٣٣٧؛ الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، (بيروت: د.ت)، جـ٤، ص١١٩.

(٧) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، (القاهرة: ١٩٥٣م) ص٦٠؛ الفراهيدي، كتاب العين، جـ٦، ص٥؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، جـ٢، ص٢١١.

عنك[١]. والتَّجسس بالجيم، والتَّحسس بالحاء معناهما واحد، وأن كلًّا منها يعني البحث عن الأخبار وتفحصها بصورة خفية، ومعرفة الأمور والبحث عنها وطلبها، فالتَّجسس بالجيم هو أن تفحص عنها بخبرك والتحسس بالحاء أن تتسمع الأخبار بنفسك[٢].

والجاسوس: هو صاحب السِّر كالناموس، غير أن الأول أكثر ما يقال لصاحب سر الشَّر بخلاف الثاني، إذ أنه يطلق على صاحب سر الخير[٣].

والجاسوس: هو العين التي تتجسس الأخبار ثم يأتي بها، وذلك لأن عمله بعينه أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، فكأن جميع جسده صار عيناً[٤]، لذلك فإن كلمتي الجاسوس والعين متلازمتان، ولا يمكن التمييز بينهما، لأن كلمة الجاسوس تستعمل للدِّلالة على العين الذي يرسل إلى صفوف العدو يتجسس الأخبار[٥].

## ٢- مفهوم التَّجسس:

يقترن مفهوم التَّجسس في أذهان الناس بأفعال الإفشاء والتبليغ والذي يعد ماسًّا بالكرامة، فالجاسوس في نظرهم هو من يتبع عيوب الآخرين ليطَّلع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: د.ت)، جـ٦، ص ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص٣٣٧؛ الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، جـ٤، ص١١٩؛ الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، (بيروت: د.ت)، جـ٣، ص٥٦٨؛ السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، (د.م: ١٩٧٨م)، جـ٣، ص٤٣.

(٣) الفيروزآبادي، قاموس المحيط، جـ٢، ص٢١١؛ الزبيدي، تاج، جـ٤، ص١١٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، جـ٧، ص٣٣٧.

(٥) أحمد شنتناوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جاسوس، مج ١٠، ص٤٠١.

على أسرارهم[١]، أو البحث عن العورات[٢]، وذلك لما جاء من ذكر التَّجسس في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وبما أننا لا نقصد في تناولنا لهذا الموضوع، ذكر التَّجسس بهذا الشكل الذي يؤدي إلى الوقوف على عورات الناس كأفراد، لأن ذلك نهى عنه الإسلام، ولا يدخل ضمن نطاق بحثنا، لأن مفهوم التَّجسس تتبع أخبار المناهضين والأعداء بأية وسيلة كانت، منها استخدام الجواسيس وهذا جائز شرعاً[٤]، بل واجب على الحكام الاهتمام به لمعرفة أخبار العدو حين يلزم الأمر[٥].

وبذلك يكون التَّجسس نوعاً من أنواع العمل الاستخباري هدفه البحث والحصول على المعلومات المتعلقة بشخص أو جماعة ما ونقلها بطرق سرِّية خاصة من مكانها إلى مكان آخر[٦] إلى حيث مقر الدولة الإسلامية لتلافي الأخطار التي قد تقع بها.

وعرَّف پير هونيي التَّجسس بأنه «الفعل الذي يحصل عليه الشخص أو

---

(١) طنطاوي الجوهري، الجوهر في تفسير القرآن الكريم، (مصر: ١٣٥٠هـ)، ج١١، ص١٤٢. محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، (بيروت: ١٩٧٠م)، ج٧، ص١٢٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٣٣٧. الزبيدي، تاج، ج٤، ص١١٩.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) العسقلاني، الفتح الباري، (القاهرة: ١٣٠٠هـ)، ج٦، ص٣٩.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، (بغداد: ١٩٨٦م)، ص٧٢؛ ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق، محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، (القاهرة: ١٩٧٠م)، ص١٣٥.

(٦) الهيثم الأيوبي، الموسوعة العسكرية، (بيروت: ١٩٧٧م)، ج١، ص٢٥.

يحاول أن يحصل عليه بطريقة ما من معلومات سرِّية، فيسلمها لدولة أخرى»[١].

## ثانياً:

### أ- العيون والتَّجسس على العامَّة:

وقد شملت العيون الاهتمام بشؤون عامَّة الناس ومراقبتهم ونشر العيون بين ظهرانيهم لجمع الأخبار عنهم، لأن عامَّة الناس تشتمل على شرائح واسعة لها شؤونها وشجونها الخاصة بها، ولا بد للخليفة من الإلمام بها، ليفكر فيما عساه فاعلاً في مقبل من الوقت، حين تدق ساعة العمل بمضمون ما تنامى لديه من ذلك الرصيد، ما روي عن الخليفة الرشيد وما حصل مع الطبيب (جبرائيل بن بختشيوع)[٢] الذي يروي محتواه، انه كان يدخل على الخليفة يوميًّا وقت الغداة، لمعرفة ما كان منه في سابق ليلته مع جواريه وما عمل في مجلسه وساعات جلوسه، وبعد استيفاء كفايته من الاستماع إلى المعلومات من الخليفة الرشيد، كان ينتقل إلى دور مسمع للخليفة استجابة لسؤاله عن أخبار وأحوال الرعية العامَّة، فيبدأ جبرائيل بسرد ما يحمله من الأخبار في جعبته للخليفة[٣] وبعد الاستماع كان يفرز بعضها عن بعض ويهمل ما لا ضرر من ورائها، وأما ما يستشف فيه شبح الضرر فيتخذ بشأنه الحيطة والحذر وذلك عام (١٩٣هـ/ ٨٠٨م)[٤].

---

(١) Pierre Hugeney: Droit Penal étude procédure pénal militaires, Paris, 1940, p.760.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، (القاهرة: ١٨٨٢م) جا، ص١٢٥.
رمزية الأطرقجي، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، (بغداد: ١٩٨٢م)، ص١٠١.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٢٩.

وفي سياق الحديث عن أخبار العامَّة، تذكر رواية تأريخية مفادها، رفع إلى الخليفة الرشيد خبر عن رجل من بقايا الأمويين في دمشق معروف بكثرة المال، وعظمة الجاه وكرم الضيافة وإجزال العطاء فعظم أمره على الخليفة الرشيد، وأرسل منارة في طلبه والمجيء به من دمشق إلى مركز الخلافة. وبعد إظهار السمع والطاعة نفذ ما أنيط به، وحين اقترب من مشارف الكوفة، تلقى خبرهما الجواسيس المنتشرون هنا وهناك[1] وأسرعوا إلى الخليفة الرشيد وأخبروه بعودة منارة ومعه الرجل الأموي الذي لم يلهج لسانه إلّا بقراءة القرآن الكريم والإكثار من التسبيحات، وما هو إلّا وقت حتى وقف بين يدي الخليفة، ولما أمعن النظر في حاله، وأمعن في قراءة ملامحه قال: ما هذا إلّا رجل محسود على النعمة، ومكذوب عليه، ثم أسف على إزعاجه وترويع أهله، وأمر منارة بإعادته إلى المكان الذي جاء فيه منه، ففعل ما أمر به الخليفة الرشيد[2].

تواصلت عمليات بث العيون والأرصاد في صفوف عامَّة الناس، ففي زمن الخليفة المأمون، خيمت على الناس الفتن ودب سعار الاضطراب في كل مكان، لا سيما بعد قتل الخليفة الأمين، وما كان من علي بن موسى بن جعفر بن محمد الرضا، إلّا أن حمل إلى الخليفة ما استطاع إليه سبيلاً من الأخبار ليكون على علم بها، ويرجح بعض المؤرخين سبب الفتنة كان بسبب قيام (الفضل بن سهل) بتستره على المعلومات وحجبها عن الخليفة عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م)[3].

---

(١) الحموي، ثمرات الأوراق، صححه وعلّق عليه، محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: ١٩٧١م)، ص ص ٤٥٤-٤٥٧.

(٢) الهرثمي، تاريخ سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عوني (القاهرة: ١٩٦٤م) ص٣٤؛ خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي (بغداد: ١٩٨٤م)، ص١٣٩. نه به ز مجيد أمين، الاستخبارات في عهد صلاح الدين، رسالة دكتوراه، (جامعة صلاح الدين: ١٩٩٧م) ص٢١٧.

(٣) مسكويه، تجارب، جـ٦، ص٤٤١. ابن العبري، تاريخ مختصر، ص١٣٨.

وفي نفس الفترة كان الخليفة المأمون يستعين بمحمد بن الخليل الذي كان يتردد عليه كثيراً، لأنه كان يستطرف به ويأنس بحديثه، وغالباً ما كان يسأله بقوله ما تقول العامَّة، وعمَّاذا يتحدث الناس فيخبره بكل ما سمعه من قبل مقدمه[١].

إن قائمة التَّجسس طويلة وروافدها المتعددة تصبّ في مصبٍّ واحد، بالرغم من اختلاف منابعها ومصادرها، ألا وهو الأخبار والأسرار للاستفادة منها، حينما تحين ساحة جني الثمار، ومن هذه الأغراض التَّجسس على العامَّة، رواية تأريخية مجملها متجسد في أن أحمد بن طولون بنى جامعاً كبيراً من الكنز الذي عثر عليه، ولدى اكتمال البناء أقدم على ما يثير بعض الغرابة في النفوس إذ أمر جواسيسه بجمع المعلومات عن ردود أفعال الناس وأقوالهم في بناء الجامع، فأنبأه الجواسيس بجميع الآراء التي كانت تطرح أثناء التجمع في ذلك الجامع، منها برأيهم صغر المنبر، وعدم وجود السَّارية والميضاءة، وكلما تلقى رأياً من آراء الناس عن طريق جواسيسه أسرع إلى تنفيذه بتأسيس مبرره على الدعائم المنطقية التي يستعصي على الناس الخوض في دحض حججه المستندة إليها[٢].

ومن أمثلة التَّجسس على العامَّة، رواية فحواها، أن المعزّ لدين الله بث في الأرض جواسيسه عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) ثم استغفل الناس لحملهم على الاعتقاد بأنه الخليفة المهدي الذي يملك الدنيا، وبنى استغفاله على الاحتجاب عن الأنظار ردحاً، ثم فاجأ الناس بالظهور ليحقق الفكرة التي أشاعها فيهم، وقد بلغ بالناس رسوخ الاعتقاد بكونه المهدي أنهم إذا رأوا طائراً، خرّوا له سجداً لظنهم في أن روح المعز فيه، وقد خلق هذا الفعل جوًّا

---

(١) ابن طيفور، تاريخ، ص١٣١.

(٢) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق، صلاح الدين المنجد، (بيروت: د.ت)، جـ١، ص٢٥٨.

نفسيًّا مشحوناً بالإجلال للمعز مؤسسين سلوكهم على الارهاصات التي تستمد قوتها من الجواسيس الذين كانوا يوفون المعز بما يقوله ويفعله الناس أولاً بأول(١).

وفي مجال اعتماد الخلفاء على العيون للتزود بأخبار عن عامَّة الناس، ما جرى في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) إذ دخل المعز إلى القاهرة، واحتجب عن الناس في القصر يتلذذ بالنعم الوفيرة، ويستمع بلالاء الغزيرة ملتهماً ما لذ وطاب من أجود أنواع الطعام، وفوق ذلك طلاء الوجه بالدهان، طمعاً في زيادة الرونق والبهاء، وبينما هو على تلك الحالة من الترفُّه والترفيه، أطلق عيونه في أرجاء القاهرة، للإنصات على ما يتداوله العامَّة من الأقوال عنه، والعودة بما نقلت به الكنانة من معلومات ثم إفراغها بين يديه ليتصرف وفق ما تمليه عليه(٢).

وفي سياق إيراد أخبار التَّجسس على العامَّة، لا بأس من ذكر ما ذهب إليه أحد المؤرخين بصدد الكلام على الحاكم بأمر الله، إذ قال ما مجمله إن الحاكم بأمر الله، كان كثير الانتقال من حال إلى حال، ويمل النسج على نسق واحد على أي منوال، من ذلك أنه اقتدى بأثار آبائه التي ألفاها مثل ارتداء الثياب الفاخرة، وركوب السُّروج ثم العدول عن ذلك إلى النقيض، وكان قد نشر الجواسيس من كلا الجنسين في طول البلاد وعرضها، وكانت الأخبار تنهال عليه انهيالاً، بحيث لم يكن يخفى عليه رجل ولا امرأة من حواشيه ورعيته وذلك عام (٤١١هـ/ ١٠٢٠م)(٣).

إن آفاق بث العيون التي توسعت أرجاءها وترامت أطرافها، لم تستثن ظاهرة أو ناحية من نواحي الحياة المتشعبة إلّا وقد أحاطت بها، واكتنفت

---

(١) ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان، ص١٩٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٦٧.

(٣) الحنبلي، شذرات، مج ٢، جـ٣، ص١٩٤.

جوانبها لتستقصي عنها الأخبار والمعلومات من ذلك حقل الإداريين والشعراء والأتقياء الذين لم ينجوا هم كذلك من الانحسار ضمن دائرة رصد الأخبار، ففي زمن الخليفة الرشيد كان الفضل بن يحيى ضليعاً في الأدب متضلعاً في العلم والفقه متفنناً في تربية الأولاد، ولرسوخ قدميه في حقل التأديب والتربية، كلفه الخليفة بتولي أمر نجله الأمين[1]، وتعهد عودة النضر بسقي الأدب والعلم والخلق وحسن التربية، ومع تأكده من بالغ عناية المؤدِّب بالمتأدَّب تلبية لطلب ووفاء بالأمانة، فإنه وضع عليه العيون ليكون على بيِّنة مما يلقى على ولده، ومن يسامره من بني هاشم من أهل الأدب وغيرهم من ذوي الخبرة في هذا الحقل، كي يجنب ابنه ضلال المؤثرات التي قد تنسحب آثارها عليه يوم يستقيم عوده وتصلب شكيمته لأن العود غير المستقيم يأبى ظلّه الاستقامة أيضاً[2].

ومن الفعاليات التي ظهرت فيها بصمات العيون بجلاء ما أورده، يزيد ابن مزيد من حوار ما جرى بينه وبين الخليفة الرشيد، حول أبيات من الشعر بلغت مسمعه وأثارت حفيظته، إذ لما مثل بين يدي الخليفة الرشيد سأله عن قائل هذان البيتين[3]:

**ومَن يفتقرْ منّا يعشْ بحسامه ومَن يفتقرْ من سائلِ الناس يسأل**
**وإنْ يَك جد القوم فهر بن مالك فجدِّي لجيم قرم بكر بن وائل**

وحين فرغ من إنشادهما أقسم يزيد بمن أكرمه وأشرفه بالخلافة، على أنه يجهل قائلهما، فردَّ عليه لا والذي أكرمني وشرفني بالخلافة «إنك لتعرف

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ١٧٦- ١٧٧.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦؛ ابن الاعثم الكوفي، فتوح، مج ٨، ص ص ٢٧٠- ٢٧١.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٩، ص ص ٣٨- ٣٩.

قائلهما: ثم عاتبه قائلاً: أتظن يا يزيد إذا أوطأتك بساطي وشرفتك بصنيعتي أني أحتملك على هذا؟ أو تظن أني لا أراعي أمورك وأتقصاها وتحسب أنه يخفى علي شيء منها؟ والله إن عيوني لعليك في خلوتك ومشاهدك»[1] ثم وصف الشاعر بكونه جلفاً من أجلاف ربيعة وخارج على سلامة الطور والبشر بإلحاقه قريشاً بربيعة، وألح على إحضاره، وبعد انصراف يزيد عن مقام الخليفة أخذ يبحث عن قائل البيتين، إلى أن وجد شفاء غليله في رجل يسمى بكر بن النطاح، أحد أصحابه فدعاه وأنذره بما يختزن في صدر الخليفة الرشيد من سخط عليه، وأمره بعدم الظهور ما دام الخليفة حيًّا، وأسقط اسمه في الديوان، والتزم الشاعر بما أملى عليه صديقه إلى أن توفي الخليفة الرشيد، وعندما ذاع نعي الخليفة في الآفاق مزق الشاعر حجب الاختفاء وخرج من مخبئه[2].

وفي عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) أشارت المصادر إلى وجود الجواسيس على الفقهاء وأهل الدِّين، إذ يذكر أن إبراهيم بن المهدي ظفر بسهل سلامة الأنصاري، فحبسه وبالغ في معاقبته، ويعود سبب حبسه إلى قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الفضيلة بين أهالي مدينة السلام، فالتف حوله جمع غفير من المسلمين[3]، وكان من بين الملتفين عدد من العيون المكلفة بمراقبته ونقل الأحاديث والأحداث التي تجري في مجالسه إلى مقام الخليفة، وحينما حان وقت الحساب أوقعته العيون في الفخ وأسلمته إلى إسحاق بن الهادي الذي استجوبه عما كان يثير به الناس فلم يظفر منه بشيء، وقال إنما كانت دعوة عباسية لأنها مبنية على الكتاب والسُّنة، وأردف قائلاً: إنه ما زال على دعوته ويدعو إليها، حتى هذه الساعة، ولم

---

(١) م.ن، مج ١٩، ص ص ٣٨-٣٩.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٩، ص ص ٣٨-٣٩.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٥٦٢-٥٦٣؛ مسكويه، تجارب، جـ٦، ص٤٤٠.

يقبل إسحاق منه ذلك وطلب منه أن يخرج إلى الناس، ويقول لهم إنما كان يدعو إليه باطلاً، فخرج ولم يصف دعوته بما طلب منه، فضرب على وجهه وأرسل إلى المدائن للمثول بين يدي إبراهيم بن المهدي لمعاقبته[١].

## ب- العيون والتَّجسس على رجالات الدولة ومنتسبيها:

لقد توغلت آثار الجاسوسية في النفوس توغلاً يثير العجب، ومن ذلك لجوء الوالد إلى الاستعانة بالجواسيس لمعرفة نوايا ولده وكذلك اعتماد الولد الدَّس على والده لتحقيق أغراضه.

ففي عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) خرج الخليفة المهدي إلى بعض المنازل مع أهله وبنيه، وكان قد عزم على استخلاف ابنه عبد الله، إلّا أنه أهمله وتركه، وحين أحس ابنه بذلك، غالت مراجل الحقد في نفسه، فكلَّف بعض الجواري، المتمكنات بدسّ السمّ في طعامه وقطع لهن عهداً على بذل أموالاً طائلة لهن، إن نجحنا في المهمة، وتمكنت إحداهن من إمرار الخطة عليه، وذلك بسمِّه الذي سرى في أحشائه ومات بسببه[٢].

وفي عام (١٩٤هـ/ ٨٠٩م)، اختار الفضل بن سهل قوماً لمهمة بناءً على زيادة الثقة بهم، ودسِّهم بين الموالين للخليفة الأمين، ولما همّ الخليفة بخلع أخيه المأمون، وبعث الخليفة الأمين الفضل بن الربيع إلى أحد هؤلاء الرجال، ليشاوره في الأمر، لكن الرجل عظم عليه أمر نقض العهد للخليفة المأمون، واستعظم شأنه واستقبح كل غدر أو مبرر لهذا الفعل غير المستساغ بالقياس إليه[٣].

لقد أخذ الخليفة المتوكِّل البيعة لأولاده عام (٢٣٥هـ/ ٨٤٩م) وقدم المعتز على المنتصر الذي كان أسن من أخيه المعتز، فدسَّ على والده من

---

(١) مسكويه، تجارب، جـ٦، ص٤٤٠؛ ابن الأثير الكامل، جـ٥، ص١٩١.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٢٠٦؛ الجهشياري، الوزراء، ص١٠٧.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٨٥؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص١٤١.

قتله غيلة لمجرد تقديم أخيه عليه في أخذ البيعة. وحين همَّ المدسوس بقتله ثارت ثائرة الوزير، وانطلاقاً من الإخلاص له رمى بنفسه عليه، لكن ذلك الفعل لم ينقذ الخليفة بل طواهما القتل معاً، فدفنا في قبر واحد استناداً إلى الروايات التأريخية[١].

ومن الجلي أن بث العيون بين الصفوف كان يأتي بثمار حلو مذاقها، وبنتائج محمودة محببة، لذلك استنجد بالعيون كل فريق لمعرفة الفريق المرتاب في نواياه، كوضح الخليفة العيون على العسكر والقادة على القاعدة، وما شاكل ذلك، ففي سنة (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)[٢]، أخذ الخليفة العباسي المعتضد[٣] بالبحث عن وصيف الخادم لمعاقبته على سوء تصرف منه، ثم رحل صوب المصيصة[٤] لنفس الغرض، وبينما هو يحث الخطى نحو هدفه، وإذا بالعيون أخبرته بتوجه وصيف الخادم نحو عين زربة[٥]، فسأل أهل الخبرة عن أقصر السبل المؤدية إلى هناك، وبعد حين قبض عليه، وسلم إلى مؤنس الخادم وهو يومئذٍ صاحب الشرطة، وهكذا لعبت العيون دورها في القبض على المناهض للخليفة وتسليمه إلى العدالة لنيل استحقاقه من الجزاء[٦].

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٧٥ وما بعدها؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج١، ص٢٢٨.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٤٤٢-٤٤٣. المسعودي، مروج، ج٣، ص٤٠٩.

(٣) المعتضد بالله، هو أبو العباس أحمد بن الأمير الناصر لدين الله، أبي أحمد، طلحة بن جعفر المتوكِّل على الله، بويع للخلافة سنة (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، انظر: ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٤٠.

(٤) المصيصة: وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم. انظر: ياقوت، البلدان، ج٥، ص١٤٥.

(٥) عين زربة: وهو بلد بالثغر من نواحي المصيصة. انظر: ياقوت، البلدان، ج٤، ص١٧٧.

(٦) الطبري، تاريخ، ج١٠، ص٧٩.

لقد اعتمد الخلفاء العباسيون على وسائل متعددة لحماية الخلافة من المخاطر، ومن تلك الوسائل بث الموالين لهم في صفوف المرتاب فيهم، للوقوف على ميولهم وآرائهم والمذاهب التي يذهبون إليها، فقد لجؤوا في كثير من الأحيان إلى دس من يأتمر بأوامرهم من الأنصار بين الذين يشك في ولائهم، كما جرى لأبي سلمة الخلال أول وزير استوزره العباسيون، ولم يطل به المكوث في وزارته حتى دفع الخليفة أبا مسلم الخراساني إلى قتله متوهماً من أنه ميال إلى آل علي[1]. إذ دسه في مجلسه يترقب أفعاله ويلتقط أقواله إلى أن حانت ساعة التنفيذ، فقتل برغم كونه فاضلاً لدى الخليفة السَّفاح لحسن معاشرته وطيب مسامرته[2].

وفي عام (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) قدم أبو جعفر المنصور على أبي مسلم الخراساني وسايره عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ بمعية سليمان بن كثير الذي قال له، يا هذا إننا نرجو إتمام أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون، وظن (الأعرج) في أنه مندس من قبل أبي مسلم الخراساني، وخاف منه وأمسك عن القول[3].

ومن الأمثلة على استثمار العسكريين للعيون ضد مثيلهم ما حدث عام (١٦١هـ/ ٧٧٧م)[4] ففيه غزا الصائفة (ثمامة بن الوليد) فنزله دابق[5]، وعندما تناهت الأخبار إلى عسكر الروم ثارت ثائرتهم وحملت العيون

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص ص ٤٥٠-٤٥١؛ ابن كثير، البداية، جـ١٠، ص٥٦.
(٢) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة، جـ٢، ص١٢٥؛ الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٤٥٠.
(٣) ابن قتيبة، الإمامة، جـ٢، ص١٢٥؛ الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٤٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص٣٣٦.
(٤) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٤٤٣؛ المسعودي، مروج، جـ٣، ص٤٠٩.
(٥) دابق: قرية قرب حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، انظر: ياقوت معجم البلدان، جـ٢، ص ص ٤١٦.

أخبار تحركات العسكر الرومي نحو المسلمين بيد أن ثمامة لم يحفل بما سمع وركن إلى الاغترار، واستغل الروم تلك الفرصة، فهاجموا المسلمين وأصابوا منهم عدداً غير يسير[1]، والنتيجة الملفتة للنظر، هي أن (ثمامة بن الوليد) لم ينتفع بنشاطات العيون ولم يحسن توظيف المعلومات التي كانت تأتيه من قبل هؤلاء، وترتب على ذلك بليغ الضرر الذي نجم عن مداهمة الخطر، ولم يكن القائد مستعدًّا للمنازلة والمطاولة بسبب إهماله دور العيون[2].

لقد ذهب عدد غير يسير من الخلفاء والوزراء ضحية الدَّس والاندساس، ففي عام (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) قتل الخليفة المأمون الوزير الفضل بن سهل المعروف بذي الرئاستين، ويروي ابن الأحدل، أنه حين أغمض الحنف ناظريه بفعل عملية الدَّس[3]، وجد في تركته ما يرتقي إلى مستوى التنبؤ على غرار الّذين اشتهروا بصدق بعض تنبؤاتهم مثل نوسترادموس، ومن على شاكلته، إذ قال في تنبئه أنه سيموت بين الماء والنار بعد بلوغه الثامنة والأربعين وحين دخل عمره المرحلة التي حددها دسَّ عليه خال الخليفة المأمون «جماعة فقتله في الحمام»[4] ومما هو معلوم أن النار والماء كلاهما من لوازم الحمام وقتله فيه يحقق تنبؤه بلا غموض.

ومن أبجديات المنطق التي تقوم عليها سلامة النتائج أن الجيش هو السُّور المنيع للدولة والسِّياج الشائك الذي يدمي أعين الأعداء، وهو العمود الذي ترتكز عليه حماية الدولة قديماً وحديثاً. ومن هذا المنطلق مد الخلفاء

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٣٦؛ البيهقي، المحاسن، جـ١، ص ص ٢٣١-٢٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٦٠.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٥٦٤-٥٦٥.

(٤) الحنبلي، شذرات، مج ١، جـ٢، ص٤.

هيمنتهم على الجيش، في معسكراته وخارجها أثناء السِّلم والحرب عن طريق الجواسيس بين صفوفه لمعرفة خباياه. وإن كان للعدو لتشتيت أهدافه[١].

وقد ذكر أن الخليفة الأمين أرسل عدداً من القواد لمحاربة طاهر بن الحسين عام (١٩٦هـ/ ٨١١م)، وكان أحد القواد في خانقين حينئذٍ وهو عبد الله بن قحطبة، ودسَّ الخليفة الأمين عدداً من الجواسيس في معسكر طاهر مهمتهم إطلاق الأراجيف والإشاعات لتثبيط عزائم جنوده، ومن تلك الإشاعات، أن الخليفة قد أغدق العطايا على جنوده وأكثر لهم الأرزاق وشملهم الهبات السخيَّة، فأثرت تلك الإشاعات على معنويات جيش طاهر ابن الحسين[٢].

وفي عام (٢٢٢هـ/ ٨٣٧م) أقبلت الخرمية[٣] في ثلاثة كراديس[٤] على سور خندق الأفشين وهم يطلقون صراخهم العالي إلى عنان السماء لإرعاب

---

(١) أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول، ص١٨٩.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٤١٨- ٤٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٣٢٤ وما بعدها.

(٣) الخرمية: وخرم، لفظ أعجمي يقال لهم الخرمدينية. وهم يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللَّذات ونكاح المحارم وفعل ما يتلذذون به، مشابهين المانوية في أمرهم. انظر: الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٣٨؛ السمعاني، الأنساب، جـ٥، ص٩٦؛ ابن الجوزي، تلبيس إبليس، (بغداد: ١٩٨٣م)، ص١٠٥؛ الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق، عبد المنعم عامر، (القاهرة: ١٩٦٢م)، ص ص ٣٩١-٣٩٢؛ عبد القاهر البغدادي، الفَرق بين الفِرَق، (بيروت: ١٩٧٧م)، ص ص ٢٥١-٢٥٢.

(٤) نعمان ثابت، الجندية، ص ص ٢٢٩- ٢٣١.

Reuben Levy, The Social Structure of Islam Cambridge: 1965), p.434.

موفق سالم نوري، العلاقات العباسية البيزنطية، ١٣٢-٢٤٧هـ/ ٧٥٠-٨٦١م، (بغداد: ١٩٩٠م)، ص٩٣.

جيشه، لكن الأفشين منع جنده من النطق ولو بكلمة واحدة، وظلّوا لائذين بالصمت بضع ليال، والخرمية على ظهور الجياد يركضون بها محدثين الصخب والجلبة والضوضاء، بقصد إثارة كل من خلف السور، لكنهم لم يظفروا بما أرادوا، وفي تلك الأثناء هيأ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والمشاة. وكمن لهم في الأودية التي تعتبر أمنع المكامن الموفية بغرض التَّصدي للخصم، فضلاً عن بث العيون هنا وهناك، بغية اصطياد الأنباء والانتفاع بها قبل التقاء الجمعين، وقد جاءت النتيجة ملبية للأهداف التي رسمت من أجلها الخطة، وذهب الصُّراخ والضجيج كالهباء المنبث في الهواء[1].

ومن الواضح أن التَّجسس كان خلال العصر العباسي ظاهرة ماثلة للعيان يستعين بها البعض على البعض الآخر، من ذلك ما أداه الجواسيس تجاه الأفشين قائد الخليفة المعتصم، ففي عام (٢٢٢هـ/ ٨٣٦م) كتب ذلك القائد إلى ملوك أرمينية وبطارقتها يخبرهم بأن بابك الخرمي قد لاذ بالفرار وهو في طريقه صوب أرمينية، وطلب من كلٍّ منهم حماية المناطق الخاضعة لنفوذه، وأن يجعل إلقاء القبض عليه، نصب عينيه وبعد فترة حمل الجواسيس إلى الأفشين خبر اختفائه في وادي كثير الزرع والماء، يتعذر اجتيازه لمنعته وكثرة الأشجار ذات الأغصان الملتفة والمتشابكة ووفرة المياه المتدفقة التي تخلق حاجزاً طبيعيًّا يصعب على الخيل اختراقها[2].

وقد أكد الأفشين على عدم قتل الجواسيس الذين كانوا يقعون في الأسر أثناء خوض غمار المعركة مع بابك الخرمي، وكان يحاول استمالتهم عن طريق إغداق الأموال عليهم، بعد السؤال عن المقادير التي كانوا يستلمونها منه، وعند الحصول على الإجابات كان يغريهم ببذل ما

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٣٦. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٤٥. مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٨٣.

يفوق القدر الممنوح لهم من قبل بابك الخرمي[(١)] ويقول للجاسوس: «كن جاسوساً لنا»[(٢)].

ومن الأدلة الأخرى على استفحال ظاهرة التَّجسس في المعسكرات، ما يروى عن أن رافع بن هرثمة أنه توجه إلى جرجان[(٣)] لإزاحة محمد بن زيد عنها عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) وعند إحساسه بالخطر الدَّاهم تزحزح محمد بن زيد عنها[(٤)] واتجه نحو استرباذ[(٥)] فتابعه رافع إلى هناك وعندما أدرك أن الخطر قادم غادرها باتجاه سارية، وهكذا كان نصيب محمد بن زيد الحل والارتحال متنقلاً من مدينة إلى أخرى، وحظ رافع متمثلاً في تعقّبه عسى أن ينال الصيد الثمين، وعندما استقر به المسير في (شالوس)[(٦)]، انقطعت أخباره، فأرسل رافع جاسوساً يستطلع له خبره، ثم غادر محمد بن زيد نحو الديلم، ولما وطأت قدماه تلك الأرض، جد رافع في طلبه وضيق عليه الخناق بقصد الظفر به والانتقام منه، وحين توفي الخليفة الموفق عام (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) عاد إلى الري[(٧)] وأقام بها، بعد أن نجا من الموت[(٨)].

---

(١) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، مج ٣، ص٣٤٨-٣٤٩. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١٣.

(٣) جرجان، مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، انظر: ياقوت، معجم البلدان جـ٢، ص١٤٩.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١٣. مسكويه، تجارب، جـ٦، ص٤٧٤.

(٥) استرباد، بلدة كبيرة مشهورة وهي من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان، انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ص ١٧٤-١٧٥.

(٦) شالوس، مدينة بجبال طبرستان وهي أحد ثغورهم، بينها وبين الري ثمانية فراسخ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص٣١١.

(٧) الري، مدينة مشهورة بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، انظر: ياقوت، البلدان جـ٣، ص١١٦.

(٨) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١٣. ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص٦٥. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٥٨-٢٦٠.

ومن السِّهام التي ما تزال موجودة في الكنانة الخاصة بالتَّجسس سهم تمثل في عملية تجسُّسِيَّة ارتكزت إلى الكذب، فأودت برأس من الرؤوس التي طالما بحثت عن سبيل للنجاة من الهلاك، وملخص قصة هذه العملية نشير إليه اقتباساً من رواية تأريخية عام (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م) موجزها أن ياقوت الحاجب[١] عجز عن مجابهة أبي عبد الله البريدي[٢]، ولما أدرك أصحابه مبلغ ضعفه أخذوا يلتحقون بعسكره طائفة بعد أخرى، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن بقي عدد ضئيل لا يزيد عن ثمانمائة رجل[٣]، وعندها ألقى الخليفة الراضي القبض على ابن ياقوت وسجن فترة ثم أطلقه للِّحاق بأبيه، وعند التقائه بوالده أشار عليه بالعودة إلى مدينة السلام، فإن فعل ذلك فلسوف يظفر ببغيته هناك. لكنه أبى فاغتاظ الولد من والده، والتحق بخصمه البريدي، الذي أكرمه وضمن حمايته، ثم خاف البريدي من انقلاب أنصار ياقوت الملتحقين به يوماً فوجَّه إليه كتاباً جاء فيه، إن الخليفة الراضي يأمره بعدم تركه يقيم حيث هو، بل عليه اختيار أمرين لا ثالث لهما، أولهما الاستسلام للخليفة، وثانيهما الرضى بتولية بعض الأعمال في بلاد الجبل محذراً إياه من رفضه لأمره[٤].

ولما تأكد ياقوت مما وطن البريدي العزم عليه، وتسيير العساكر نحوه أرسل جاسوساً لاصطياد الأخبار، غير أن البريدي ظفر به قبل تحقيق مرامه وأغراه بمقادير من المال، على أن يتجسس لصالحه ضد ياقوت، وقد فعل ذلك، وأوقع ياقوت في حيلة دبرها البريدي تمثلت في مخادعته، وذلك

---

(١) ياقوت كان حاجباً أيام الخليفة المقتدر بالله سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م- ٣١٩هـ/ ٩٣١م). انظر: ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ص ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠.

(٢) أبو عبد الله بن البريدي كان عاملاً على واسط أيام الخليفة المتقي (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م - ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) ثم استوزره. انظر: ابن العمراني، المصدر السابق، ص١٦٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

بإيهامه أن عسكر البريدي في مكرم[1]، ولم يكف الأمر كذلك، ولما ورد ياقوت ومن معه من الجند لم يجد مما قيل له وبعد وقوعه في الشرك بفترة قصيرة داهمه البريدي وقبض عليه، ولما تثبتوا من هويته قطعوا رأسه[2].

### جـ- العيون والتَّجسس على مناوئي الدولة:

لم يعجز الخلفاء من رمي شباكهم ونشرها بقصد مراقبة المعارضين لسلطتهم، فقد دسُّوا العيون في أرجاء شتى من المناطق الخاضعة للخلافة، وأخذوا عن طريقهم يتابعون مناهضيهم عن كثب، ففي عهد الخليفة أبي العباس السَّفاح، ازداد الوجل والخوف من نشاطات الأخوين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، إذ كان محمد نشيطاً في بث الدعوة لنفسه في الحجاز والعراق والأحواز ومناطق أخرى[3]، لكن هذه الدعوة لم تحظ بالتستر الكافي نظراً لكثرة العيون المنبثة هنا وهناك، وكانت على درجة عالية من التيقظ والتأهب للطوارئ، فإذا حصل ما يستوجب التحرك كانوا يسارعون إلى إعلام الخليفة به على الفور[4].

وفي زمن الخليفة السَّفاح حاول أبو سلمة الخلال[5] عقد الأمر لعبد الله بن الحسن، ممثل العلويين لاتِّصافه بمزايا تجعله متقدماً على غيره كغزارة علمه، وروعة بيانه، وتمكنه من فن الخطابة الملهبة للعواطف

---

(١) مكرم، لم أعثر له على ترجمته في المصادر.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٦، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٢٤٥؛ ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق، مصطفى جواد (بغداد: ١٩٣٢م) جـ١، ص٩٩. ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص١٨٧.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٦٢٣؛ ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص٣٣٤.

(٥) أبو سلمة الخلال هو (حفص بن سليمان) مولى السبيع يقال له وزير آل محمد. انظر: الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٤٤٨.

والمشاعر، فاستجاب لدعوة أبي سلمة دون الالتفات إلى تحذيرات جعفر بن محمد الذي أعلمه أن أهل خراسان ليسوا من أنصاره. كما أن أبا سلمة مخدوع ومقتول لا محالة قبل عقد الأمر له[١]، وقد وقعت بعض الكتب الموجهة إلى عبد الله بن الحسن من قبل أنصاره تعلن له الإسناد والمؤازرة بيد المنصور عن طريق جواسيسه، فاتخذها عليه، وأسرع إلى إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن[٢].

لقد اعتنى العباسيون بالجاسوسية لأغراضهم الخاصة حتى كادت تمتزج بالأمزجة وتتأصل في الأفئدة، وصار كل فريق ينشر الجواسيس ضد الفريق الآخر للوقوف على أخباره وأسراره، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إلى أبعد مدى تظهر صورته في قيام الخلفاء أنفسهم بالتَّجسس على أصحاب المناصب الرفيعة[٣].

وقد نهج الخليفة المنصور حين تسلم مقاليد الخلافة، نهج سلفه في استثمار جهود العيون المبذولة لرصد الناشطين ضد العباسيين[٤] إذ ملأ الجزيرة بالعيون والأرصاد، وبذل لهم الأموال بسخاء، وكان هؤلاء يتلقون التعليمات الدقيقة من الخليفة المنصور تخط لهم منهج العمل بشكل مستمر[٥].

هذا وقد حج الخليفة المنصور بالناس عام (١٤٤هـ/ ٧٦١م)، وعندما تبين من أن ولدي عبد الله بن الحسن وهما معارضان لسلطته، لم يكونا بين الحجاج، اغتم غمًّا شديداً لعدم الظفر ببغيته، لكنه لم يتوسد ذراع الهموم،

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة، جـ١، ص١٤٥؛ ابن خلكان، وفيات، جـ١، ص٣٣٢.

(٢) المسعودي، مروج، جـ٣، ص ص ٣٢٦-٣٢٧؛ التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق، عبد الرزاق محي الدين، (بغداد: ١٩٥٤م)، جـ١، ص١٢٨.

(٣) للمزيد من التفاصيل يراجع: الحموي، ثمرات، ص ص ٤٥٧-٤٥٩.

(٤) مؤلف مجهول، العيون، جـ٣، ص٢٣٤؛ الحموي، تجريد، ق٢، ص٢٢٢٨.

(٥) الذهبي، العبر، جـ١، ص١٩٦؛ الحنبلي، شذرات، مجـ١، جـ١، ص٢١٣.

بل شحذ سيف الهمم، وذلك بوضع العيون عليهما، وإلقاء القبض على والدهما وإيداعه في السجن الذي بقي فيه إلى أن طوى المنون صفحات عمره[1]، واستمر محمد يستقطب الناس حوله فبايعه عدد كبير من الناس، وحين دانت له بعض الأمصار استعمل عليها عمالاً من قبله مثل مكة المكرمة واليمن[2].

ومما يدل على دور التَّجسس في القضاء على إخماد الفتن والاضطرابات والثورات، ما حدث أيام الخليفة المنصور عام (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، بخصوص إخماد ثورة الأخوين محمد في الحجاز وإبراهيم في البصرة، وبرغم تفاوت أقوال المؤرخين في قدرة الخليفة على إخماد الثورتين بهذه السرعة، فإن الفضل في ذلك يعود إلى الجواسيس الذين استطاعوا إخبار الخليفة المنصور، بما كان عليه الحال في الحجاز من حيث قلة الذخائر والمؤن التي تديم ماكنة الثورة من جهة، وعدم إلمامهم بفنون الحرب والقتال، بخلاف ما يمتاز به العباسيون ولا سيما الخليفة المنصور في العراق[3]، وهناك رأي آخر يتمثل في أن أحد الأخوين لم يلتزم بالموعد المحدد للثورة، مما تمخض عنه افتضاح السِّر، واستعداد الخليفة للتصدي لها، وجاءت النتيجة حاسمة لصالح الخليفة[4].

أما الخليفة المهدي فلم ينفصم عن السلسلة التي تتابعت في وضع الأرصاد والعيون على المناهضين، بل بقي حلقة محكمة فيها، وسار ينسج على نفس المنوال الذي نسج عليه أسلافه، وإثباتاً لهذا الرأي نورد ما رواه علي بن جعفر الأحمر عن أبيه الذي كان يجتمع مع جمع من الزيدية مثل

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ص ٥٢٧-٥٢٨؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص١٨٧.

(٢) الذهبي، العبر، ج١، ص١٩٦؛ الحنبلي، شذرات، مج ١، ج١، ص٢١٣.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٦٤٦ وما بعدها؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، (بيروت: ١٩٦٥م)، ص٣٤١.

(٤) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٦٤٨؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، ص٣٤١.

عيسى بن زيد والحسن وعلي ابنا صالح بن حي وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق وخباب بن قسطاس، في إحدى الدور بالكوفة، وبلغ الخليفة المهدي وذلك عن طريق عيونه، فكتب إلى عامله هناك، يأمره بوضع العيون عليهم حتى إذا حان حين الاجتماع وحضر المشاركون فيه، كبسهم بغتة وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وذات ليلة انتظم العقد مرة أخرى، وبينما هم كذلك باغتتهم العيون، غير أنهم لاذوا بالفرار ما خلا أبا علي بن جعفر لكونه قد بلغ من الكبر عتيًّا، فأُرسل إلى الخليفة، وحين مثوله بين يديه انهال عليه بالشتم والطعن الجارح، ووجَّه له من الكلام أعنفه، ثم قال: كيف تجتمع مع أناس من الزيدية وتحثهم على الخروج علي وتدعو الناس إلى المعارضة، ولكن الشيخ لم يكترث بالموقف، بل أبدى امتعاضه على أسلوب المواجهة، وبعد مداولة المسألة أدخله السجن، ولم يخرجه إلّا بعد وفاة عيسى بن زيد بن علي المعارض(١).

ونشر الخليفة الرشيد الجواسيس لرصد تحركات العلويين كيحيى بن عبد الله سنة (١٧٦هـ/ ٧٩٢م)، فهرب الأخير بسبب انكشاف نواياه المعارضة للعباسيين وكان يعمل لصالح العلويين، وتمكَّن الخليفة من خلال جواسيسه وبمعاونة رجالات أمنه الآخرين من اعتقاله(٢).

وأما ما يتصل بالخليفة الرشيد على صعيد وضع العيون على المعارضة، فإنه ما حاد عن منهج سالفيه بل حداه نفس المنهج إلى ما انتهجه من سبقوه. فقد أخذ أحمد بن يحيى بن زيد العلوي وحبسه عام (١٨٨هـ/ ٨٠٣م)، إلى أن الهرب أنجده، فتوجه شطر البصرة، وبدأ من هناك بمكاتبة الشيعة يدعوهم إلى مناصرته ضد الخلافة العباسية، فثقل

---

(١) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ١٣٦، ١٥٨، ١٥٩؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص١٤٩.

ذلك على الخليفة الرشيد الذي بادر إلى إذكاء العيون عساه يظفر به يوماً، وعزز أنشطتهم بمبالغ كبيرة من الأموال لدعم أهدافه[١].

عندما استقر زمام الخلافة بين يدي الخليفة الأمين، وجّه عدداً من قواد بغداد إلى الياسرية والكوثرية، وزودهم بما يكفيهم من المؤن، وفرَّق الجواسيس بين صفوف جيش طاهر بن الحسين، ودسَّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع[٢] والترغيب. فشغبوا على طاهر بالصخب والضجيج وقرع الطبول، فانبعثت الأصوات العالية مرعدة محدثة الجلبة والضوضاء، وحين رأى طاهر بن الحسين ما رأى، نظم جيشه على شكل كراديس وقال لهم: لا يغرنكم ما ترون من كثرة العدد، فالنصر مع الصدق والثبات، والفتح مع الصبر، وحثهم على الاستمساك برباطة الجأش، وتلى عليهم قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

وكان الخليفة المأمون قبل أن يتوجه نحو مدينة السلام، قادماً من خراسان قد بث جواسيسه الثقات لاستطلاع أحوال الناس فيها، ومواقفهم من الأحداث العنيفة التي شهدتها خلال الصراع بين الأخوين، وما إن دخل المدينة، حتى بدأ في البحث عن إبراهيم بن المهدي الذي كان قد أعلن عن نفسه خليفة فيها لفترة من الزمن[٤]. غير أن جواسيس ورجالات الخليفة المأمون الثقات كانوا له بالمرصاد، فضلاً عن تخصيصه الأموال والجوائز السّخية التي رصدها الخليفة، وقد أتت أُكلها بالقبض عليه، وهو متزيٍّ بزيِّ امرأة تصحبه امرأتان عند رأس الجسر في بغداد[٥].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣؛ الأصفهاني، مقاتل، ص٥٠٥. عبد الكريم الأشتر، دعبل بن علي، ص ص ٦٨-٦٩.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٤٤٢؛ المسعودي، مروج، ج٣، ص٤٨٨.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٤٤٢.

(٤) المسعودي، مروج، ج٤، ص ص ٣٤-٣٥.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ١٥٨-١٥٩؛ التَّنوخي، الفرج، ج٣، ص ص ٣٣٤- =

وألحّ الخليفة المأمون على بعض إخوته الذين أرادوا حمله على الاقتناع بميل عبد الله بن طاهر إلى العلويين عام (٢١١هـ/ ٨٢٦م)، فدسَّ الخليفة رجلاً يتجسس عليه، وقال له: سر إلى مصر في زي النُّسّاك وادعوا جماعة من كبارها إلى القاسم بن هارون بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه ومبلغه في العلم، ثم اذهب إلى بطانة عبد الله بن طاهر، والبحث عن مكنونات أسراره ونواياه الدفينة بحثاً شافياً، وائتني بما تسمع منه، ففعل ذلك ولم يحصل على شيء يدل على سوء نيته[١].

وقد استمر دعم العيون والتَّجسس لما له من أهمية كبيرة، ففي عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) هلَّ هلال دعوة جديدة في مدينة السلام في سماء الخاصة والعامَّة لرجل يدعى محمد بن عبد الله القائم، وهو من أهل بيت رسول الله ﷺ، وكان محور دعوته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة أعداء المسلمين، وتجديد ما عفا من رسوم الدين فسعى الخاص والعام في مدينة السلام مبايعته رجلاً بعد رجل، فمن كان منهم يذهب مذهب السُّنة[٢]، قيل له إنه علوي، وبذلك توسعت دائرة مبايعته التي تعاضد عليها الفريقان، ثم تعاظم أمره حتى تجاوز نطاق المشافهة إلى تحرير الرسائل المتضمنة جوهر الدعوة، فوقعت نسخة منها بيد الوزير أبي الفضل الذي ذكّى العيون بدوره على الدعاة ورئيسهم فضلاً عمَّن ترق له قلوبهم أو تميل إليه نفوسهم، غير أنه لم يصب إلّا الوفاض الخالية[٣]، فطلب الإنجاد من خليفته أبي العلاء صاعد بن ثابت لمؤازرته على الجد في طلبهم، لكنهما عجزا عن الوقوف بوجه الرياح التي هبّت بعد مفارقتها

---

= ٣٣٦؛ المقدسي، البدء والتاريخ، باعتناء كلمان هوار، (بغداد: د.ت)، ص١١١؛ رمزية الأطرقجي، الحياة، ص٥٩.

(١) الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٦١٥؛ مسكويه، تجارب، جـ٦، ص ص ٤٦١-٤٦٢.

(٢) مسكويه، تجارب، جـ٢، ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) م.ن، جـ٢، ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

السكون، وذلك بانتظام مجموعات واسعة من مختلف الفئات في سلك الدعوة، كالدَّيلم والأتراك ومنهم سبكتيكين العجمي أحد أكابر القادة المعروف بالشجاعة والجود والمروءة، وكان مطاعاً من جنوده نازلاً عند الأتراك منزلة من لا يخاف في الرضاء والسخاء[١].

## ثالثاً: وسائل أخرى لنقل الأخبار:

### أ- المراصد والمسالح:

ومن السُّبل الأخرى التي سلكها الخلفاء للحصول على الأخبار (المسالح[٢] والمراصد) والمثال الناطق بصحة الاستعانة بهذه الوسيلة، نقتبسه من عهد الخليفة الأمين، إذ أسقط أخوه المأمون، اسمه من الطرد وقطع البريد عام (١٨٣هـ/ ٨٠٨م)، ولدى علم الخليفة الأمين بإجراءات أخيه، أرسل إليه ثلة من أصحابه بغية تقديم ابنه موسى عليه في العهد، وعندما بلغ المأمون ذلك استشار الوجهاء من ذوي البصيرة والرأي، فقالوا له إنما بيعتنا لك أن لا تخرج من خراسان، وبعد ذلك أرسل أحد قادة جيشه وهو طاهر الحسين إلى الري، فانضم إليه عدداً من القواد مع جنودهم بعد وصوله إلى هناك وحين كثر الجمع بتضاعف عدد المنضمين إليه من القادة والجنود، وضع المسالح والمراصد عند النقاط الحساسة ذات التحكم بمفترقات الطرق بحثاً عن الأخبار الصاعدة والهابطة من وإلى الخليفة الأمين[٣].

---

(١) م.ن، ج٢، ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) المسلحة، مسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم وينفضون الطريق ويتجسَّسون خبر العدو ويعملون لهم عملهم لئلا يهجم عليهم ولا يدعون أحداً من العدو يدخل بلاد المسلمين وإن جاء جيش أنذروا المسلمين. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٢٨.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٨، ص ص ٣٧٤-٣٧٦؛ ابن خلدون، تاريخ، مج ٣، ص٢٣٢. بسام العسلي، فن الحرب، ج١، ص٣١٠؛ نهاد عباس شهاب، تدابير الأمن العسكري =

ونتيجة لاشتداد الصِّراع الناشب بين الأخوين عام (١٩٤هـ/ ٨٠٩م) لجأ كل منهما إلى تعزيز ثغور وحدود مناطق نفوذه بوسائل عديدة، منها المسالح والمراصد على أن يتولى تسيير شؤونها الحراس الموثوق بولائهم ووفائهم(١)، ولم يكن بمقدور أحد اجتياز السبل، دون أن يتعرض للتفتيش، وقد تصاعدت عمليات التفتيش والبحث عن الأخبار بحيث لم تستشفِ حتى البضائع والسِّلع التجارية ناهيك عن الكتب المختلفة الصادرة من الخليفة والواردة عليه(٢).

ومما لا ينبغي الاستغناء عن ذكره، هو أن بابك الخرمي كان من المتمردين على سلطة الخلافة زمن الخليفة المعتصم، وجرت بينهما اشتباكات أسفرت عن قتل عدد من أفراد جيش الطرفين، وفي عام (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) تفاقم دور بابك الخرمي، إذ صارت الغلبة لجيشه في بعض المناطق، فأطلق يد التخريب، تنال من الحصون المقامة، وعندما أفضت تلك الأخبار إلى المعتصم، وجَّه قائده أبا سعيد بن يوسف إلى أردبيل(٣)، وأمره بإعادة بناء الحصون المخربة على أن يضع المسالح والمراصد، بين زنجان(٤) وأردبيل لإحكام الهيمنة وتمتين أركان الاستحواذ بلا منازع، فبدأت هذه المسالح والمراصد تؤدي دورها المنشود

---

= في صدر الإسلام، (بغداد: ١٩٨٩م) ص٤٠.

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٣٧٩؛ مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٣٧٩. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ص ١٤٣-١٤٤؛ عطا سلمان جاسم، الاستنفار للجهاد والاستجابة له في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه (بغداد: ١٩٩٠م) ص١٩٧.

(٣) أردبيل: وهي مدينة كبيرة، بينها وبين تبريز سبعة أيام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٤٤-١٤٥.

(٤) زنجان: بلد كبير مشهور في نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها وهي قريبة من بحر قزوين. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٥٢.

على أكمل وجه، الأمر الذي حقق الغاية المطلوبة المتجسمة في نيل رضى الخليفة عن الكيفية التي كانت تدار بها شؤون تلك المناطق[1].

### ب- التنكُّر وأساليب أخرى:

ومن أساليب استقصاء الأخبار أسلوب التنكُّر، وهو الأسلوب الأول والعام الذي لولاه لفشل التَّجسس ويذكر أن عقبة بن مسلم، استدعي من قبل الخليفة المنصور وسأل عن اسمه وبعدما تبين هويته كلفه بما رآه أمراً هامًّا يعنيه، يتلخص في التنكر والتخفي، ثم الذهاب إلى أولئك الذين يكيدون للدولة، وكان في خراسان بعض المناصرين من المعارضة يكاتبونهم، وتجري المراسلات بينهم لتخطيط ما يرونه ضروريًّا لإنجاح مشاريعهم، وكلفه تحرير كتاب بخط يديه يداعب مضمونه ميولهم، للوقوف على آرائهم فإن كانت معارضة للخليفة لزم الحذر منها، وإن كانت موالية له اطمأن إليها[2]، كما أمره بلقاء عبد الله بن الحسن واستدراجه بقصد معرفة نواياه، وتمّ ذلك فعلاً وبعد استئناس عبد الله، بعقبة بن مسلم المتنكر الذي طلب تحرير كتاب إلى مناصريه، أبى ذلك، وقال له: أنت كتابي إليهم فسر نحوهم، وإذا وصلت فاقرأهم السلام، وقل لهم: إن ابني (محمد وإبراهيم) خارجان في وقت كذا وكذا، ولما حظي المتنكر بالسِّر المكنون عاد به إلى الخليفة المنصور[3].

كذلك فقد كان الخليفة المهدي العباسي يتنكر ويصطحب معه بعض حراسه وثقاته لمعرفة بعض الأمور، فقد روى الحسن بن الفضل بن الربيع، أن المهدي خرج علينا متنكراً، ومعه الربيع الوزير والمسيب بن زهير صاحب

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٩، ص ص ١١-١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ص ٤٧٧-٤٧٨.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٢٣٤.

الشرطة، طائفاً بالأسواق ويستفسر عن أحوال الناس بدون إثارة الارتياب حول شخصيته[١]. إن اصطحاب الخليفة لوزيره وصاحب شرطته[٢]، وعدد من رجالات أمنه، يدل على الأهمية القصوى التي كان يوليها الخليفة لأجل سيادة الأمن والنظام في مدينة بغداد، وإلى مساءلة المعنيين، إذا وجد منهم تقصيراً قد تكون نتائجه الإخلال بالأمن العام[٣].

كما كان الخليفة الرشيد يطوف في الأسواق ليلاً، وهو متخفٍ ويصطحب معه بعض ثقاته، ويتسائل عن أخبار العامَّة لضبط الحالة الأمنية[٤].

وفي نص آخر يورده ابن قتيبة مشيراً إلى أن الخليفة الرشيد ضاقت نفسه في إحدى الليالي، فاصطحب معه جعفر البرمكي ومسرور السَّياف، وعدداً من حراسه بعد أن تزيوا جميعاً بملابس التجار[٥] والأطباء[٦]، وقاموا بجولات عديدة في أنحاء مدينة بغداد، وركب هؤلاء زورقاً طاف بهم في النهر، ثم عاد الخليفة وصحبه وهم أكثر معرفة بأخبار الرعية وأمنها[٧].

وفي مضمار التنكر نورد نموذجاً آخر يتمثل في أن الخليفة الرشيد

---

(١) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٧٥؛ البيهقي، المحاسن، ص٤١٠.

(٢) أحمد محمد الشَّحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، (بغداد: ١٩٧٧م)، ص ص ٧٧، ٨٢.

(٣) الجاحظ، التاج في أخبار الملوك، (القاهرة: ١٩١٤م)، ص١٧٠؛ ابن طيفور تاريخ، ص١٩.

(٤) ألف ليلة وليلة، (بغداد: ١٩٧٩م)، مج ١، ص ص ٨١-٨٢، مج ٢، ص٢٨٤؛ أحمد محمد الشَّحاذ، ملامح، ص ص ٧٧، ٨٢.

(٥) الجاحظ، المحاسن والأضداد (بيروت: ١٩٦٠م)، ص١٧٣؛ الإمامة والسياسة ج٢، ص١٩٢.

(٦) طلال عامر المختار، التاريخ العسكري من ٤٧٠- ١٩٤٥م، ص١٤٢.

(٧) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص١٧٣؛ ألف ليلة وليلة، مج١، ص ص ٨١-٨٢.

استدعى رجلاً يدعى يحيى بن خالد يلقب ابن الكردية، وولّاه الضياع بالكوفة وأمره بتوزيع الأموال على الشيعة هناك لتمحيص آرائهم، وفحص مواقفهم من أحمد بن عيسى بن زيد وموافاة الخليفة الرشيد بها[١]، وفعل ذلك، وعند انعقاد المجالس كان الحديث يدور حول رجل آخر هو أبو غسان الخزاعي، وكانت الأوصاف والسجايا الحميدة تطلق عليه بسخاء، فقال المتنكر ابن الكردية إني لمشتاق إليه، وتحدوني الرغبة الشديدة إلى ملاقاته فقيل إنه في البصرة. فكتب إلى الخليفة بذلك، وكلف بالذهاب إليه على أن يفعل ما فعله في الكوفة، فأخذ ينثر الأموال بلا تكلف وذكر في مجلسه رجل معارض يدعى حاضر فأجزل له العطاء تلو العطاء[٢]، ثم طلب اللقاء بحاضر، لكنه رفض لتأكده من أنه رجل محتال، وبعد إلحاح متواصل أذن لابن الكردية المرسل من قبل الرشيد إلى البصرة بلقائه لكن حاضراً ظلّ مصرًّا على موقفه من نوايا المتنكر، فطلب من أحمد بن عيسى أن يغيّر مكانه والمتنكر لا يعلم ذلك، وقد أرسل إلى أمير البصرة يطلب منه جنداً (المعارض العلوي) والقبض عليه، وقد تم الهجوم المباغت عليه فوقع حاضر بين أيديهم، وأرسل إلى مركز الخلافة غير أنهم لم يظفروا بأحمد بن عيسى بفضل حسن التدبير[٣].

ومع كل ما سلف ذكره من وسائل رصد الأخبار وطرق الحصول عليها، لجأ الخلفاء إلى الاطّلاع على شؤون الرعيَّة عن طريق الاستطلاع للوقوف على ما يتصل بهم من أخبار بتفقد الأحوال ومعرفة المطاليب، كما فعل الخليفة الرشيد مرة، على ما يرويه التأريخ قائلاً: إن الخليفة العباسي والفضل بن الربيع خرجا يوماً متنكرين لمشاهدة الناس والوقوف

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٢٣؛ أحمد بن يحيى بن المرتضى، كتاب طبقات، ص٥٢.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص٤١٠-٤١١.

(٣) المسعودي، مروج، ج٤، ص٢٩. الأصفهاني، مقاتل، ص ص ٤١٠-٤١١.

على أخبارهم[١] ، وبعد التَّجوال قليلاً ساقهما القدر إلى دار كبيرة في دهليزها حِبَابٌ وجِرار لطافٌ وشَغَفَ سمعيهما صوت غناء وشدوٍ شجي يأخذ بشغاف القلوب ويبعث الطرب في النفوس، فدخلا بعد أن صعب عليهما تمالك نفسيهما، وإذا بشاب بيديه ثوب نسائي يقبله ويبكي مر البكاء، ويعيد هذه العملية مراراً وتكراراً، فتحير الخليفة من أمر الشاب مع الثوب، فأكد العزم على معرفة السبب، وبعد الاستفسار منه عن معاناته قال بسر: مات والدي ورفع خبره إلى الفضل بن الربيع لعنه الله، فرفعه إلى الخليفة الرشيد، وكانت لي جارية اسمها عتبة شغفت بها شغفاً شديداً لا مزيد عليه، وقد أخذت مني عنوة إلى دار الخلافة، فاستولى عليها الفضل بالقوة، وعندما علم الخليفة الرشيد بالقصة من مصادرها جعل الأمور في نصابها، وأقام الوزن بالقسط من غير أن يخسر الميزان[٢].

فضلاً عن الروافد التي كانت ترفد الخليفة بذخائر زاخرة من الأخبار، على اختلاف منابعها وتباين أحجامها وأقدارها، لا بأس من توجيه مجرى بعض الروافد الأخرى صوب نفس المصب لنفس الهدف، من دورها الفعّال في تغيير مسارات الأحداث، من هذه الروافد تقارير الوفود الوافدة على الخليفة من مختلف الأمصار والولايات، وهي تتضمن معلومات وأخبار على جانب غير يسير من الأهمية بخصوص العمال والولاة وغيرهم من ذوي الرتب الرفيعة والمناصب الحساسة[٣]، فعلى سبيل المثال كان الخليفة المنصور يلجأ إلى استنطاق الوفود القادمة بعد جلوسه معهم وجهاً لوجه بغية الحصول على معرفة بشأن ما يجري في أرجاء خلافته[٤].

---

(١) الصابي، الهفوات، ص ص ١٧٦-١٧٩. ألف ليلة وليلة، مج ١، ص ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) م.ن، ص ص ١٧٧-١٧٩.

(٣) الأبشهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، ص٩٢.

(٤) الجهشياري، الوزراء، ص١٣٧.

فضلاً عن توظيف الوفود في موكب جمع المعلومات، كان الخلفاء قد وظفوا التجار في نفس السلك، بقصد الاطّلاع على الأخبار[1]، ففي عام ٣٠٢هـ ورد كتاب محمد بن علي الماذرائي إلى السلطان من مصر يقول فيه: إن قتالاً وقع بين أصحاب السلطان، وجماعة من المعارضين في قيروان، وبعدما قتل من قتل وأسر من أسر نتيجة احتدام المعركة بين الطرفين ووصل بعض المعارضين إلى برقة، وأحدثوا فيها ما لم يرض السكان عنه، ووصلت أخبار تلك الأحداث إلى السلطان عن طريق التجار[2].

وقد تفنن الخلفاء في تجنيد عناصر متباينة الأقدار والإمكانات لصالحهم، عن طريق تزويدهم بالأخبار التي تعتبر ذات أهمية بالقياس إلى طول عمر الخليفة أو قصرها من جهة أخرى، وديمومة سلطته أو تقليص فترتها من جهة أخرى، ومن هذه العناصر المسخَّرة لجمع الأخبار الموالي، إذ قام هؤلاء كغيرهم بتلبية رغبات الخلفاء في الإحاطة بكل ما يهمه من الأسرار والأخبار على سبيل المثال، نذكر مولى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أرسله إلى المكان الذي كان يتردد عليه محمد بن عبد الله العلوي، يسمع ما يقوله عند إلقائه الخطب في الناس على المنبر عام (١٤٤هـ/ ٧٦١م)[3] وذات يوم صعد العلوي المنبر وأخذ يحاول إثبات هويته بقوله إنه المهدي، وكان يجهد نفسه وهو يلح على إقناع من حوله بصدق دعوته، فأخبر المولى خليفته بما سمعته أذناه وعند سماع الخليفة المنصور خبره، قال: كذب عدو الله إنه لا يمت بما يزعمه بصلة[4].

---

(١) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول (بغداد: ١٩٤٥م) ص١٣٢.

(٢) القرطبي، صلة تاريخ، مج ١١، ص٤٨. مسكويه، تجارب، جـ١، ص٣٥ هامش رقم ١.

(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، بغداد: ١٩٧٩، ص١٦٢؛ وللمزيد من التفاصيل انظر: الطبري، حوادث سنة ١٤٤هـ، الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٥١٧ وما بعدها.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٧، ص٥٣٤ وما بعدها؛ المسعودي، مروج، جـ٣، ص٣٥٦.

هذا وقد توسعت دائرة العاملين على جمع الأخبار للخليفة بحيث شملت الخدم والجواري أيضاً، لا سيما أنهم يعتبرون من المقربين إليه بحكم أعمالهم، من ذلك ما يروى عن أن اليزيدي كان يتولى تعليم ابني الخليفة الرشيد الأمين والمأمون، وإذا صعب عليهم شيء حاول تيسيره وتبسيطه لتمكينهما منه وحملهما على اكتساب أسرار فصاحة اللُّغة العربية على صعيد الاستيعاب والأداء، ولم يكن يعلم أن الخليفة الرشيد قد وكَّل به خادماً ينقل إليه ما يكون منه مع ولديه، وفي يوم من الأيام تصرَّف ببعض الألفاظ بغية التبسيط، فظن الخادم أنه يعلمهما الزنجية جهلاً منه بما تنطوي عليه أساليب العربية من فنون بديعة ورائعة تتقاصر عن بلوغها اللُّغات الأخرى، فكيف به وهو ينصت إلى المؤدب المعلم يتفنن في تمكين ولدي الرشيد من نطق الألفاظ، ليستجيب هذا النطق لدوافع السليقة والفطرة، وتنتفي عنه مظاهر ظاهرة الاكتساب، فأخبر الخليفة بما توهم فيه، فاستدعى الخليفة الرشيد المؤدِّب، وقال له: ما عهدت إليك تعليم ولدي الزنجية لأننا لسنا بحاجة إليها، فاستغرب المعلم المؤدب من قول الخليفة، ونفى ما نسب إليه جهلاً[١].

ومع إيلاء الخلفاء كامل الرعاية لتلك العناصر التي تم تسخيرها لجمع الأخبار وإيفاء الخليفة بها، فإن هنالك من كان يترصد الخلفاء ويستقصي الأخبار عنهم لتوظيفها ضدهم، من ذلك ما روي عن أن رجلاً يدعى أبا العود كان يحاول تحريض الخليفة الرشيد على البرامكة، وذات ليلة انعقد المجلس وكان أبو العود[٢] بحاثاً عن فرصة تسنح له للإيقاع بهم فوجد صيده الثمين ممثلاً في بيتين من شأنهما إثارة الخليفة الرشيد إذ أنشد يقول عمر بن أبي ربيعة:[٣]

---

(١) ابن سبط الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٠٦.

(٢) المسعودي، مروج، ج٣، ص٤٥١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٧٥.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٩، ص١٢٧؛ مؤلف مجهول، العيون، ج٣، ص٣٠٧.

وعدتُ هندٌ وما كانت تَعِدْ ليتَ هنداً أنجزتنا ما تَعِدْ
واستبدَّتْ مرَّةً واحدةً إنَّما العاجزُ منْ لا يَستبدْ

ففعل إنشادهما ما كان يرجوه المنشد فعله في نفس الخليفة الرشيد، وقال أجل والله إنما العاجز من لا يستبد، وكان يحيى البرمكي قد غرر بخادم من خدم الخليفة الرشيد لصالحه يأتيه بأخبار الخليفة باستمرار، ولما بلغ يحيى البرمكي جاء إلى الخليفة وتظاهر بأنه يمازحه فأنشده البيتين[1]، وفطن الخليفة الرشيد بقوة فطنته لما انطوت عليه إشارته التي كانت أبلغ من عبارة ثم عاد يحيى البرمكي إلى منزله وسأل الخادم عمّن أنشدهما، فقال له المنشد هو أبو العود فاستدعاه واعتذر له عن تأخر الالتفات إليه، وكافأه بمبلغ من المال وبعد فترة وثب عليهم الخليفة الرشيد وعاقبهم في الأموال والأنفس شر عقوبة[2]، لتصرفهم بأموال الخلافة لصالحهم دون إذن منه فضلاً عن التآمر وقتل من لا يرغب بهم من المعارضين.

هذا وقد ورد على لسان بوكلر ما يبرهن على دور التَّجسس على مستويات متباينة، تقوم بها عناصر منتمية إلى أجناس مختلفة، كاليهود الذين تواجدوا في البلاط العباسي إبان حكمي الخليفة هارون الرشيد وشارلمان المتزامنين، وأسهموا في تنشيط المبادلات التجارية بين الطرفين، وبعيداً عن التردد والتخوف من إبداء ما تحقق ثباته، نقول إن اليهود المنخرطين في ممارسة الأنشطة التجارية كانوا يستغلون ترددهم على عاصمة الخلافة العباسية للتَّجسس وينقلون الرصيد المجتمع من

(١) البيهقي، المحاسن، جا، ص٣٧٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، جا، ص١٢١؛ نادية حسني صقر، السلم في العلاقات البيزنطية في العصر العباسي الأول (مكة المكرمة: ١٩٨٥م)، ص٤٧.

(٢) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٧٥.

الأخبار إلى ملوك الغرب، ولربما أدى هذا الأمر إلى لجوء هؤلاء الملوك إلى تشكيل الوفود إلى الخلفاء العباسيين في اللّاحق من الأيام[١].

إضافة إلى ما أسلفنا لا بد من إيراد نموذجاً آخر من السِّعاية، ليكون شاهداً على صحة ما ذهب إليه البحث. فنقول قدم يحيى بن عبد الله على الفضل الذي يصطحبه معه لملاقاة الخليفة الرشيد في مدينة السلام، ولما تحقق الوصول أكرمه إكراماً يفوق ما جال في صدره من تكهنات، أنزله منزلاً يليق به، وبعد أن استطاب به المقام ودان له المرام، بادر الفضل إلى السعاية به عند الخليفة، قائلاً: إنه يجهد نفسه في إفساد الجند أو الدعوة إلى مبايعته، وإن أناساً كثيرين قد أجابوه إلى دعوته[٢]. فاستعظم الخليفة الرشيد ذلك وأمر بحبسه، وبعد مضي وقت غير طويل، استدعاه الخليفة ودفعه إلى المواجهة مع أناس منهم بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، المعروف بعداوته له، وكان يجدُّ في طلب الأخبار الخاصة بهم وإيصالها إلى الخليفة الرشيد، وبعد انتهاء المجابهة الكلامية أمر الخليفة بالتشديد وتضييق الخناق عليه وعلى أتباعه، لمنعهم عن ممارسة أي نشاط معادٍ للخلافة[٣].

إنه لا يعد باعثاً من بواعث إثارة الغرابة، إذ قيل إن النساء قد انخرطن في سلك المراقبة والترصُّد، وجمع الأخبار شأنهم شأن الرجال العاملين في الحقل ذاته. لقد أقدم الخليفة المأمون بتكليف نحو من ألف وسبعمائة امرأة[٤]، كلفهن بالاندساس بين الناس لمعرفة الساخطين على الخليفة

---

(١) Bucker (F.W) M.A: Harun, L. Rashid and Charles the great Massa Chusetts, 1931, p.44.

(٢) الأصفهاني، مقاتل، ص١٦٢.

(٣) الطبري، تاريخ، ج٨، ص٢٤٤؛ الأصفهاني، مقاتل، ص١٦٢.

(٤) ابن دحية الكلبي، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق عباس العزّاوي، بغداد، ١٩٤٦م، ص٤٨؛ أحمد محمد الشّحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، ص٧٥؛ أحمد عبد العزيز محمود، الأمن في بغداد خلال العصر العباسي =

والمخططين لقلب نظام الحكم العباسي والاقتصاص من المؤيدين له، وبالطبع فإن أولئك النسوة كنَّ يقدمن الأخبار من خلال اختلاطهنَّ بالناس[1]، وهو أمر جديد في تاريخ الخلافة العباسية.

وفي عام (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) كان حاكم مصر قد لهج بالركوب في الليل، ويطوف بالأسواق، ورتب في كل درب أصحاب أخبار يطالعونه بما يعرفونه ويسمعونه ويعطيهم العطاء الكثير، ورتب عجائز يدخلن البيوت، لجمع المعلومات ولم يكن يخفى عليه من أسرار الناس شيء[2].

---

= الأول، ص١٨٦.

(١) السكتواري، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، (القاهرة: ١٣٠٠هـ)، ص ص ٨٤-٨٥؛ صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والغلمان (القاهرة: ١٩٥٧م) ص١٣؛ واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي، (بغداد: ١٩٨١م) ص٦٦. رمزية الأطرقجي، الحياة، ص٢٠٧.

(٢) ابن سبط الجوزي، مرآة، ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

# الخاتمة

أثناء استعراضي للمعلومات التي يتحتم عليّ الإلمام بها والاستزادة، توصلت إلى بعض الحقائق منها، أن منصب صاحب الخبر كان من المناصب الهامة والحساسة التي كانت تمثل صمام الأمان لأمن الخليفة والخلافة معاً لكونه محيطاً بحكم وظيفته بكل صغيرة وكبيرة، وقلّما كان يغادر شاردة أو واردة دون إحصاء.

وهذا المنصب لم يكن يجدر به في رأي الخلفاء، إلّا من تميز بالبصيرة الثاقبة والفكر النافذ والعقل النيِّر إضافة إلى الصدق والأمانة والدراية بالمستجدّات، فضلاً عن الخبرة المستقاة من شتّى مناحي الحياة، ولا ننسى أن صاحب الخبر كان على اتصال مباشر بالخليفة.

ومما ينبغي الإشارة إليه هو أن صاحب الخبر كان يتولى تزويد الخليفة بالأخبار المختلفة في حين أن صاحب البريد كان يقتصر دوره على نقل الأخبار الواردة من الأطراف والأمصار الإسلامية إلى الخليفة.

وفضلاً عما سبق فإن لصاحب الخبر مهامّ أخرى ينفرد بها ليس لصاحب البريد دور فيها، منها مراقبة الخاصة والوزراء والشعراء والقضاة والولاة والمعارضة والعامَّة وغيرهم، ورفع الحصيلة المتجمعة من الأخبار عنهم

إلى الخليفة للتَّحوط والحذر والتصرف بشأنها حسب ما تمليه الظروف والضرورات.

ومن المصادر التي كان صاحب الخبر يستقصي منها أخباره لإعلام الخليفة بها النساء والجواري والغلمان والخدم، مضافاً إليها ما يتعلق بالعدوّ على صعيد القضايا العسكرية كالمسالح والمراصد. تلك هي المهام التي كان صاحب الخبر منفرداً بها دون صاحب البريد، وكلاهما ذو شأن لحماية الخلافة والخليفة كلٌّ في دائرة عمله.

# المصادر والمراجع

# المصادر والمراجع

## المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- **الأَبشيهي**: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح (ت: ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م).
- المستطرف في كل فنّ مستظرف، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: ١٩٨٠م)
- **ابن الأثير**: عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)
- الكامل في التاريخ، دار صادر، دار (بيروت: ١٩٦٦م).
- **ابن الإخوة القرشي**: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت؛ ٧٢٩هـ/ ١٣٣٨م)
- معالم القربة في أحكام الحسبة، مطبعة دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.
- **الإربلي**: عبد الرحمن سبط ابن إبراهيم بن قنيتو (ت: ٧٢٩هـ/ ١٣٣٨م).
- خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سير الملوك، تحقيق، مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، (بغداد: ١٩٦٢م).

- **الأزدي**: أبو زكريا بن محمد بن إياس (ت: ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)
- تاريخ الموصل، تحقيق، الدكتور علي حبيبة، دار التحرير (القاهرة: ١٩٦٧م).
- **ابن الأزرق: محمد بن علي بن محمد (ت: ٨٩٦هـ/ ١٤٨٩م)**
- بدائع السلوك في طبائع الملوك، تحقيق، الدكتور سامي النشار، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٧٧م).
- **الأشعري**: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: ٣٢٠هـ/ ٩٤١م)
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق، محمد محيي الدين، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٥٠م).
- **ابن أبي أصبيعة**: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت: ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق، الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٨٨١م).
- **الأصفهاني**: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشيّ الأموي (ت: ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م).
- الأغاني، تحقيق عبد السلام أحمد فرج (بيروت: ١٩٦١م)، وتحقيق، طه حسين وإبراهيم الأبياري، ١٩٥٧م.
- مقاتل الطالبيين، مطبعة الديواني، (بغداد: ١٩٧٩م).
- **الأصفهاني**: حمزة بن الحسن (ت: ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، مكتبة الحياة (بيروت: ١٩٦٦م).
- **الأصفهاني**: عماد الدين محمد بن صفيّ الدين الكاتب (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)
- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق، محمد محمود صبيح، الدار القومية، (القاهرة: ١٩٦٥م).

- **الأنباري**: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ابن الأنباري (ت: ٥٧٧هـ/ ١١٨١م)
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق، الدكتور إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس (بغداد: ١٩٧٠م).
- **الأندلسي**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف (القاهرة: ١٩٨٢م).
- **ابن الأعثم الكوفي**: أبو محمد أحمد بن الأعثم (ت: ٣١٤هـ/ ٩٢٦م)
- كتاب الفتوح، دار الندوة الجديدة، (بيروت: د.ت).
- ألف ليلة وليلة، مؤسسة الزين للطباعة والنشر، طبع الدار العربية (بغداد: ١٩٧٩م)
- **البحتري**: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري (ت: ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)
- ديوان البحتري، تحقيق، حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر (القاهرة: ١٩٦٣م).
- **البغدادي**: أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد (ت: ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م).
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة (بيروت: ١٩٧٧م).
- **البلاذري**، أحمد بن يحيى بن جابر (ت: ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)
- فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه، الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، (القاهرة: ١٩٥٦م).

- **البيهقي**: أبو الفضل محمد بن حسين دبير (ت: ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)
- تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٨٢م)، وطبعة (القاهرة: د.ت).
- **البيهقي**: إبراهيم بن محمد (ت: ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)
- المحاسن والمساوئ، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠م).
- **التَّنوخي**: المحسن بن علي (ت: ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)
- كتاب الفرج بعد الشدة، تحقيق، عبود الشالجي، دار صادر، بيروت: ١٩٧٨م.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق، عبود الشالجي (بيروت: ١٩٧٣م).
- **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة: ١٩٢٩م- ١٩٧٢م).
- **التوحيدي**: أبو حيان علي بن محمد (ت: ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)
- البصائر والذخائر، تحقيق، عبد الرزاق محيي الدين، مطبعة النجاح، (بغداد: ١٩٥٤م).
- **ابن تيمية**: أبو العباس أحمد (ت: ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م)
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق، محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، مكتبة دار الشعب، (القاهرة: ١٩٧٠م).

- **الثعالبي**: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)
- لطائف المعارف، تحقيق، الأبياري، وحسن كامل الصيرفي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (القاهرة: ١٩٦٠م)، وتحقيق، ثروت عكاشة (القاهرة: ١٩٦٠م).
- كتاب خاص الخاص، دار مكتبة الحياة (بيروت: ١٩٦٦م).
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة: ١٩٦٥م).
- **الجاحظ**: عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)
- الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده (القاهرة: ١٩٦٥م).
- التاج في أخبار الملوك، تحقيق، أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩١٤م).
- **ابن الجوزي**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار الوطنية للنشر والتوزيع، (بغداد: ١٩٩٠م).
- تلبيس إبليس، مكتبة الشرق الجديد، (بغداد: ١٩٨٣م).
- **الجهشياري**: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت: ٣٣١هـ/ ٩٤٢م)
- الوزراء والكتاب، بعناية السقا والأنباري وشلبي، (القاهرة: ١٩٣٨م).
- **ابن أبي الحديد**: أبو حامد عز الدين عبد الحميد المدائني (ت: ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)
- شرح نهج البلاغة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (القاهرة: ١٩٦٣م).

- **الحموي**: تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجة (ت: ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م)
- ثمرات الأوراق، صححه وعلّق عليه، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى، (القاهرة: ١٩٧١م).
- **الحموي**: ابن واصل (ت: ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)
- تجريد الأغاني، تحقيق، الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري، ق١، ج٣، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة: ١٩٥٧م)
- **الحميري**: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت: ٧٢٧هـ/ ١٣٤٤م)
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، (بيروت: ١٩٧٥م).
- **ابن حوقل**: أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت: ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م).
- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٩٧٩م).
- **ابن خرداذبة**: أبو القاسم عبد الله بن عبد الله الخراساني (ت: ٢٨٠هـ/ ٨٩٧م)
- المسالك والممالك، طبعة بريل، باعتناء (دي غويه، ١٨٨٩م)، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعها بالأوفسيت.
- **الخطيب البغدادي**: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت: ٤٣٦هـ/ ١٠٧٠م)
- تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، (بيروت: د.ت)، وطبعة (القاهرة: ١٩٣١م).
- **ابن خلدون**: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)
- العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، دار البيان، (بغداد: د.ت).

- **ابن خلكان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر بن خلكان (ت: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، الدكتور إحسان عباس، دار الصادر، (بيروت: ١٩٧٢م و١٩٧٧م).

- **الخوارزمي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت: ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)

- مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، (القاهرة: ١٩٢٣م)

- **ابن الداية**: أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب (ت: ٣٤٠هـ/ ٩٥١م)

- المكافأة، المطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩٤١م).

- **ابن دحية الكلبي**: أبو الخطاب عمر بن أبي علي حسن بن علي البلنسي (ت: ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)

- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق، عباس العزاوي، مطبعة المعارف (بغداد: ١٩٤٦م).

- **الدميري**: كمال الدين محمد بن موسى (ت: ٨٠٨هـ/ ٨٩٥م)

- حياة الحيوان الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت: د.ت)

- **الدينوري**: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)

- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، (القاهرة: ١٩٦٢م).

- **الدينوري**: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ: ٨٨٩م)

- الإمامة والسياسة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (القاهرة: ١٩٦٣م).

- عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامَّة، (القاهرة: ١٩٧٣م).

- **الذهبي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)
- العبر في خبر من غبر، تحقيق، صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر في الكويت والتراث العربي، (الكويت: ١٩٦٠م).
- **الرازي**: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت: ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)
- مختار الصحاح، دار الرسالة (الكويت: ١٩٨٣م).
- **ابن أبي الربيع**: شهاب الدين أحمد بن محمود بن أبي الربيع (ت: ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)
- سلوك الممالك في تدبير الممالك، تحقيق، الدكتور سامي النشار، (بغداد: ١٩٧٧م) وطبعة أخرى تحقيق، ناجي التكريتي، (بيروت: ١٩٧٨م).
- **شيخ الربوة**: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصار الدمشقي (ت: ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، باعتناء، أ.ف. ميهرن، (لايبزك: ١٩٢٣م).
- **ابن رسته**: أبو علي أحمد بن عمر (ت: بعد سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م)
- الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، (بريل: ١٨٩١م)، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى، بغداد.
- **الزبيدي**: محمد مرتضى الحسين الواسطي (ت: ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م)
- تاج العروس في جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت: د.ت).
- **الزمخشري**: أبو القاسم جار الله محمد بن عمر (ت: ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)
- أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد أورفائد، (القاهرة: ١٩٥٣م)

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر (بيروت: د.ت).

- **ابن الساعي**: أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ابن الساعي الخازن (ت: ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)

- مختصر أخبار الخلفاء، المطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٨٩١م).

- **سبط ابن الجوزي**: شمس الدين المظفر يوسف قزهأوغلي التركي (ت: ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن: (١٩٥١م).

- **السبكي**، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت: ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)

- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق، محمد علي النجار وآخرين، دار الكتاب العربي (القاهرة: ١٩٤٨م)

- **ابن سعد**: محمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)

- الطبقات الكبرى، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠م) وطبعة (ليدن: ١٩٠٠م).

- **السكتواري**: علاء الدين علي دده (ت: ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م)

- محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، بولاق، (القاهرة: ١٨٨٢م).

- **السمعاني**: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت: ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)

- الأنساب، تحقيق، الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الناشر محمد أمين (بيروت: ١٩٨٠م).

- **ابن سيده**: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي (ت: ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)
- كتاب المخصص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، (بيروت: د.ت).
- **السهيلي**: عبد الرحمن بن أحمد (ت: ٥٨١هـ/ ١١٨٥م).
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة (د.م: ١٩٧٨م)
- **السيوطي**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
- تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، (القاهرة: ١٩٧٥م).
- الوسائل إلى مسامرة الأوائل، تحقيق، الدكتور أسعد طلس، مطبعة النجاح، (بغداد: ١٩٥٠م).
- **أبو شجاع**: الوزير محمد بن الحسين ظهر الدين الروذراوري (ت: ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)
- ذيل كتاب تجارب الأمم، الجزء الثالث في سياق تواريخ طبعة، هـ.ق امدروز، شركة التمدن الصناعية، (القاهرة: ١٩٢٦م).
- **الشهرستاني**: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)
- كتاب الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٧٥م).
- **الصابئ**: أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت: ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م).
- رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني (بغداد: ١٩٦٤م).
- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق، عبد الله مخلص، (القاهرة: ١٩٥٨م).

- **الصابي**: أبو الحسن محمد بن هلال الصابي (ت: ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م).
- الهفوات النادرة، تحقيق، الدكتور صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللّغة العربية، (دمشق، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).
- **الصفدي**: صلاح الدين خليل ايبك (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)
- نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية (القاهرة: ١٩١١م).
- الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرينتيغ، فرانز شتايز، (القاهرة: ١٩٧٤م).
- **الصولي**: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت: ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)
- أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق، عني بنشره، ج. هيورث، د ن، دار المسيرة، (بيروت: ١٩٧٩م).
- **الظاهري**: غرس الدين خليل بن شاهين (ت: ٨٧٣هـ/ ١٤٦٧م)
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه، بولس راوليس، المطبعة الجمهورية، (باريس: ١٨٩٤م).
- **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٦٦م).
- **ابن الطقطقى**: محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)
- الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، (القاهرة: ١٩٦٢م).
- **ابن طيفور**: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت: ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)
- تاريخ بغداد، صححه وعلّق عليه الشيخ محمد زاهد الحسن الكوثري، نشر وطبع السيد عزت العطار الحسيني، (بغداد: ١٩٤٩م).

- **أبو العتاهية**: أبو إسحق إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية الشاعر (ت: ٢١٣هـ/ ٨٢٨م).
- أشعاره وأخباره، شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق (دمشق: ١٩٦٥م).
- **العباسي**: الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن العباس (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م).
- آثار الأول في تاريخ الدول، مطبعة بولاق، (القاهرة: ١٨٧٨م)
- **ابن عبد ربه**: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ: ٩٣٩م)
- العقد الفريد، تحقيق، محمد سعيد العريان، دار الفكر، (القاهرة: ١٩٥٣م)
- **ابن العبري**: أبو الفرج غريغوريوس أهرون السلفي (ت: ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)
- تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت: ١٩٥٨م)
- **ابن عساكر**: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تحقيق، تهذيب عبد القادر بدران، دار المسيرة، (بيروت: ١٩٧٩م)
- **العسقلاني**: الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن حجر (ت: ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)
- فتح الباري، بشرح صحيح الإمام البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، (القاهرة: ١٨٨٢م).

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حيدر أباد، (الدكن: ١٩٣١م).

- ابن العمراني: محمد بن علي بن محمد (ت: ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)

الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق، الدكتور قاسم السامرائي، (ليدن: ١٩٧٣م).

- العمري: شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)

- التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، (القاهرة: ١٨٩٤م).

- الفراهيدي: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ/ ٧٨٢م).

- كتاب العين، تحقيق، مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٨٦م).

- ابن الفوطي: أبو الفضل كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (ت: ٧٢٣هـ/ ١٣٢٢م)

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب إلى ابن الفوطي، تحقيق، الدكتور مصطفى جواد، مطبعة الفرات، (بغداد: ١٩٣٢م).

- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت: ٧٢٩هـ/ ١٣١٨م).

- القاموس المحيط، دار الجيل، (بيروت: د.ت).

- الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري (ت: ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م).

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، صححه مصطفى السقا، المطبعة الأميرية (القاهرة: ١٩٥٠م).

- **قدامة بن جعفر**: أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت: ٣٢٠هـ/ ١٩٣١م).
- الخراج وصنعة الكتابة، شرح وتعليق، الدكتور محمد حسين الزبيدي، دار الحرية (بغداد: ١٩٦٠م).
- **القرطبي**: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)
- الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، (بيروت: د.ت).
- **القرطبي**: عريب بن سعيد القرطبي (ت: ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م)
- صلة تاريخ الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٨٢م)-

**القزويني**: زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).

- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، (بيروت: ١٩٦٠م).
- **القفطي**: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت: ٦٤٦هـ/ ١٢٤٦م).
- إنباء الرواة على أبناء النحاة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية (القاهرة: ١٩٥٠-١٩٥٥م).
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، (ليبزك: ١٩٠٣م).
- **القلقشندي**: أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، (القاهرة: ١٩٦٣م).
- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، تراث العربي، (الكويت: ١٩٥٦م).
- **ابن الكارزوني**: ظهير الدين علي بن محمد (ت: ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)
- مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق، الدكتور مصطفى جواد، (بغداد: ١٩٧٠م).

- **الكتبي**: محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م).
- فوات الوفيات، تحقيق، الدكتور إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٣م).
- **ابن كثير**: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
- البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، (القاهرة: ١٩٣٢م).
- **الكلبي**: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت: ٢٠٤هـ/ ٨١٩م).
- **جمهرة النسب**، تحقيق، ناجي حسن، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٨٦م)
- **الماوردي**: أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة السعادة، مصطفى البابي الحلبي، (القاهرة: ١٩٦٦م).
- **المرتضى**: أحمد بن يحيى (ت: ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)
- كتاب طبقات المعتزلة، تحقيق، سوسنة ريفلد، فلزر، نشر فرانزشتايز، فسبادن، (بيروت: ١٩٦١م).
- **ابن المعتز**: عبد الله بن المعتز بن المتوكِّل بن المعتصم بن هارون الرشيد (ت: ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)
- طبقات الشعراء، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف (القاهرة: ١٩٨١م).
- **المسعودي**: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة (القاهرة: ١٩٤٨م).

- التنبيه والاشراف، مكتبة خياط، (بيروت: ١٩٦٥م و١٩٨١م).
- **مسكويه**: أبو علي محمد بن أحمد بن يعقوب (ت: ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).
- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، (ليدن: ١٨٧١م)، أعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد.
- **المقدسي البشاري**: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت: ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل (ليدن: ١٩٠٦م)، أعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد.
- **المقدسي**: مظهر بن طاهر (ت: ٣٥٥هـ/ ٩٦٧م)
- البدء والتاريخ، باعتناء، كلمان هوار، بغداد، أوفسيت، د.ت.
- **المقريزي**: تقي الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، طبعة مصورة بالأوفسيت عن طبعة بولاق، (بيروت: ١٨٥٣م).
- **المناوي**: الشيخ عبد القادر (ت: ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م)
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، نشره وصححه وعلّق عليه، محمود ربيع، مطبعة الأزهر (القاهرة: ١٩٣٨م).
- **ابن منظور**: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م)
- لسان العرب، دار صادر، (بيروت: ١٩٥٦م).
- **مؤلف مجهول**:
- كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، نشر دغويه، طبعة بريل، (ليدن: ١٨٧١م)، وأعادت طبعه مكتبة المثنى بغداد.

- **ابن النديم**: محمد بن إسحاق (ت: ٣٨٣هـ/ ٩٩٤م)

- تاريخ بخارى، ترجمة، أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، (القاهرة: ١٩٦٥م).

- **الكندي**: أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (ت: ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)

- كتاب الولاة والقضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن گست، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت: ١٩٠٨م).

- **الهرثمي**: أبو سعيد الشعراني صاحب المأمون (من القرن الثالث الهجري)

- مختصر سياسة الحروب، تحقيق، عبد الرؤوف عوني، (القاهرة: ١٩٦٤م).

- **الهروي**: علي بن أبي بكر الهروي (ت: ٦١١هـ/ ١٢١٤م).

- تذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع مرابط، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق، ١٩٧٢م).

- **الهمداني**: محمد بن عبد الملك (ت: ٥٢١هـ/ ١١٢٧م).

- تكملة تاريخ الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٨٢م).

- **ورام الاشتري**: أبو الحسين ورام بن أبي فراس المالكي (ت: ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م).

- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، عني بنشره، الشيخ محمد الأخوندي، چايخانة حيدري، (تهران: د.ت).

- **ابن الوردي**: الشيخ زين الدين عمر بن الوردي (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)
- تاريخ ابن الوردي المسمى (تتمة المختصر في تاريخ البشر)، تحقيق، أحمد رفعت البداري، دار المعارف، (بيروت: ١٨٤٢م).
- **اليافعي**: عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني (ت: ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق، عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨٤م).
- **ياقوت الحموي الرومي**: شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
- معجم الأدباء المسمى (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: ١٩٣٨م).
- معجم البلدان، دار المستشرق، (بيروت: د.ت).
- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، طبعة (جونتجهن: ١٨٤٦م)، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى (بغداد).
- **اليعقوبي**: أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب (ت بعد: ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)
- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، دار بيروت، (بيروت: ١٩٦٠م).
- **أبو يوسف**: يعقوب بن إبراهيم (ت: ١٩٢هـ/ ٨٠٨م)
- كتاب الخراج، المطبعة السلفية، (القاهرة: ١٩٦٢م).
- **اليونيني**: موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين (ت: ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)
- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، (الدكن: ١٩٥٤م).

**المصادر الفارسية:**

- **الملك**: خواجه نظام الملك (ت: ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م)
- كتاب سياسة نامة (سير الملوك)، باعتناء عطاء الله تدين، انتشارات تهران، (تهران: ١٩٥٣م).
- **ميرخوند**: محمد بن خاوند شاه بلخي (ت: ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)
- تهذيب وتلخيص دكز عباس زريان، چابخانه ى مهارات، تهران: ١٩٥٠م.

**المراجع العربية والمعرّبة الحديثة:**

- **إبراهيم العدوي (الدكتور)**: السفارات الإسلامية إلى أوروبا، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٥٧م).
- **أحمد أمين**: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، (القاهرة: ١٩٦٢م).
- **أحمد زكي صفوت**: جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة العصر العباسي الأول، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، (القاهرة: ١٩٦٢م).
- **أحمد محمد الشحاذ**: الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، (بغداد: ١٩٧٧م).
- **أحمد فريد الرفاعي (الدكتور)**: عصر المأمون، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة: ١٩٢٨م).
- **أحمد شلبي (الدكتور)**: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٧٨م).
- **أحمد مختار العبادي (الدكتور)**: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (الإسكندرية: ١٩٨٢م).

- **ارسن موسى رشيد (الدكتور)**: الشرطة في العصر الأموي، مكتبة السندس للطباعة والنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٠م).
- **بارتولد (فاسيلي فلاديمير فتش)**: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة، حمزة طاهر (القاهرة: ١٩٦٨م).
- **بخش (خودا)**: الحضارة الإسلامية، ترجمة د. علي حسني الخربوطلي، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: ١٩٦٠م).
- **بدري محمد فهد (الدكتور)**: العامَّة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، (بغداد: ١٩٦٧م).
- **بروكلمان، كارل**: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، (بيروت: ١٩٧٧م).
- **جب، هاملتون**: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين (بيروت: ١٩٦٤م).
- **جرجي زيدان (الدكتور)**: تاريخ التمدن الإسلامي، مطابع مؤسسة دار الهلال، (القاهرة: ١٩٦٨م).
- **جرنفيل، فريمان**: التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة، د. حسام الدين الألوسي، الطبعة الثانية، مطبعة الجمهورية، (بغداد: ١٩٨٦م).
- **جهادية القره غولي (الدكتورة)**: العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٣٢هـ، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٨٦م).
- **حسن إبراهيم حسن (الدكتور)**: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤م، (بيروت: ١٩٦٧م).
- **حسين علي المسري (الدكتور)**: تجارة العراق في العصر العباسي، ذات السلاسل، والكويت: ١٩٨٢م).

- **خالد جاسم الجنابي (الدكتور)**: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٤م).

- **أبو زيد شلبي**: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، مطبعة الاستقلال الكبرى، (القاهرة: ١٩٦٤م).

- **رمزية محمد الأطرقجي (الدكتورة)**: الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول، مطبعة الجامعة، (بغداد: ١٩٨٢م).

- **سامي مكي العاني (الدكتور)**: معجم ألقاب الشعراء، مطبعة النعمان، (النجف: ١٩٧١م).

- **سعد إبراهيم الأعظمي**: جرائم التَّجسس في التشريع العراقي، جامعة الموصل، (الموصل: ١٩٨١م).

- **سعيد الجزائري**: ملف الثمانينات عن حرب المخابرات، مطبعة الشام، دار دمشق الكبير للنشر والتوزيع (دمشق: ١٩٨٨م).

- **سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)**: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، الطبعة الثانية، (الكويت: ١٩٨٦م).

- **سميرة مختار الليثي**: الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعربية، المطبعة الفنية الحديثة، (القاهرة: ١٩٣٨م).

- **سهام عبد الوهاب الفريح (الدكتورة)**: الجواري والشعر في العصر العباسي الأول، شركة الربيعان للنشر والتوزيع (الكويت: ١٩٨١م).

- **صلاح الدين المنجد (الدكتور)**: بين الخلفاء والخلعاء، دار الحياة، (بيروت: ١٠٥٧م و١٩٧٤م).

- **عبد الجبار الجومرد (الدكتور)**: داهية العرب أبو جعفر المنصور، مطبعة دار الكتب، (بيروت: ١٩٥٦م).
- هارون الرشيد، المكتبة العمومية، (بيروت: ١٩٥٦م).
- **عبد العزيز الدوري (الدكتور)**: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف، (بغداد ١٩٤٨م).
- العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، مطبعة التفيض الأهلية، (بغداد: ١٩٤٥م).
- **عبد الكريم الأشتر (الدكتور)**: دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، دراسة تحليلية لحياته وشعره، دار الفكر، (دمشق: ١٩٦٤م).
- **عبد المنعم ماجد (الدكتور)**: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى الإسلامية، دار الشؤون الثقافية العامَّة، (بغداد: ١٩٨٤م).
- **عبد النعيم محمد حسنين (الدكتور)**: دولة السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة: ١٩٧٥م).
- **عجمي محمود خطاب الجنابي (الدكتور)**: هارون الرشيد ومؤسسات الخلافة في عهده، ١٧٠-١٩٣هـ، بيت الحكمة، (بغداد: ١٩٨٩م).
- **فخري الزبيدي**: الموجز المنتخب من حوادث وأخبار هارون الرشيد، مطبعة أركان (بغداد: ١٩٨٨م).
- **فرا، غود. م**: النظم الإسلامية، ترجمة، د. فيصل السامر، د. صالح الشماع، (بيروت: ١٩٦١م).
- **فروبناوم، غوستاف فون**: شعراء عباسيون، ترجمها الدكتور محمد يوسف، وراجعها الدكتور إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، (بيروت: ١٩٥٩م).
- **فيليب حتي وآخرون**: تاريخ العرب، مطبعة التفيض، (بيروت: ١٠٧٤م).

- **قحطان عبد الستار الحديثي (الدكتور)**: أرباع خراسان، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، (البصرة: ١٩٩٠م).
- **متز، آدم**: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف، (القاهرة: ١٩٥٧م).
- **محمد حسين الأعرجي**: جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق: ١٩٩٨م).
- **محمد جابر عبد العال (الدكتور)**: حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة: ١٩٥٤م).
- **محمد عبد الستار عثمان (الدكتور)**: المدنية الإسلامية، مراكز الكتب الثقافية، مطابع الرسالة، (الكويت: ١٩٨٨م).
- **محمد جمال الدين سرور (الدكتور)**: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق، دار الثقافة العربية للطباعة، (القاهرة: ١٩٦٥م).
- **محمد حسين الزبيدي (الدكتور)**: العراق في العصر البويهي ٣٣٤-٤٤٧هـ، دار النهضة العربية، المطبعة العالمية (القاهرة: ١٩٦٩م).
- **محمود إسماعيل (الدكتور)**: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، (الكويت: ١٩٩٠م).
- **مجموعة المؤلفين**: حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٥م).
- **محسن محمد حسين (الدكتور)**: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، تركيبه، تنظيمه، بحريته وأبرز المعارك التي خاضها، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٩٨٦م).

**منير العجلاني**: عبقرية الإسلام في أصول الحكم، (دمشق: ١٩٦٣م).

- **موفق سالم نوري**: العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧هـ/ ٧٥٠-٨٦١م. دار الشؤون الثقافية العامَّة، (بغداد: ١٩٩٠م).
- **مولود حسيني**: الإدارة العربية، ترجمة، إبراهيم أحمد العدوي، (القاهرة: ١٩٥٨م).
- **نادية حسني صقر (الدكتورة)**: السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول، جامعة (أم القرى: ١٩٨٥م).
- **نظير حسان سعداوي**: نظام البريد في الدولة الإسلامية، (القاهرة: ١٩٥٣م).
- **نعمان ثابت**: الجندية في الدولة العباسية، مطبعة أسعد، (بغداد: ١٩٥٦م).
- العسكرية في عهد العباسيين، (بغداد: ١٩٦٣م).
- **نهاد عباس شهاب الجبوري**: تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة، (بغداد: ١٩٨٩م).
- **واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي (الدكتورة)**: المرأة في أدب العصر العباسي، دار الرشيد (بغداد: ١٩٨١م).
- **يوسف حسن غوانمة**: التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر للنشر والتوزيع، مطبعة الشرق، (عمان: ١٩٨٢م).

## الموسوعات:

- دائرة المعارف الإسلامية، المطبعة الجديدة، ترجمة إبراهيم زكي، الطبعة الثانية، مطبعة دار الشعب، (القاهرة، مج ٧، ١٩٦٩م).
- هارتمان، مادة بريد.
- دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، (القاهرة، مج ١٠، د.ت).
- **أحمد سنتناوي وآخرون**، مادة جاسوس.

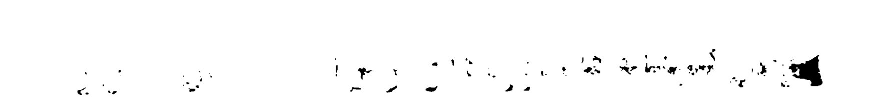
## الرسائل والأطاريح الجامعية غير المنشورة:

- **أحمد عبد العزيز محمود**: الأمن في بغداد خلال العصر العباسي الأول ١٤٥-٢٤٧هـ، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب، (جامعة صلاح الدين: ١٩٩٨م).
- **عطا سلمان جاسم**: الاستنفار للجهاد والاستجابة له في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب (جامعة بغداد: ١٩٩٠م).
- **نه به ز مجيد أمين**: الاستخبارات الأيوبية في عهد صلاح الدين، أطروحة دكتوراه مكتوبة على الآلة الطابعة، كلية الآداب، (جامعة صلاح الدين: ١٩٩٧م).

## الدوريات:

- **إبراهيم أحمد العدوي (الدكتور)**: الحمام الزاجل في العصور، المجلة التأريخية، العدد (٢)، المجلد (٢)، (القاهرة: ١٩٤٩م).
- **حسين علي الداقوقي (الدكتور)**: نظام البريد في الحضارة الإسلامية، مجلة المورد، العدد (١٨)، (بغداد: ١٩٨٩م).
- **دريد عبد القادر نوري (الدكتور)**: الشرطة في العراق في العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢٩) (بغداد: ١٩٨٦م).
- **عبد الواحد ذنون طه (الدكتور)**: صاحب الخبر وأهل الأخبار، مجلة الشرطة، العدد (٣١)، (بغداد: ١٩٧٥م).
- **كامل مصطفى الشيبي (الدكتور)**: أصحاب الأخبار أو رجال المخابرات في التراث العربي حتى سقوط الدولة العباسية، آفاق عربية، العدد (٧)، (بغداد: ١٩٨٢م).
- **محمد مستجاب**: البريد، مجلة العربي، (الكويت: ١٩٩٨م).

- Boissannads: Lelra Vall dan L'Europe Chrétienne au Moyen Âge, Paris, 1921.
- Buckler. (R.W.M.A): Harunu, L. Rashid and Charles the Great the Massachusets, 1931.
- Elipesseds Nikita: Larient Musulman au Moyen Age, bzz, 1260, 1977.
- Hugeney, Pierre: Droit Penal étude Procédure Penale Militaires, Paris, 1940.
- Kremer, J.M: Orient under the Califate, Calcuta, 1920.
- Levy Reuben: The Social Struture of Islam, Cambridge, 1965.
- Mazaheri Ali: Orta Cogda Musulman Larin Yasayis - Lartre, D.R. Bahrye Uook, Istanbul, 1951.



## فهرس المحتويات

## المؤلفة في سطور

- الاسم: نسرين محمود علي
- أنهت الدراسة الإعدادية سنة ١٩٨٣-١٩٨٤م في ثانوية زينب المسائية للبنات في أربيل.
- حصلت على شهادة البكلوريوس في قسم الاجتماع من كلية الآداب/ جامعة صلاح الدين في أربيل سنة ١٩٨٨م.
- حصلت على الماجستير في التراث العلمي/ الاجتماعي من معهد التاريخ العربي والتراث العلمي في بغداد سنة ١٩٩٩م وعنوان الرسالة (صاحب الخبر في العصر العباسي).
- حصلت على الدكتوراه من نفس المعهد سنة ٢٠٠٤م وعنوان الأطروحة (التدابير الأمنية في مصر وبلاد الشام في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي)

### الوظائف التي مارستها:

- بعد التخرج من الكلية سنة ١٩٨٨م درست في (ثانوية هلمت للبنين) في أربيل المواد (الاجتماعيات - اللغة العربية - الثقافة القومية) كمحاضرة حتى منتصف كانون الثاني من عام ١٩٨٩م.
- وفي ٢٥/١/١٩٨٩م باشرت بوظيفة باحثة اجتماعية في (معهد الرجاء للمتخلفين عقليًا) في أربيل بعدما تمّ تعيينها في مديرية الرعاية الاجتماعية بشكل رسمي ودائم. سنة ١٩٩٢م ثم تولت إدارة (دار رعاية الأحداث في أربيل).
- سنة ١٩٩٢م قدمت مشروع في (كيفية تأسيس مديرية رعاية الأحداث في أربيل). تعمل حاليًا مدرسة في معهد الفنون الجميلة في أربيل.